



Aa



كتبي





Aa



كُتِبِي



أحمد مراد

أرض الإله

دار الشروق





Aa



كُتِبِي



أرض الإله

أحمد مراد

تصميم الغلاف : أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٧ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر . القاهرة . مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

[www.shorouk.com](http://www.shorouk.com)

رقم الإيداع ٧٤٠٣/٢٠١٦

ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٠٩-٣٣٨٢-٤





Aa



كُتِبِي



«سُتُصَبِّحِينَ أَرْمَلَةً.

وَكُلُّ صَوْتٍ مُقَدَّسٍ سَيُجْبَرُ عَلَيَّ الصَّمْتِ.

وَتُصَابُ مَعْرِفَةُ الرُّوحِ الْخَالِدَةِ بِالْإِنْكَارِ وَالسَّخَرِيَّةِ.

مِنْ تَنْبِؤَاتِ الْمُعْظَمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

«إِدْرِيسُ»

عَنْ أَرْضِ «إِيْچِيْبِيْتِ»







ربيع ١٩٢٤

مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة.

اقتربت السكرتيرة من الغرفة بخطوات صارمة، تحمل بين يديها ملفًا ضخمًا مغلقًا بشريط أحمر، عند الباب وقفت، هندمت قميصها ثم قرعت:

. سيد بانكروفت، السيد كارتر جالس في مكتبي، حضر دون إخطار مسبق.

نظر الرجل لساعة الحائط التي أشارت إلى التاسعة صباحًا، حكَّ إبهامه بسبابته في تيرم ثم أشار إليها أن تقترب، وضعت الملف أمامه، أزال الشريط الأحمر وأخرجت ورقتين:

. تلك هي آخر مخاطبة بريدية مع رئيس مصلحة الآثار المصرية، وهذا رد مكتب رئيس الوزراء على الالتماس الذي قدمناه.

هز السيد بانكروفت رأسه:

. أدخلني كارتر بعد خمس دقائق، وحين أضغط الجرس تعالي لتخبريني على مسمع منه أن هناك اجتماعًا هامًا ينتظرني.

هزت السكرتيرة رأسها وخزجت، مرت عيناه على سطور المخاطبات البريدية حتى قرع الباب كارتر، دخل بابتسامته العصبية والبابيون المنقطة، خلع قبعته ومد يده بسلام:

. سيد بانكروفت.

. سيد كارتر، مرحبًا، تفضل.

فتح علبة سيجار فخم وقربها من كارتر فاعتذر، أشعل لنفسه واحدة ونفت دخانها ثم قال بابتسامة:

. شمس اليوم رائعة، تمشيت في أشعتها ساعة حتى انتعشت مفاصلي وصفا ذهني، فلدي اجتماع هام مع المندوب



السامي بعد قليل.

. أعذر عن الحضور بلا ميعاد، ولا أرغب في تضييع وقتك، لكن الوضع أصبح مَهِينًا وغير مَحْتَمَل.

. سيد كارتر، لقد خاطبنا مصلحة الآثار ومكتب رئيس الوزراء السيد سعد زغلول، وكان الرد قاطعًا؛ رفض تجديد تصريح التنقيب الخاص بالمقبرة.

تحفز كارتر على طرف كُرسِيه:

. سيد هنري، سأمحتني حين أقول إن حكومتنا لا تُدرك حجم المشكلة؟ تلك الفضيحة ستدوي في الجرائد أكثر من اسم «توت عنخ آمون». هوارد كارتر، مُكتشف أهم مقبرة في القرن العشرين، مَمْنوع من التنقيب في مقبرته بأمر من السلطات المصرية.

. مقبرتك! لم لا تكمل الجملة يا سيد كارتر؟

نظر بالكروفت في خطاب مصلحة الآثار وقرأ:

. لما لاقته المصلحة من مخالفات وتلاعب في السجلات، مثل عدم تدوين رأس الملك الخشبية الخارجة من زهرة اللوتس الزرقاء والتي عثر عليها في صندوق نبيذ أحمر ماركة «فورتنم وماسون» بمقبرة رمسيس الحادي عشر، أتحب أن أكمل قراءة التقرير؟

. أنت تُصدّق المصريين؟ تُصدّق الهَمْج! لقد وجدتها في رديم مَمَرِ المقبرة. كيف أهتم بتدوين قطع صغيرة تافهة وسط هذا الكم من الصخب الصحفي وزيارات رجال السلطة؟

. عليك أن تقنع السلطات المصرية بذلك، بالإضافة إلى أن مُكتشف المخالفة هو السيد «بيير لاكو» وليس أحد الموظفين المصريين. وقد أسر لي بأن رأس الملك الخشبية ليست القطعة الوحيدة التي لم تدوّن في السجلات..

. البيروقراطية أهم من كشف «توت عنخ آمون»؟





. عذر لا يبرر موقفك.

. ما لي أشتّم رائحة تخاذل؟ أين مكتب المندوب السّامي؟ كانت لنا اليد العليا يومًا في مثل تلك الأمور.

. من فضلك أخفض صَوْتك، انفعالك ليس له مردود في ذلك المبنى. أنت تعلم جيدًا أن الوضع ملتهب بيننا وبين السلطات المصرية منذ انتهاء الحماية على مصر...

قاطعه كارتر:

. الحماية؟ هراء، تلك لعبة سياسية أنت أول من يعلم بها.

. في وجود «سعد زغلول» على كرسي الوزارة، لا مجال للتفاهم. رأس من الصخر، متحفز ضد كل ما هو بريطاني، يجب أن نلتزم بالتهدئة حتى إشعار آخر، وأؤكد لك مرة ثانية على صعوبة التدخل الحالي لحساسية القضية.

. أنتم لا تدركون ما تفعلون؟ جورج الخامس بات يُرسل إلى مصر هواة السياسيين.

. راقب الفاظك، إن أهمية «مقبرتك» كما تسميها ليس في أهمية السياسة الخارجية للمملكة.

قام كارتر في غضب:

. حسنًا، بلغ رؤساءك أنني إن لم أتلّق ترضية كافية وعادلة، فسانشر على العالم كافة تفاصيل نصوص البرديات التي عثرت عليها بغرفة دفن الملك...

. أي برديات؟





## سَمْنُود: معبد الأسوار السبعة - ٢٥٠ عامًا قبل ميلاد المسيح

السنة الخامسة والثلاثين لحكم فيلادلفيوس «بظلميوس الثاني».

رغم الصيف القانظ تراكمت السماء بالغيوم الدأكنة، ثم انهالت الأمطار، غزيرة صاخبة مصحوبة بهزيم زعد يصم الأذان، حتى امتلأت تجاويف الأرض ببرك صغيرة ولمعت أحجار المعبد العتيق في بهاء ورهبة.

الطقس المباعث لم يمنع الكهنة الحفاة خالقي الرؤوس والأجساد من التراكم في بهو الأعمدة، تبللت أرديتهم الكتانية حتى لاحت الجلود تحتها وارتعشت الأطراف في وجل، تتردد أعينهم بين الشحاب المركوم وبين الباب النحاسي الكبير لقدس الأقداس، الباب الذي لم يكن ليترك مواربًا، فهو إما مغلق لأن المكان خال، أو مغلق لأن كاهن المعبد بالداخل، يتولّى بنفسه حفظ المتون المقدسة في الرُقوف، حرق البخور، ودهان التمثال الكبير بزيوت اللوتس واللبان والمِسك، ذلك التمثال الذي نحتته الملائكة تكريمًا للمعظم ثلاث مرّات «إدريس»، رجل حاز الملك والحكمة والنبوة، علم الجبتيين الزراعة والغزل، الصلاة على الموتى، وجعل من رؤية الهلال وفيضان النهر عيدًا، كما علمهم قراءة النجوم والأبراج، والكتابة بالقلم، في لغة لم ير لها مثيل بين البشر من قبله.

انقضت دقائق والقلق ينهش الكهنة المتزاحمين، فسُتقر في صدورهم أن أمرًا جليلاً سيحدث، حتى كسر الجمود «كاي» فتى من قرية مجاورة وهبه عمه للمعبد بعد وفاة أبيه، تربى بين جنباته ككاهن «مُطهر»، يُعنى بشئون النظافة والسقاية، ثم تعلّم الكتابة حتى بلغ مرتبة كاهن «مُجنّح»، وضعت على رأسه ريشتا التحليق في العلم الإلهي واطّلع على أسرار الحروف بعد صوم عن الكلام ترك في عينيه ثبات العارفين. تقدم كاي فالتفت الأعين وتعالّت الهممات قبل أن يرتفع صوت:

لست مُخولًا بالدخول دون إذن، ستجلب علينا لعنة، لنتنظر عودة نائب الكاهن.

رفع كاي سبّابته للسماء:

مطر غزير في صيف عقيم، باب قدس الأقداس موارب، والكاهن الأعظم لم يخرج لصلاة منذ الفجر!



ارتفع صوت ثان:

. لعلّه يتأمل.

تبعه صوت آخر:

. أو صعد إلى السماء ليقابل رب الأرباب.

. أو لعل فكروها أصابه.

قالها كأي فساد صمت، ثم أردف:

. سأتحمل العاقبة وحدي.

تقدم تجاه الهيكل ورفع المقبض الكبير ثم هوى على صدر الباب بطرقتين. رن النحاس في وقار ولم يلتقط الكاهن إجابة. دس رأسه بين درفتي الباب في حذر. لم يتبين من الظلمة شيئاً. فالهيكل نافذته في السقف والشمس إلى الغروب تنحدر. التفت لرفاقه فأجابوه بقسمات ملؤها الوجوم والخشية. ثم نظر للسماء يستسمحها الدخول مُتمتماً بسيفر الغفران. شب الكهنة على أطراف أصابعهم يتطلعون لمن ستبلل قدميه أرض الهيكل حتى اختفى عن الأنظار. راسخ في صدورهم أن صاحبهم من اللحظة هالك فلعون. فمن ذا الذي يدنو من قدس الأقداس دون إذن الكاهن الدقائق مرت كسنة جدياً قبل أن يلتقطوا صوت آنية تصطك على الأرضية المرمرية. في الداخل كان كأي يتعثر في كنوس وأباريق مبعثرة، السراج الكبير فطفاً والشموع هامة. وهواء الهيكل محمل ببخور كثيف أثار حلقه وعينه. نادى في الفراغ:

. سيدي الكاهن الأعظم، أنا كأي. خادمك. اغفر لي دخولي دون إذن. سيدي!

لم يتلق إجابة فرفع يديه يلمس طريقه حتى تعرّف على المركب المقدس. ابتعد خطوات فاصطدم بالناووس الحجري فقرر الثبات متيحاً لعينه الفرصة أن تعتاد الظلمة. ببقايا ضوء الغروب النافذ من الفتحة العلوية ميز تمثال «إدريس» فخرّ على ركبتيه احتراماً قبل أن يلمح كتلة جاثمة على الأرض بين القدمين الحجريتين. اقترب فميز ملابس الكاهن





الأعظم، نفخ زهوله وأسرع ناحيته. الكاهن كان مكباً على وجهه ومن تحته بركة دماء لزجة خضيت فرو الفهد فوق كتفيه وتسللت بين شقوق الأرضية. التقط كاي اليد فاستشعر برودة. تلاحقت أنفاسه وهو يدير الجسد الهرم ناحيته، أخدود غائر شق الرقبة وأبرز لحمها، وسكين استقر على بُعد ذراعين من الأطراف الباردة.

تغلب كاي على رعشة ألمت به فأراح جثمان الكاهن بلسان لا يخف عن ترديد متون الرحمة. ثم قام والتقط السكين، تأمل نصله المشحود بحرفة ثم لمح الخزانة الأرضية، فراغاً مربّعاً عمقه ذراعان. تغطيه بلاطة محفورة بزهرة لوتس غائرة، لها قفل سحري لم يسأل يوماً عن طريقة فتحه. الغطاء كان مزاحاً عن مكانه والبرديات مبعثرة! ثم ميز قرب كف الكاهن أحرفاً مكتوبة بالدم. مدّ يده لمرآة الروح فستغفراً فنعكس على سطحها ما تبقى من ضوء السقف، قرأ بصعوبة ثلاث علامات إغريقية «ΨΑΕ». رعشة الخط قالت إن الكاهن الأعظم كتب رسالته بالرمق الأخير، رساله أعفلها قاتله!

انكفاً كاي على الأرض يلتمس أثر خطوات الغدر فتداعت الأفكار في رأسه كالديابير الجائعة، الهيكل له باب واحد لم يخرج منه الكاهن منذ الفجر، من دبحه استغفرد به ساعة التأمل حيث دخلو له التعبد والخل بيام، دبحه ولم ينتظر النفس أن تغادر، سرق الخزانة الأرضية وفر في عجالة تاركاً الباب مؤزباً!

«أكون أحد أبناء المعبد؟»

وقع الفكرة كان مريعاً، أجبر كاي أن ينظر للعلامات نظرة أخيرة، ثم يطمسها بكفيه «إذا أراد الكاهن إيصال رسالة، فمن الأفضل ألا تصل لقاتل بين جنات المعبد»، قالها في نفسه ثم تولى مديراً حتى وصل إلى الباب النحاسي. خرج بوجه باهت وكف مخضبة، رفعها مرتعشة في وجوه المترقبين مقاوماً حشجة الحمت حلقه.

. لقد قتل الكاهن الأعظم.





ظهر اليوم التالي.

جزيرة فاروس، الإسكندرية.

على ارتفاع مائتين وستين ذراعاً انصب إلى البحر فوق القمة، رافعاً يَمناه بحرية ثلاثية النّصل. رافعاً البحر بعينين زاجرتين من العقيق في رأس ذهبية بنت الرّعب في نفوس من أقاموه. أسفل منه يقع بيت المرأة، قبة تحملها ثمانية أعمدة تحتضن امرأة برونزية هائلة تعكس الشّمس بصفرة ذهبية يميّزها ملاحو السفن من مسافة ثلاثين ميلاً. ويتحاشون بؤرتها الحامية منذ رُوح البحارة العجائز الحكايات عن اضطرام النار في سفنهم حين تسلطت عليها المرأة تحركها ثيران قحله في طواف سرمدى بغرفة تحت الأرض. وحين تلحسر الشّمس يشتعل الموقد، مجمرة نار حامية تنوِّسط بيت المرأة، تغذيها البغال والحمير بالخطب صعوداً على منحدر حلزوني ينتهي إلى أنون ملتهب. يسحب العمّال فوق خطبه الزيوت فتتأجج بوهج يخترق الخشب ويرشد السفن الجائحة إلى الميناء، أمّا أسفل المرأة وباتساع الفناء فيقع جناح الملك، طابق كامل زينت شرفته بخوريات بحر نرونزيات ينفخن في أصداف ذهبية، يكشف الواقف فيها قبر الإسكندر العظيم بشارع «صوما» ومعبد «السيرابييوم» والاستاد الأوليمبي بحي «راقودة»؛ حي الجيبتيين.

استوى الملك في الشّرفة على كرسي ناء بحمله السّمين. فسّمتعا بلسعة الشّمس في رداء من الحرير لم يخف دهون الرّق، بجانبه رقدت «بليستيش» فوق مخدّة عريضة. بربرية حسناء اشتهرت بلقب «أفروديت»، خلّبت عقل الملك





حين شاهد رقصتها فاقتناها، نفثت سحرها في أنفه فانطفأت أغلب العشيقات المتنافسات أمام سخونة وجنتيها التي تداعبها أنامله وهو يتابع سفينة غلال ضخمة تترنح فوق الموج مقتربة من الميناء، من ورائه وقف في خشوع رئيس خاصته الملكية، مردخاي. رجل ذكي عرف منذ زمن متى يتكلم ومتى يلتزم الصمت، ملك من الحنكة ما حافظ به على منصبه منذ عهد الملك الراحل «بظلميوس الأول» وحتى الآن، يلقيه عمال وموظفو الخاصة الملكية سرّاً به «القط» نظراً ليقظته وبراعته في إدارة مقاليد القصر. يوقع العقاب المبالغ فيه على المخطئ فيهرب من انتوت نفسه التراخي أو الإهمال.

مرت دقائق من الصمت قبل أن يتسحب الملك من فوق المنصدة إزاء نبيذ معموسة فيه زهور اللوتس الأزرق، قرّبها إلى أنفه فاستنشق العبير السحري المخدر ثم رشف رشفة وألقى برأسه إلى الوراء في ابتشاء حين أقلقت سكينته ذبابة لحوج، وضع الإناء وأشار لمردخاي. اقترب الأخير دون أن يقطع خط النظر للبحر في عيني مليكه.

. أنعرف يا مردخاي، لقد بنيت تلك المنارة في عشرين عاماً. ارتفعنا بها لعنان السماء حتى يراها السلوقيون من شرفات منارلهم. لكني ما زلت لا أفهم كيف يصعد الذباب في طرفة عين إلى قمّتها!

. لقد اتخذ أصحاب الأهرامات من الذباب نيشاناً للشجاعة على صدور جنودهم. فالذبابة إن طردت عن مكان فلا بد أن تعود إليه، كذلك القائد الناجح. إذا انسحب من مكان معركة فعليه أن يهيئ نفسه للعودة إليه.

. إذن علينا ترويض ذلك الكائن البغيض، أو جد لي طريقة لإبادته. لم يلقبك موظفو القصر بالقط من فراغ.

ضحك مردخاي فجأماً:

. لو كان صديقنا «هيروفيلوس الخلفدوني» على قيد الحياة لخيّرنا بين التشريح في مختبره أو العدول عن إزعاج جلالتك.

رمقته بليستيش بعينين متهمتين حين رفع الملك كأس نبيذه وسكب منه قطرات على الأرض:

. إلى روح طبيبنا الراحل هيروفيلوس.



ثم استطرد:

. ماذا لديك يا مُردخاي؟

أشار الأخير لعبد الباب. اقترب، يحمل بين يديه برديات ملفوفة بحزام جلدي، وضعها وانسحب، مد مُردخاي يده وسحب بردية، فضاها ونظر فيها فلما بمحتواها ثم ابتسم:

. سيدي، استكمال حفر القناة القديمة بين بحر البوص والنيل أوشك على الانتهاء. دورتان للقمر وستسافر على متن مركبكم الملكي عبر النهر إلى أرض الفيروز.

. احرص على أن يكون موكب الاحتفال مهيباً، أريد لأصدائه أن تصل لأصدقائنا في الشمال والشرق.

. يتم تزيين الفناء بمشاعل ستظل مشتعلة حتى عودتكم الخريمة. أما الرسّامون والنحاتون فيضعون اللّمسات الأخيرة على العربات الحربية وعرش جلالتك فوق القيل.

داعب الملك ندي بليستيش تحت الغلالة الشفافة مُردفاً:

. وأكثر من الأرقام في الموكب يا مُردخاي، فإن النساء يحبونهم ولا أعرف لذلك سبباً.

ضحكت بليستيش وابتسم مُردخاي:

. أمر جلالتك.

ثم مدّ يده وسحب بردية أخرى:

. إقليدس يطلب مقابلة. أنهى كتابه في الرياضيات والهندسة. وبود أن يعرضه على جلالتك قبل تسليمه للمكتبة.

. آتني به بعد الغروب، إقليدس يحتاج إلى قيلولة قبل لقائه وكاسي نبيد، فلسانه متدفق كفيضان غاشم، غرير الكلام

ينسى متى يتوقف. قل لي، كم بلغ عدد البرديات في رفوف المكتبة إلى الآن؟



. ستمائة وثمانين وخمسون ألفاً، وستزداد خمس إضمامات هذا الصباح، فقد أنهى حاخامات أورشليم عملهم على ترجمة الأسفار الخمسة للتوراة إلى اليونانية، وينتظرون مباركة جلالتك قبل أن يودعوها رُفوف المكتبة.

. ترجمت كتبكم المقدسة في شهرين؟

. اثنين وسبعين يوماً يا سيدي بالتمام والكمال.

. وعدد الحاخامات كان...؟

عاجله فردخاي.

. اثنين وسبعين حاخاماً، ستة حاخامات من كل سبط من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر.

. يا للصدفة!

. علامات الرب لا تنقطع منذ جئت بهم من «أورشليم» بعد استئذان «البعادر» رئيس الكهنة. أبحروا ومعهم النسخ مخطوطة بحروف من ذهب على رفوف الجلد. عزلت كل اثنين منهم في غرفة منفصلة بالجزيرة. وحرصت على عدم اتصالهم عن طريق مراقبة لصيقة، حتى أضمن أمانة الترجمة واحتراراً من الاقتباس. وما لبثت المعجزات أن بدأت في الحدوث.

. معجزات!

. نعم يا سيدي، لقد امتنع الحاخامات فحاة عن الطعام بلا مرض أو أذى. وكثرت الحمائم على الجزيرة بشكل غير مسبوق، تحوم في دوائر لا تتوقف وتهدل في نناغم، وشفت زوجة رئيس عمال الفئار من العقم. والآن هي حبللى... قاطعته بليستيش.

. عقم! أعرف زوجة رئيس عمال الفئار كما أعرف أصابعي، كانت من فتيات الدكتور يادس وكانت تجيد خدمة الرجال. أتذكر أنها حملت مرة لكنها أجهضت نفسها بالقرفة وبذور السمسم.



ضحك الملك:

. يبدو أن أحد الحاخامات كان يتجول ليلاً.

كزّ فردخاي على أسنانه ثم افتعل ابتسامة وأردف كأن لم يسمعها:

. اثنان وسبعون يوماً من البركات المتلاحقة توجت بست وثلثين ترجمة تطابقت بشكل عجيب، تطابق لا تصنعه سوى

يد إله. الحاخامات بلا استثناء قصّوا رؤيه واحدة اتهم نياما. زار الرب فيها أرواحهم ومدّ من جدائل شعره الذهبي حبال

نور إلى صدورهم.

رفع الملك إلى أنفه إناء اللوتس الأزرق، استنشق وارتنف فتسللت إلى قمه ابتسامة:

. اثنان وسبعون حاخاماً ترجموا ثوراتكم إلى اليونانية في اثنين وسبعين يوماً، سنّة حاخامات من كل سبط؟

. صحيح يا سيدي.

. بعض النظر عن الأسباط العشرة الذين فقدوا زمن غزو البابليين على أورشليم، رتكم أشرف بنفسه على ترجمات

الحاخامات حتى أصبحت كلها متطابقة؟

هز فردخاي رأسه في إيجاب:

. بل وأهمهم صيغة لعنة نطقوها لتطارد كل من يحرّو على الحذف من النسخة المترجمة أو الإضافة إليها، إيماناً

وبقيتنا باستخدام الرب أجسادهم وأقلامهم في ترجمة كلماته.

ضحك الملك:

. ليست تلك علامات الرب، بل علامات فردخاي.

ابتسم فردخاي ثم أردف:



. جلالتك، إن شيوخ اليهود في حي «دلثا» يموتون، ولم يَعد باستطاعة أحفادهم من مواليد الإسكندرية قراءة توراتهم بالعبرية، لذا تكفلوا باستضافة حاخامات أورشليم. وتبرعوا بعشرين تالنت من الفضة من أجل المكتبة ومعيد سيرابيس، وسيُصلون باسم جلالتك حين يقرءون توراتهم باليونانية التي فضلوها على لغتهم الأثيرة.

. وماذا عن الكلمات المُسيئة في كتبكم؟ سمعت أن «لوجوس» اسم جدي الأكبر، يعني في لغتكم «أرب».

. خطأ تم تداركه يا سيدي وتبدلت الكلمة إلى «ذو الأقدام الخشنة».

قام الملك من مكانه فقامت وراءه بليستيش نصَّب له كأس نبيذ، استند إلى السور ورشف رشفة ثم نظر إلى تمثال بوسيدون فوق قمة الفنار:

. أي رب نُصلون إليه يا مُردخاي، يهوه؟ إلههم؟

. كلها أسماء إله واحد يا سيدي.

. هل من الممكن ضم بوسيدون إلى معبوداتكم؟

. بوسيدون إله البحر، والبحر مصدر الخير والتجارة.

. أطلق الملك ضحكة عالية:

. أنتم يا معشر اليهود مثلكم مثل الماء، تتكيفون مع كل إناء.

. هذه سمة الغرباء المُستضعفين في الأرض يا سيدي. والشرف كل الشرف في معاونة من أوانا ورحمنا، والذكَم العظيم ثم مليكي، حتى ولو لم يستوفِ أهل دلثا حقوقهم كاملة حتى الآن.

. نظر إليه الملك فعاجله مُردخاي:

. إن الضرائب تثقل كواهلهم، وقد تساووا مع أهل البلد غير المتعاونين، أن الأوان يا سيدي لإعطاء اليهود مواطنة كاملة في مدينتهم التي يتفانون في خدمتها.





. يا مُردخاي، إن بيوت المَرايين والرهونات تملأ الإسكندرية، وعشيرتك لها حق دخول الجمنازيوم أسوة باليونانيين، وشبابها يتزاحم كل ليلة في أزقة إليوسيس المظلمة، يغترفون رحيق الراقصات في ترف، بالإضافة لوجود مُردخاي إلى جانب ملكهم.

. يكفيني شرفاً ويكفيهم شرف الخدمة في جيش المملكة... بعد إذن جلالتك.

قالها واتجه للباب، فتحه وأدخل رجلاً بديناً في رداء بُني، لحيته مخضبة بالحناء وحول عينيه كحل، ومن ورائه خمسة عبيد يحمل كل منهم إضمامات بردي مربوطة بالجلد، وقفوا في خشوع حين استطرد مُردخاي:

. جلالتك، أسبغ علي توراتنا اليونانية شرف الاطلاع لمباركتها.

نظر الملك للرجل الذي تقدّم العبيد ثم وجه كلامه لمُردخاي:

. من هذا؟

أجاب مُردخاي:

. الحاخام رأوبين من سبط لاوي، مُساعد كبير الكهنة في أورشليم والمُشرف علي الترحمات.

تأمل الملك خرش الحاخام للحظات ثم قلت منه ضحكة:

. أكنت مُمتنعاً معهم عن الطعام؟

ضحكت بليستيش في غنج فاضطرب الحاخام قبل أن يتمالك نفسه:

. أيها الملك العظيم، لقد كفى الإله أجسادنا عن الطعام وأشبع أرواحنا عن السؤال.

ثم التقط أول بردية من العبد الأقرب إليه وانحنى أمام الملك:

. إنه سفر التكوين يا جلالة الملك.



وشرع يقرأ: «في البدء خلق الرب السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الرب يرف على وجه المياه، وقال الرب: ليكن نور، فكان نور، ورأى الرب النور أنه حسن، وفصل الرب بين النور والظلمة...»

استرخى الملك في جلسته وأطرق برأسه للأرض فرفع مُردخاي كفه للحاخام:

. أشكرك يا راوبين.

قطع الحاخام قراءته وطوى الرق في خشوع ثم انحنى في تحية وانصرف ساحباً العبيد وراءه. قال الملك:

. ضع ثوراتكم في المكتبة يا مُردخاي. فرفوفنا تحمل خبر برديات العالم، لن يُضير أن تُرضي شيوخ وقرايبي حتى «دلنا» ما داموا يجيئون عنا الضرائب ويتحملون مشقة الجِدال مع الصّناع والفلاحين.

. بورك عُمر جلالتك...

قاطع الحديث طرق الباب، انفتح عن رسول أت بخبر عاجل. أشار له الملك فاقترب في خطوات حثيئة وانحنى ساجداً باسطة ذراعيه حتى أمره الملك بالكلام. جلس على زكّيته وأخرج لفافة صغيرة فضّها مُردخاي فاكفهرت ملامحه بغتة:

. ما فحوى الرسالة يا مُردخاي؟

. الحمام الزاجل أتى بخبر حزين، إنه الكاهن مانيتون السمنودي يا سيدي!

عبست ملامح الملك فالتقط اللفافة. قرأها ثم قام إلى سور الشرقة حين انسحبت بليستيش خلف الأستار. تأمل البحر الممتد أمامه بلا نهاية ثم سحب شهيقاً أخرجه حين اقترب مُردخاي في خشوع. أحترم صمت الملك حتى تكلم:

. لا يقتل الكهنة كل يوم، ولن أجد أفضل منك في تقضي الحادث يا مُردخاي.

. ساعد عذّتي للسفر إلى سمنود قبل الغروب.

قالها مُردخاي بحزم ثم انحنى مُنسحباً قبل أن يستدرّكه الملك:



.انتظر، مانيتون كان بصدد إنهاء كتاب تحدث معي بشأنه في آخر زيارة، احرص على أن تجده.

.لن يحنط جسد الكاهن الأعظم قبل أن أظفر بقاتله، وبالكتاب.

قالها مُردخاي وانسحب فالتقط الملك كأس نبيذه وسكبه على الأرض مثمثما:

.وداعاً يا مانيتون.







سمنود، معبد الأسوار السبعة، بعد يومين.

بأعين مُحْتَقَنَة وَأَجْسَادُ أَنْهَكْهَا الْحَزَنُ بَدَأَ الْمَعْبِدَ خَلِيَّةَ نَحْلِ لَا تَتَوَقَّفُ. غَسَلَتِ الْجُدْرَانُ وَفُسِحَتْ بِالزَّبُوتِ، وَوُضِعَتْ زَهْرُ  
السُّوسَنِ الْبَيْفَسُجِيَّةِ تَحْتَ أَقْدَامِ التَّمَاتِيلِ. خَلَّتْ أَبْوَابُ الْعُرْفَاتِ وَالْأَعْمِدَةُ بِسَعْفِ النُّحَيْلِ. نُخَسِتِ الْأَعْلَامُ فَوْقَ السَّارِيَّاتِ  
وَضُرِبَ صَوْمٌ عَنِ الْكَلَامِ مِنْذُ نَقَلَ جِسْدُ الْكَاهِنِ عَلَى الْمَحْفَةِ مِنَ الْهَيْكَلِ إِلَى عُرْفَةٍ تَحْتَ الْأَرْضِ، مَدَّدُوا جِسْدَهُ فَوْقَ  
حَوْضِ حِرَانِيَّتِي لَهُ مَزْرَابٍ صَرَفٍ، يَسَابِقُونَ التَّلَفَ وَالتَّخَشُّبَ أَنْ يَسْرِبَا فِي الْأَوْصَالِ الطَّاهِرَةِ، أَفْرِغِ الْمُحْتَضُونَ مَخَّهُ مِنْ  
فَتْحَتِي أَنْفِهِ وَفَلَّى رَأْسَهُ بِالصَّمْغِ وَالْقُطْنِ وَقُطْرَانِ الْخَشَبِ ثُمَّ شَقُّوا جَانِبَ بَطْنِهِ. أَفْرَعُوا الْأَحْشَاءَ فِي أَرْبَعَةِ أَوَانٍ حَجَرِيَّةٍ  
وَوَضَعُوا رَاتِلِجَاتِ الْكَافُورِ وَالْعَنْبَرِ وَالْمَسْكِ. وَتَرَكَ الْقَلْبُ مَكَانَهُ لِيُوزَنَ فِي الْمِيزَانِ وَقَدْ الْحِسَابِ. ثُمَّ سَدَّتْ فَتَحَاتِ جِسْدِهِ  
بِشَمْعِ الْعَسَلِ اسْتِعْدَادًا لِتَغْطِيَّتِهِ بِفَطْرِ التَّحْنِيطِ. كَانَ ذَلِكَ حِينَ لَاحَتْ فِي الْأَفْقِ عَرِيَّتَانِ أَثَارَتَا الرَّمَالَ وَرَاءَهُمَا، مَدَّرَ  
الْحُرَّاسُ رَابِعَ رُئُوسِ الْقَصْرِ فَفَتَّحَتْ الْأَبْوَابُ، نَزَلَ مُرْدَخَايُ مِنْ عَرِيَّتِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ حُرَّاسُهُ وَكَانَ فِي اسْتِقْبَالِهِ الْعُجُوزُ «مَتْرِي»،  
نَائِبُ الْكَاهِنِ وَمِنْ وَرَائِهِ كَاهِنٌ يَحْمِلُ مِظْلَةً.

أَحْمَلْ إِلَيْكَ تَعَاذِي الْمَلِكِ فِي كَبِيرِ الْكُهْنَةِ.

. مُصِيبَةٌ لَا تُحْتَمَلُ.

. أَنَا مُكَلَّفٌ بِتَقْصِيِ الْوَاقِعَةِ، سَأَسْمَعُ مَا حَدَّثَ مَعَهُمَا بَدَأَ تَافَهُمَا.



لم أكن هنا حين قُتل الكاهن الأعظم، عاينت الهيكل ثم أمرت بغلاق بوابات المعبد على من فيه واستدعاء من كان غائبًا، ثم نقلت الجثمان إلى غرفة التحنيط.

تحنيط قتيل قبل فحصه.

خشيت على جسده التلف وقد عاهدته يومًا على تكريم من يسبق فينا الآخر إلى الحياة التالية.

زفر مُردخاي.

من الذي اكتشف الحادث؟

كاهن يدعى كاي.

أتني به، وقدني إلى غرفة التحنيط.

تقدمه نائب الكاهن إلى مدخل السرداب، نزلًا درجًا من عشر سلالم يقضي إلى غرفة ما لبث كل من فيها أن خرَّ على ركبتيه احترامًا.

أين وجدتم الجثمان؟

أجاب النائب:

أمام تمثال الرسول.

أريد أن أرى السكين.

مدَّ كاهن يديه بقماشة ملفوفة، وضعها بين يدي مُردخاي الذي فضَّها، تأمل مقبضها الملفوف بكثان خشن ونصلها المشحوذ على حجر، ثم اقترب من الجسد المسجى يتفحصه في صمت، ترقرت عيناه ونشج صدره قبل أن يتمالك نفسه، التقط مبيضًا لامس به أطراف الجرح حين قال نائب الكاهن:



.المسكين، كان يصلي فبوغت من الخلف.

.بل القاتل باغته من الأمام!

التفت مردخاي لصاحب الصوت فاستدرك نائب الكاهن:

.هذا كاي، الكاهن المجنح الذي اكتشف مقتل الكاهن الأعظم.

أشار له مردخاي:

.اقرب.

دنا كاي فرفع مردخاي سمعة مكنته من رؤية عينيه الواسعتين وألقه المستقيم المديب. مسح ملامحه للحظات طالت

ثم أزدف:

.أكمل.

اقرب كاي من الحوض وأشار للعنق.

.القاتل قوي البنية، محترف، عمل سكينه بسرعة لم تمخض الكاهن من الاستغاثة، تركه تصارع الموت وشرع في البحث

عما جاء من أجله.

.إذن القاتل شخص يعرفه الكاهن، شخص لم يتعجب ظهوره؟

.لا أظن القاتل من رجال المعبد، ضربته كجزاري النوق، يعقرون ذبائحهم من أسفل الرقبة في خفة، وليس بيننا جزائر،

كما أن البعل التي يرتديها من الجلد، وكهنة المعبد كما ترى يا سيدي لا يرتدون إلا نعال الحلفاء والبردي.

التفت مردخاي للنائب بدهشة فعاجله:

.هذا الفتى كان ابنا لقاص أثر قبل أن يصير كاهنا مطهرا، تربى بيننا في طاعة، لم يقرب يوما السمك أو الفول أو لحم



الخنزير، يُجيد الكتابة ويحفظ متون الأقدمين كاملة.

نظر إليه فردخاي.

. هل تتبعت آثاره؟

. خلع نعليه لما تلوثتا دماً، وتكفّلت الأقطار بطمس خطواته على الصخر خارج الهيكل.

هز فردخاي رأسه ثم نظر لنائب الكاهن:

. أريد أن أعاين الهيكل، وأريد لكاي أن يصاحبني.





تسللت شمس الظهيرة من فتحة السقف كسكب لامع. ضربت الأرضية وانعكست على تمثال إدريس الكبير فأكسبته رهبة على رهبة. رائحة البخور لا تزال عالقة في هواء الهيكل. والكنوس والبرديات مبعثرة لم ترفع من مكانها.

دخل فردخاي خلف نائب الكاهن ومن ورائهما كاي الذي أغلق الباب وسجد. تأمل فردخاي أثاث الهيكل المبعثر وأبواب الناووس المفتوحة ثم التفت لنائب الكاهن.

. ماذا فقد من الهيكل؟

. الكنوس والشمعدانات الذهبية لم تمس. كذلك محتويات الناووس. فقط أغلقت الخزانة.

. ماذا عن الذهب؟

. القاتل سرق ثلث ونصفا من ذهب الإله في خزانة الهيكل. وبعض البرديات.

نظر فردخاي للخزانة.

. اسمح لي بتفقدتها.



بعد تردد توجه نائب الكاهن إلى منضدة، التقط من فوقها كأساً خشبية حافتها من النحاس، مَلأها من إناء الماء المقدس ثم سكب بضع قطرات حتى بلغت حافة الماء حفرة صغيرة لا تراها العين، اتجه إلى غطاء الخزانة ذي نقش اللوتس الغائر، سكب الكوب فوق ورقة بعينها فجري الماء في منحنياتها حتى وصل إلى تاج الزهرة التي امتلأت قبل أن تصدر قطعة تلاها انخفاض كتلة من الحجر فانفتحت الخزانة، جذب نائب الكاهن الغطاء فظهرت البرديات، اقترب مردخاي:

الآن عرفت لم لا تغادر الأسرار أسوار المعابد! من المطلع على مفتاح الخزانة؟

أجاب نائب الكاهن:

القتيل، وأنا.

هز مردخاي رأسه ثم التقط بردية من الخزانة وقرأ:

الجيتيكا.

أردف نائب الكاهن:

قوائم أسماء ملوك الأسرات الجيتية منذ التوحيد الثاني، تم نسخها وإرسال نسخة منها إلى الملك.

إذن ما الذي فقد؟

متون «الجيتانا».

الجيتانا؟

أجاب كاي:

سيرة البلاد ما قبل الأسرات الحاكمة، نشأة وتكوين مملكة الجيتيين ومتون الحكماء الأقدمين مروراً بزمان الرعاة، جمعها الفقيد من ألواح الأوستراكا والبرديات المتفرقة في معابد البلاد، ثم ترجمها إلى اليونانية استعداداً لإيداعها



رَقُوف المكتبة.

. كم نسخة تم صنعها من الجيتانا؟

التفت نائب الكاهن إلى كاي.

. كاي كان يساعد الكاهن في الكتابة.

أردف كاي.

. نعم كان يمليني، عدا أجزاء خص الكاهن نفسه بكتابتها.

. أين البرديات التي نسختها؟

. بغرفتي.

. آتني بها، وأعد نفسك لمرافقتي إلى الإسكندرية أيها الكاهن النبيل.

تبدلت معالم نائب الكاهن:

. لكن خروج كاهن مُجنّح من معبده ليس بالأمر السديد.

قاطعه مُردخاي:

. سيدي النائب، لن أجد لمساعدتي خيراً من مُقتفي أثر بارع كان أوّل من أكتشف الجريمة.

شرد نائب الكاهن للحظات ثم أشار لكاي:

. أعد نفسك للسفر.

انحنى كاي في خضوع فاتحه مُردخاي إلى مكان سقوط الكاهن، جثا على الأرض مُدققاً، تمشي بأنامله على موضع

علامات الدم الممسوحة، ثم التفت لكاي:





. كانت هناك علامات مكتوبة!

كُتِبَ كاي أنفاسه واشتعلت أفكاره كنار في قش «بالأمس دُتِست قُدس الأقداس بقدمي». واليوم أفصح عن سر من أسرار الكاهن! ثقل لا تحمله أكتاف الثيران، لكن «قتل كاهن والعيب ببردياته» أثقل وطأة. فهي آخر كتابات المعلم الأكبر، جمعها لأعوام من المعابد المتهالكة وصُور الكهنة الذين أشرفوا على الموت، وأقصى لي في مرة أن الجيتانا هي تاريخ إيجيبت الأصلي، التاريخ الباقي، لا سبيل للاستهانة بمعرفة الفاعل».

أفاق كاي بعد شرود:

. الكاهن كتب بدمائه على الأرض ثلاث علامات يونانية: «ΨΑΕ».

. تقصد سبعمائة وخمسة وثلاثين؟

هز كاي رأسه مؤكداً فأردف مُردخاي:

. أمر غريب! لو تعرّف الكاهن وجه فائله لكان الأولي أن يكتب اسمه. هذه الأرقام لا بد تعني شيئاً أقيم من معرفة اسم القتال، لكن، لم طمستها؟

. خشيت أن يكون القتال من بيننا وأردت تفويت الفرصة عليه كي لا ينتبه بما أراد الكاهن.

. هل للأرقام دلالة معروفة في معبدكم؟

. لا تعني شيئاً في حدود معرفتي.

. من المسموح له بدخول الهيكل؟

سأل مُردخاي نائب الكاهن.

أجاب النائب:





. لا يدخل قدس الأقداس إلا الملك إذا حضر والكاهن الأكبر، وأنا من بعد إذنه.

. وأنت يا كاي؟

. لا أدخل إلا بإذن الكاهن ليُملي عليّ المثلون.

هز مردخاي رأسه:

. حسنًا يا كاي، سيكون في رحلتنا إلى الإسكندرية متسع من الوقت لأسمع منك مزيدًا من التفاصيل.

انحنى كاي في خشوع حتى خرجا، ما إن خفت وقع أقدامهما ورن الصمت حتى اقترب من تمثال المعظم إدريس. لامس قدميه الحجريتين فتمتمًا:

. سيدي، لا تنزكني.





قبل الغروب كان الهواء لافحاً، حُبَّات الرَّمْل تتطاير كشهب السماء لتُحرق الوجه والصدر، والأرض تصرخ تحت وطأة العجلات الضارية. كانت المرة الأولى التي يركب فيها كاي عربية ملكية تجرّها أحصنة. طالما رآها منحوتة على جدران المعبد لكنه لم يحلم يوماً باعتلائها. تشبَّثت يده بجدارها المصقول محاولاً الاتزان، يلتفت وراءه كل بضع دقائق ليتأمل أسوار المعبد الذي لم يغادره منذ سنين. وأشجار المدينة التي لم يعرف غيرها. سمَّوُد. من يصدّق أن تلك الأرض المهملة كانت يوماً مقراً لحكم آخر ملوك الجيبتيين قبل اجتياح الفرس ثم الإغريق، قبل النهاية المشنومة في أقل من مائة عام صارت بقعة على الهامش لا يميزها سوى المعبد العتيق وذكريات أجداده عن مجد ولى في أطلال كانت يوماً قلاعاً وقصوراً. قيل أن يدُثسها نصوص القبور ليلاً لينهلوا من كنوز الموتى المخبّأة في أرضها. تذكر كاي حين كان يسير خلف أبيه مقلداً مشيته وحركاته. يتابع طرف عصاه الخشبية الطويلة التي يُشير بها لمواضع الأقدام على الرمال مقتفياً لسارق قبور. قاطع طريق أو قاتل. حتّى يصل إلى مخبئه كنعلي حكيم. يقرأ في أثر الأقدام وضغطها على الرمال نوع الحاني ووزن ما يحمل وعلى أي كتف عمرة وحجمه. به عاهة أو سليم. أسمر البشرة أو أبيض. وإن كانت أنثى أدرك عُذريتها من غروز جوانب قدميها في الرمال. ومن رسم خالها يعرف إن كانت حلي. ويعرف من شكل ومسلك خطوات الحيوان نوعه وحالته. ومن يرازه المتخلف وراءه ما أكله ومن أين. كان أشهر مقتفٍ للأثر بسمنود، حتّى أقعده مرض تقياً بسببه دماء سوداء، ثم مات في فجر هادئ. يذكر كاي ذلك اليوم كأنه الأمس، عمره لم يكن تعدّى الثانية عشرة، كتمت أمه صرختها وأرسلته ليخبر الأهل والأقارب فالتقط عصا أبيه التي لم تكن تفارقه. وقف على باب الدار ورفعها كما تعلّم منه، أغمض عينيه للحظات ليصفى ذهنه. ثم حرّكها فوق الرمال في دوائر محفوفة. مقاوماً



دَمْعًا سَاخِذًا أَعَاقَهُ عَنِ الرُّؤْيَا، فَسَنَحَ وَجْهَهُ ثُمَّ انْحَنَى يَتَلَمَّسُ أَثَرَ سَارِقِ رُوحِ أَبِيهِ، كَمْ تَمَنَّى أَلَّا تُكَوْنَ تِلْكَ أَوَّلَ فَهَامِ عَمَلِهِ، وَتَمَنَّى يَوْمَهَا أَلَّا يَفْشِلَ، ظِلٌّ يَحْدُقُ فِي الرَّمَالِ حَتَّى اقْتَرَبَ ظِلُّ كَبِيرٍ، رَفَعَ كَايَ عَيْنَيْهِ فَمَيَّزَ عَمَّهُ:

. مات أبي.

قَالَهَا كَايَ فَأَغْمَضَ الْعَمَ عَيْنَيْهِ فِي أَلَمٍ وَاقْتَرَبَ مِنْ ابْنِ أَخِيهِ فَاحْتَضَنَهُ:

. وماذا تفعل يا كاي؟

. أقتفي أثر من سلب أبي رُوحه.

. وهل عرفتَه؟

. لم يترك أثرًا وراءه.

قَالَهَا بَايْمَانُ فَأَرَدَفَ عَمَّهُ:

. بل ترك.

نَظَرَ إِلَيْهِ كَايَ فِي أَمَلٍ فَبَسَطَ الْعَمَ كَفَيْهِ تَحْتَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ.

. طالما أردت معرفة أين ذهب روح أبيك، فعليك اتباع الطريق الصحيح.

لَمْ يَفْهَمْ كَايَ وَقْتُهَا كَلِمَاتِ عَمِّهِ، ظِلٌّ يَرْمُقُ الْقُرْصَ الْمَلْتَهَبَ حَتَّى احْتَرَقَتْ عَيْنَاهُ وَتَلَاشَتْ التَّفَاصِيلَ، دَفَنَ أَبِيهِ بِحَقْرَةٍ صَغِيرَةٍ فِي ضَفَّةِ الْمَوْتَى بَعْدَ مَا لَفَّهُ عَمُّهُ بِحُلْدٍ ثَوْرٍ كَانَ يَدْخُرُهُ لِنَفْسِهِ. وَوَضَعَ بِجَانِبِهِ تَمَثَّالَ إِدْرِيسَ وَكَيْسَ شَعِيرِ سَقْيِي بِالْمِيَاهِ لَتَنْبِتَ بِرَاعِمِهِ، قَبْلَ أَنْ يَهْيِلُوا عَلَى جَسَدِهِ الرَّمَالَ وَيَغْرَسُوا سَعَفَ النَّخْلِ فِيهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ وَضَعَتْ أُمُّ كَايَ عَلَى كَتِفِهِ بَقِيَّةَ مِنَ الْكَتَّانِ تَحْوِي لِبَاسًا أَبْيَضَ نَظِيفًا، تَحْتَهُ بَتَّاءُ وَنِصْفُ إِوْزَةٍ مَشْوِيَةٍ وَبَعْضُ **التين والحمير**. حَاوَلَتْ التَّمَاسِكَ وَهِيَ تَخْبِرُهُ أَنَّهَا سَتُودَعُ الْمَعْبَدَ تَخْفِيفًا لِأَحْمَالِ أَثْقَلَتْ كَاهِلَهَا مِنْ إِخْوَةٍ أَصْغَرَ سَنًا، اسْتَقْبَلَ كَايَ الْخَيْرَ بِضَمَّتٍ وَسُكُونٍ ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ تَهْنِئَةً، مَقَاوِمًا الدَّمُوعَ بِابْتِسَامَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ لَمْ تَمْنَعْ الْأُمَّ مِنَ النَّحِيبِ،



قبل أن يركب حماراً وراء عمّه.

في معبد الأسوار السبعة أوصى العم الكهنة بابن أخيه قبل أن يغلق الباب الكبير، بات كاي ليلته الأولى خائفاً وسط رفاق من أعمار متقاربة، قبل أن يستدعى في اليوم التالي لساحة المذبح، وقف وسط صفين من الكهنة يثّلون أذكارا لم تعهدها أذناه، ثم صبوا عليه ماء فاتراً قرنت عليه التعويذات قبل أن يقدم إليه كوب فيه غسل، شربه كاي فأمره الكاهن بتعريه خصره، دهنوا عضوه بفرشاة من شعر الخيل غمست في مريح من الخل، لحظات وسار الخدر في الطرف المنكمش، أمسكه كاهن ليحدّ من حركته قبل أن يقطع كاهن آخر غرلته بسكين من حجر الصوان في سرعة وهدوء، رفع الجلدة فرتل الواقفون كلمات منغمة قبل أن يلقيها فوق نار المذبح وسط ذهول كاي الذي فقد الوعي ما إن رأى الدخان يتصاعد من لحمه قرباناً إلى السماء.

هكذا رسم كاي كاهنا «مطهراً»، يقدس المعبد من الفجر ويعسل حيطانه، يدهن الأعمدة بالزيت ويطعم الطير العابط إلى بهو الأعمدة، وينظف المذبح من رماد قربابين الإله، كان ذلك قبل أن يرى الكاهن الأعظم «مانيثون» لأول مرة، يندخر الرتبة المظلمة على كتفيه، ثمرة التين التي وضعها في كفه، والوجه البشوش الذي عطاها فطر التخيط منذ ساعات

أفاق كاي من رحلته للماضي الجميل فقاوم شخوص عينيه في سراب مدينته التي اختفت، ونظر في النجوم الزاهية قبل أن يلتقط أنفه ملوحة المستنقعات الشمالية، أبطأت عربة مردخاي بعد صيحة للخيول، توقفت، على ضوء القمر رآه كاي يترجل من عربته ويداعب بنعله الفاخر نبات المستنقع فنزل واقترب في فضول:

.لم توقفنا يا سيدي؟ القمر مكتمل.

.أفراس النهر تكره الغرباء، تهاجم الغرباء المسرعة والخيول، سنببت ليلتنا ونستأنف رحلتنا مع شروق الشمس.

ساد الصمت لحظات أغمض فيها مردخاي عينيه وسحب نفساً بارداً إلى صدره قبل أن يستطرد:

.هل كان للكاهن أعداء يا كاي؟



. لا أذكر أنني رأيت شخصاً يَضمِر له حقداً أو كراهية.

. هي إذن سرقة عادية؟

. بل الترسُّد والنية المبيِّنة، وإلا فلم لم ينتظر خلو الهيكل فيسرق؟

. لا أخفيك سرّاً، تبهرني مقدرتك في التقصي والتفقي.

. موت أبي لم يمهلني أن أكمل ما بدأت في تعلمه.

. بل أنت موهوب بالفطرة، أرى ذلك في عينيك، حتّى إن الشك ساورني للحظات أن تكون أنت الفاعل.

. أنا!

. لم لا؟ فُكر معي، أنت قادر على دخول قدس الأقداس، ذبح الكاهن في سرعة لم تمهلته الصرخ باسم قاتله الذي بالتأكيد تعرف وجهه، سرقت الخزانة، ثم مخبت بيدك آخر ما كتب على الأرض قبل أن يلفظ أنفاسه، هلا كررت عليّ ما كتب؟

في دهول حدق كاي في عيني رئيس القصر.

. كتب ثلاثة أرقام، سبعمئة وخمسا وثلاثين.

. رجل مذبح يكتب ثلاثة أرقام بيده وهو يصارع الوقت! قد تكون الأحرف الثلاثة «ك، ا، ي» واختلط عليك الأمر؟

انقبض قلب كاي.

. سيدي، أنا لم أقتل الكاهن الأعظم.

. تبقى الأرقام محاولة جيدة لتشتيت الانتباه، أما تالنت ونصف من الذهب فتستحق المجازفة.

. أقسم باسم المعلّم الأكبر إدريس إنني ما محبتها إلا خوفاً أن يكون القاتل من رجال المعبد، وقد أفضيت بها إليك





سيدي.

.أقسم أن نسخة متون الجبثانا التي كانت بحوزتك هي النسخة الوحيدة والكاملة بخلاف التي سرقت؟

.أقسم بالله الوجود الواحد، خالق نفسه بنفسه أن تلك هي النسخة الوحيدة من متون الجبثانا ولا نسخة بعدها.

نظر إليه مردخاي ثم ابتسم قبل أن يضحك:

.لقد نلت منك يا كاي.

رفقه كاي في دهول محاولاً استيعاب الموقف قبل أن تهدأ أنفاسه ويبتسم باضطراب حين أردف مردخاي:

.لحسن حظك أنني أستطيع تمييز الصادق بين ستين كاذباً.

قالها وأعمد النصل في بطن كاي!

تلقي الأخير الطعنة فتقلّصت ملامحه وانثنت قامته في صدمة. بذهول تأمل دمائه الساخنة تتدفق حول السكين الغائر في لحمه. السكين الذي ذبح الكاهن الأعظم منذ ليلتين! ثم نظر في وجه مردخاي الذي رفقه بهدوء قبل أن يركز صدره ليسقط كاي في مياه المستنقع الخضراء. وأشار لحارسه:

.أجهز عليه.

تلقي الحارس الأمر فرقع حربة. وزنها في قبضته وتأمل كاي يضرب المياه المزدحمة بالطحالب محاولاً الطفو. مضارعاً الوهن ورثة تغرق. يراقب قائله بعينين حاضنتين حتى أيقن التأهب في عينيه فثقل جسده واتخذ طريقه للقاع. كان ذلك حين أرسل الحارس حريته. شقت المياه في سلاسة واخترقت هدفها. لحظات وعلت المياه دماء سودها نور القمر. غاصت الحربة بصاحبها وانتظر مردخاي وحارساه دقائق حتى يثست الموجات وسكنت ثم تحرك كائن جائع من فوق الشجرة، فاعتلوا العربات ومشقوا أرواف الخيل بالسياط.





الإسكندرية.

صوت سنانك الخيل على البلاطات المحدثه كان له وقع مريح في أذن مردخاي. شد اللجام منذ وطأ فحيط حي القصور فأبطأ فرسه وانتظمت خطواته في تناغم مسكر دغدغ أعصابه فأرضى عينيه انبشاء، مر بجمنازيوم الأمراء وقصر المحظيات ذي الستائر الحمراء ثم وصل إلى الباب الشرقي للقصر. سأل عن الملك فعلم أنه يتمشى مع ابنته «برنيكي» قرب البحيرة. اخترق البهو ونزل إلى الحدائق. مشى بخذاء المياه المغطاة بالزنايق حتى وصل إلى المتاهة الخيري. بوابة حجرية هائلة منحوت فيها وجه الإله سيرابيس فحاط بجناحين مبسوطين. وراءها مساحات شاسعة من الحوائط الشجرية تصنع فيما بينها طرقاً ملتوية تفضي في المنتصف إلى شجرة بلوط نادرة. من وصل إليها من الضيوف والأمراء في الاحتفالات المأجنة تأتي بورقة من أعصانها يحظى بزيارة إلى قصر المحظيات، يتنقي من ثروقه من الفتيات ليتخذها جارية لا ترد. هذا في حالة ما خرج من التيه دون أن يبكي لساعات أو يصرخ في جنون حتى يلتقط استغاثته أحد الحراس فيستأذن الملك في إخراجه فيوافق. أو يتركه لساعة أو ساعتين استهزاءً.

حين اقترب مردخاي كان وجه برنيكي عابسا. قطع الملك حديثهما المحتدم حين لمح.

. اقترب يا مردخاي. ما الأخبار؟

دنا فأنحنى إجلالاً.



.الأخبار تستطيع الانتظار، سأعاود زيارة جلالتكم قبل الغروب.

.انتظر، أريد مشورتك في مسألة طارئة.

رمت برنيكي أباه بنظرة نارية فتجاهلها واستطرد:

. جاءني رسول من «أنطيوخوس الثاني» يطلب يد الأميرة برنيكي، مقابل صداق كبير من الأراضي لن يُطالب السلوقيون باسترداد ملكيته في أراضي سورية.

أردفت برنيكي بحدّة:

. لن أترك جسدي لسفاح السلوقيين من أجل تهليل العامة بانتصاراتك في الإسكندرية.

أردف الملك:

. تلك الرغبة ستكون بداية نهاية الصراع. أرى ذلك في كلمات الرسالة، ما رأيك يا مُردخاي؟

صاحت برنيكي في غضب:

. ذلك كل ما يعنيك! معركة أقودها أنا في سرير بلد غريب بدلاً من أسطولك.

نظر مُردخاي للملك والأميرة برنيكي بابتسامة ثم قال في هدوء:

. أنطيوخوس الثاني رجل في العقد الخامس، قوي النية سليمها، وله ولدان من لاوديس. زوجته الفاتنة ذات الأصل الفارسي المقدوني. ثم نظر للأميرة بابتسامة . هي ليست في جمال أميرتنا برنيكي بالطبع. لكن المُقارنة بين قرصة زوجة أولى مُتمكّنة من وراثة العرش، وزوجة ثانية، ليست عادلة.

حدجت برنيكي أباه في ظفر:

. ها هو رئيس قصرِكَ قد حَسَمَ الجَدال.





عاجلها مُردخاي.

. إلا إذا وضعنا شروطاً تضمن لنا ولاية العهد!

زمقته باستنكار:

. عن أي شروط تتحدث؟

. أن يتخلى أنطيوخوس عن زوجته الأولى، وأن تصبح أميرتنا العزيزة هي الزوجة الرسمية، يصبح أبناؤك الذكور ورثة شرعيين، تُصك العملات بصورتك، وتُسمى مدينة كبيرة باسمك، مدينة برنيكي، وأن يُضاف إلى الصداق جزر الشمال، نجعلها حامية لنا تضمن دفاعاً متقدماً إذا تجددت الحرب.

ابتسم الملك فصاحت الأميرة بغضب:

. أنت مثل بروميثيوس، تسرق النار من زيوس لتعطيها للبشر، وستلقى عذاباً أبدياً كعذابه.

احتد الملك:

. برنيكي!

ضحك مُردخاي:

. لا بأس يا سيدي، إذا صار التهام خبدي بمنقار نسر صبيحة كل يوم جزاء لأن أصبح فلك أميرتنا الأثيرة برنيكي مُمتداً من بلاد سورية إلى مملكة الماوريين في الشرق، فأنا مُرتب.

انحنى مُردخاي في احترام فلم تُخف برنيكي غضباً ممزوجاً بقلة حيلة، قبل أن تغلب شفقتها غيظاً:

. لن أتزوج.

ابتعدت الأميرة فنظر الملك لمُردخاي وزفر بابتسامة:



. منذ صغرها تظن أن الاقتناع ضعف، فطالع برجها «ثور» يحمل بين قرنيه العناد، لكنها في النهاية دائماً توافق، هيّا، لنتمش.

اللقط من فوق المائدة كأسى نبىذ ثم دلفا المتاهة، دار الملك بممراتها في سلاسة حتى وقف أمام تمثال نصفي لأبيه «بظلميوس الأول» فوق حوض لنبات اللوتس، انحنى مُردخاي احتراماً وجلس الملك على أريكة مواجهة:

. ماذا حدث في معبد الأسوار السبعة؟

. ذبح الكاهن مانيتون أمام تمثال إدريس بالهيكل.

انتفض الملك:

. اللعنة! انتقام أم سرقة؟

. بل طموح.

. شخص من داخل المعبد؟

. الكهنة الجيبتيون يأكلون بزهد يُحْتَبَأُ أبدانهم المرض. يُعْمَرُونَ حتى يتخطوا المانة فيسدوا الأبواب خلفهم لكل من أراد الارتقاء في المخانة، القاتل يدعى كاي، كاهناً بالمعبد، مسموحاً له بزيارة الهيكل، ويعرف مكان الخزينة، الطمع تسرب إلى روحه فذبح معلمه وسرق ثالث ونصفاً من الذهب، وقيل أن يلفظ الكاهن أنفاسه كتب على الأرض ثلاث علامات محاها الكاهن، ثلاثة أحرف تمثل اسم قاتله: كاي.

. يا للخسة!

. لا عجب، إن شعب ذلك البلد لهم حفنة من القاذورات والفضلات وأرواحهم الداخلية ما هي إلا رسوم من سموم النعابين والتماسيح التي تعج بها بلادهم. فاسدو العقول لا هم لهم إلا مضمار الخيل والزعيق في الأسواق.

. هل هو وحده من أتم الجريمة؟



لم أرَ في عيني نائب الكاهن قائلاً أو مُدبراً. عجوز قنوع يلتمس نهاية سعيدة.

. هل سرق ذلك الفتى برديات خزينة الهيكل؟

. نعم، والكتاب الأخير للكاهن كان في غرفته.

قدم مُردخاي للملك إضمامة برديات ملفوفة بالجلد:

. الجيتانا، قصص مُسلية عن نشأة مملكة الجيتيين.

التقطها الملك وفك الحزام وبدأ يطالع الكلمات ثم التفت لمُردخاي:

. هل الكتاب كامل؟

. أظنه كذلك.

. أين ذلك الكاهن؟

. حاول الحرب أثناء نقله، قتله حارسي قُرب المُستنقعات الشمالية.

زفر الملك في هم.

. أشكرك يا مُردخاي.

انسحب رئيس القصر في خشوع تاركاً الملك، يقرأ كلمات مانيتون، في قلب المتاهة.





بعد حشيرة عنيفة استيقظ كاي، سعل بوهن قصرخ الما. قاوم ضعفا خلخل كيانه لينزع العصاب الذي غطى عينيه، شعاع الشمس يداعبه من بين أغصان متشابكة، وحبل يشده إلى جذع شجرة عريض ارتفع عن الأرض بضع أذرع، بطنه وكتفه اليسرى ملفوفة بخيش برزت من تحته أوراق جميز. على صدره رسم لعين خورس الحامية وفي فمه مرارة مستنقع أسن، بصعوبة بالغة نظر أسفل منه. حشائش ممتدة فوق أرض رطبة وحطب محترق وبقايا سمكة، حاول استرجاع آخر ما رأت عيناه فتداعت التفاصيل: طعنة نافذة في معدته من رئيس القصر، ماء لرح يسحبه للأسفل، رثاه تمثليان، حارس يصوب حربة، يقدفها، تخترق الكتف في سخونة، قوى تخور، ياس يتوغل، طحالب وأغصان تمشخ صدغه وصدره قبل أن يحتضن جسده قاع المستنقع، ظلام.

التقط كاي خطوات تقترب ذلف الشجرة فتحفزت أنفاسه، حاول بجزع فك الحبل المحيط بخصره قصرخ جرحه، كان ذلك حين برز عجوز أصلع نحيف البنية، يستتر جسده بالياب النخيل ويمسك في يده سكيناً مدبباً، رمق كاي الذي بعثر أوراق الشجر حوله فتسلق الشجرة في حفة لا تليق بعمره. صرخ كاي في جزع حين رفع الرجل سكينه، قبل أن يقطع الحبل ويهدم كفه مساعدة، لم يستجب كاي.

.جسدك ضعيف، لن يتحمل سقوطاً من فوق شجرتي.

.لم أوثقتني؟



قال العجوز بصوت خافت: كي تسمّن فأطعمك لتمامسيحي.

نظر إليه كاي في هلع فضحك العجوز بثلاث أسنان متفرقة:

.إنما خشيت عليك دواب الأرض فرفعتك عنها، لو أردت إطعام تماسيحي لانتقيت كاهنا بدينا.

استسلم كاي للكف الخشنة، نزل متكئا عليها يتأوه في ألم، مقاوما أسراب بعوض تضرب وجهه وعنقه، وضعه العجوز

فوق غشب المستنقع الرطب ثم نزع الخيش الملفوف على بطنه وأوراق الجميز فأنكشف الشق الذي حفره السكّين،

مضمومة حافته بخيوط من الأمعاء:

.جرح غائر، سيندمل بعد دورة قمر.

.كيف وجدتنني؟

.شاهدت ما حدث من فوق شجرتي فنزلت، ظنّني قاتلوك زاحفا يسعي لغريسة فرحلوا مطمئنين، عطست فضولا

فلمست بقايا الحياة فيك، انتشلتك، ضربت صدرك حتى أخرجت نصف مياه المستنقع ثم عالجت جروحك، أن تصيبك

حربة بمثل هذا الوزن ولا تمرّق إلا كتفك هي معجزة

تحسس كاي كتفه فأردف العجوز:

.حشوت الجرح عسلا وكسوته بيرقات ذباب، ستستطيع تحريكه بعد أيام.

امتعض كاي فناولته العجوز قطعة سمك كانت فوق الخطيب: أنا لا أكل السمك.

.لا أطعمك إلا سمكا منذ ثلاثة أيام.

.أنت ساحر؟

.طبيب.



. طيب في مُستنقع!

. كائنات هذا المُستنقع أرحم من بني الإنسان، اسمي عزيز، كنت أعمل طبيباً بحري راقودة في الإسكندرية، مُلكت يوماً منزلاً وزوجة، وابنة، قبل أن أفر إلى هنا.

. ارتكبت جريمة؟

قام عزيز من مكانه، التقط من الشجرة جرة مملوءة بالماء، شرب منها يحرص ثم التفت:

. قتلْتُ شخصاً.

جحظت عينا كاي قبل أن يكمل عزيز:

. الضرائب المُجحفة التي مُنينا بها أفقرت أهل راقودة وأحنت ظهورهم، العلاج بات مُكلفاً حتى بعد أن تنازلت عن نصف أجري، ولم أستطع يوماً صد وجه يستغيث أو يتالم، حتى حاصرني الخنازير؛ جباه الضرائب، يقتطعون من لحمي الحبي ضريبة قدرها أربعمئة دراهماً سنوياً. ضاقت حالي حتى اضطررت للاقتراض من مُرابي حي دلتا بفائدة قدرها ستة وأربعون على كل مائة، عميرتني الفوائد كالرمال المُتحركة، كُلما حاولت تسديدها ازددت فيها انغماساً.

. الديون جنون.

. بل الجنون أن تعيش في الإسكندرية وأنت من أبناء حي راقودة، نحن الجيتيين لا ثمن لنا هناك، ويد المُرابي الممدودة إلى العنق أحد من أسنان التماسيح.

. وجريمتك؟

. أتى الوغد إلى بيتي يوماً يُطالبني بما له، قيل أن يساومني على ابنتي، أرادها أن تعمل عاهرة تحت إمرته تسديداً لديوني، لم أدر بنفسي إلا وأنا أدير سِكِّيتاً في صدره، سقط كخنزير يخور ثم خمدت أنفاسه، أسقط في يدي وهلعت صغيرتي، لما ثمالكت نفسي حملت جثته وألقيتها في ناصية مظلمة فلاحقني أشخاص لا أعرفهم، قفزت في مركب عبرت به البحيرة الجنوبية وسلكت طريقني إلى هنا، منذ عشر سنوات.





قالها ثم صمّت فزأغت عيناها في الفراغ:

. وتلك كانت آخر مرة أرى فيها ابنتي.

لحظات وأفاق فاستطرد:

. هيا أكمل طعامك، أنت لا تعرف متى سيتاح لك مرة أخرى.

مدّ كاي يده والنقم السمكة، اعتاد طعمها ثم استساعها، تابعه العجوز حتى ظن فيه الشيع قبل أن يسأله عما أتى به إلى المستنقع.

. اتهمت في جرم قتل أنا بريء منه.

. كل من ابتلعتهم المستنقعات قالوا ذلك قبل مصرعهم.

. أنا لا أكذب، أنا كاهن بمعبد الأسوار السبعة.

. أدركت ذلك من إزارك الكتاني، رغم أن صدرك عريض وبنيتك عضليه خافة لا توحي بذلك، أنت من تلاميذ مانيتون؟

أطرق كاي برأسه إلى الأرض:

. وهو من زميت بقتله؟

في وجوم قام العجوز من مكانه، عرس قدميه اليابستين في طين المستنقع مخمضاً عينيه في الم، ثم تكلم:

. لذلك طعنك فردخاي؟

. أتعرّفه؟

. من في الإسكندرية لا يعرف رئيس قصر الملك، اقصص عليّ ما حدث.

قصّ كاي أحداث اليومين السابقين، استمع إليه عزيز حتى ساد الظلام وزمجرت الضباب، أردف:



. قتل الكاهن الأعظم أمرًا لا يقدر عليه إلا قلب لا ينبض.

. سأعود إلى معبدي، أقصص ما حدث فأبرئ ساحتني وأحتمي بالأسوار.

. أنت ميت لا محالة.

ثم لمس عزيز في وجهه التشييت والعناد فاستطرد:

. لتنتظر حتى تندمل جروحك ثم قرر مصيرك.







في الأيام التالية تابع كاي يرفات الذباب تتحرك في جرحه. قررت هلاما لرجا دغدغ الجلد لكنه ساعد على الالتئام. أكل سمكة وأرنبا وبومة، ورفض أكل خنزير صاده الطبيب عزيز بفخ. ظال شعره ونبت دقنه لأول مرة منذ عقد. كثفه تحركت ببطء وكفت معدته عن النبض المؤلم. تولت الشمس تحفيف الخريشات التي تركتها طحالب وأشواك المستنقع على جلده. واستعاد وجهه شيئا من النضارة بعد شحوب. غسله الطبيب بماء فالح ودهن جلده بزيت استخرجه من لحاء شجرة وقرأ عليه كلمات سارعت في شفائه. ثم بدد نقيق اليوم وقناع الخنازير في الليالي المظلمة بحكايات عن الإسكندرية: المدينة التي لم يزرها كاي يوما. عن زرقه البحر وروعة الفناء. الشوارع المقسمة كرفعة الشطرنج، الرخام الأبيض الذي يكسو المياني والستائر الخضراء الموحدة التي يحركها الهواء. الجمنازيوم الفخم والمكتبة العملاقة وضريح الإسكندر المبهر وكفنه الذهبي. طريق الهيبتاستاديوم الذي يربط الفناء بالثغر، مكاتب المراقبين التي تملأ الأسواق ومضمار الخيل. عن حي راقودة المخصص للجيتيين. وعن الثورة التي تضطرم في الصدور بسبب الضرائب الباهظة التي يجيها يهود حي «دلتا» نيابة عن الملك. حكى بحماس تبدل أسى عن مدينة عاش فيها طفولته لينغادرها مجبرا رغم عشقه. وعن قلعة قيد انقطعت بينهما الأسباب. تحشزح صوته شيئا فشيئا حتى قام يرتعش. التقط من الطين صفادع وحشرات وأوراق شجر دسها في ملابسه. ثم هدا. خمد. كتار اختنقت بلا هواء.

بعد أيام لم يحصها قرر كاي العودة إلي المعبد. رغم تحذير عزيز الذي ينس من إقناعه بالعدول. لمس العناد فزوده بطعام يكفيه رحلة العودة وسكين مشحودة تقيه شر الضواري من الإنس والحيوان. ووصية أملاها إليه حالة العدول



عن وجهته.

خرج كاي من المستنقع إلى الخلاء متخذًا طريقه نحو سمنود، متدثرًا بثوب من الخيش وممسكًا بعصا كانت جذعًا خففت عنه وطأة خطواته على الجروح. لمَّا بلغ بلدته تحاشى الناس حتى وصل بيته، كمَّم فم أمه حتَّى لا تصرخ انفعالًا فبكت في صدره ثم حكّت عن زيارة نائب الكاهن ورئيس الشرطة إلى بيتها وإجبارها على الكتمان، حذرتَه من الظهور فوعدها أن يُبرئ ساحتَه واسم أبيه، قبل أن يُقبل يدها ويرجل.

لمَّا حاذى كاي سور المعبد، غطّى رأسه وطأطأه ثم دلف من البوابة الكبيرة، وقف في طابور زوار يحملون بين أيديهم الإوز والبتا وخيرات مما تنبت الأرض، يقدمونها للكهنة القائمين على المذبح قربانًا وعرفانًا. يرفعونها فوق المذبح ويرتلون الصلوات ثم توضع فوق مائدة الرب عطية للفقراء والكهنة.

تحرك الطابور ينطأ حتى لمخ كاي نائب الكاهن يخرج من باب قدس الأقداس ويجثو في تضرع أمام متون القدرة الإلهية بالجدار الشرقي، لم يعرفه زملاؤه من الكهنة حين خرج عن الطابور متجهًا للكاهن، جلس على ركبتيه في خشوع ثم همس:

. مثلت أمامك أيها الواحد العظيم بعد أن طهرت نفسي. أنا كاهن هذا المعبد وخادمه، وكل ما أحمل من شر ألقى به إلى الأرض.

التفت نائب الكاهن فاضطربت أطرافه، همس كاي:

. سيدي، لا تفرغ، أنا كاي.

قام الكاهن من ركوعه والروع في ملامحه حين أَرَدَف كاي:

. لقد حاول رئيس القصر قتلي، ألقاني في المستنقع بعد طعني، بقيت هناك حتَّى التحمت جروحي فرجعت.

ابتعد الكاهن خطوتين وعيناه لا تفارقان كاي الذي قام مُستندًا إلى عصاته:

. لقد اتهمني رئيس القصر بقتل الكاهن الأعظم، وأنت تعلم يا سيدي أنني ما كنت لأجرؤ على النظر في عينيه.



بَترَ كاي كلامه لما اصطدم ظهر الكاهن بالجدار، استشعر الكهنة أمراً قريباً فاقتربوا يتأملون الزائر الغريب:

. أرى الاقتناع في قلبك يا سيدي!

نظر نائب الكاهن في عيني كاي للحظات ثم صاح في الكهنة:

. ها هو قاتل معلمكم، ها هو الملعون.

بوغت كاي حين تكثرت الكهنة في دائرة حوله، كشف غطاء رأسه فجلت الهمهمات، أذهلتهم هيلته المزرية والشعر  
الناابت على رأسه، أردف كاي:

. بحق من يرعانا في سمائه لم تمس يداي معلمنا بسوء.

صرخ الكاهن:

. لا تذكر الرب في فمك فأنت لعنة نمشي على ساقين، لقد أرسل رئيس القصر بردية بخير هريك لما انكشف أمرك.

. أنا لم أهرب.

قال كاهن:

. كُتِّبَ بظنك آخا لنا.

وقال آخر:

. كيف جرؤت أن تعود بقدميك إلى هنا؟

صرخ نائب الكاهن:

. لم تطوَّعت لدخول قدس الأقداس وحدك؟ ولم محوت اسمك المكتوب بالدم؟

. الكاهن لم يكتب اسمي.



. كاذب، أمسكوا به.

صاح بها الكاهن فرمق كاي وجوه زملائه تتوعد، أحاطوا به ككلب تسلل إلى محراب فوجب قتله.

. ماذا أنتم فاعلون!

جزع فرجع للوراء خطوات، نادى المقربين إليه بأسمائهم فلمح في الأعين عمى وعلى القلوب أقفالاً، نسوا يوم استقبلهم ولقنهم المبادئ عن الرب في السماوات العلى، نسوا يوم غسل رؤوسهم في البحيرة المقدسة خلف المعبد وردد أسفار التطهير، ويوم حرق البخور من أجل أرواحهم في صلوات الرحمة.

فجأة اقترب منه كاهن كان يوماً أقرب الأصدقاء، ناداه كاي باسمه استعطافاً وتذكيراً فهو على وجهه بعضاً شجت خده، لم يسمع كاي سوى استلال سكين عزيز المخفي تحت لباسه. رجع الكهنة خطوة فصاح «متري» الذي تفهقر خلفهم.

. أرايتم، ها هي روح «ست» تتحسد أمامكم في حسد صاحبكم، يرفع سكين العذر في المعبد. وينسلل لموضع فعلته كضيق حسييس يكمل جريمته.

. أنتم فضللون، أنصتوا إلى عقولكم.

صاح كاي فلمس آذاناً مسدودة. لوخ بسكينه في الوجوه قبل أن يركض قدر طاقته نحو قدس الأقداس، ركضوا خلفه فطوخ سكينه فيهم مبطناً تقدمهم، دفع الباب بقبضته ودخل فأغلق المزلاج، تكتل الكهنة خلف الباب ثم ساد صمت يعرفه جيداً، صمت انتظار الإذن، رجع بظهره حتى تمثل إدريس الكبير، لمس حجره في خشوع حين التقط صوت الكاهن من الخارج:

. اكسروا الباب، مأذون لكم دخول قدس الأقداس.

التقط كاي الكلمة قبل أن يسمع أول ضربة على الباب، لم يكن المزلاج ليتحمل عشرين كتفاً، توقف عقل كاي عن التفكير واستشعر نازاً تسري في كتفه، انفتح الجرح ونضح دمًا، نظر لوجه إدريس يسأله: أكون ميتتي بين قدميك



كما قُتل الكاهن الأعظم؟ ثم نظر لفتحة السقف التي عثر منها ضياء الراعي فابتهل أن تُضيء الحقيقة وجهه أمام الناس في اللحظة التي تشق فيها مزلاج الباب وتخلخلت دعامته. أغمض كاي عينيه واستغفر، ثم تسلق في سرعة التمثال الكبير، لوّث بالعرق والدم أحجاره واستمسك بالتاج حين أوشك على السقوط. نظر في عيني إدريس الحجريتين للحظة قطعها صرخ مِصراعي الباب يندران بانهيـار تحت وطأة الضربات. الصرخات ازدادت حدة وتوحشاً، وقف كاي بقدميه على كتفي إدريس. خرجت الأيدي من فرجة الباب تطلب طرف المزلاج. وعنق المارق لتدقّه. تحامل كاي على عضلات بطنه فنزف جرحه على كتف إدريس. قفز ليطول فتحة السقف فصرخ الما قبل أن تقبض أصابعه على الأطراف. في اللحظة التي طال أحدهم فيها المزلاج. أزاحه فانفتح الباب بعنة ليسقط الكهنة فوق بعضهم متدافعين. كان ذلك حين اعتلى كاي سطح قدس الأقداس. نظر يمينه ويساره قبل أن يلحظ حبلاً مشبوكاً بخطاف يتدلى إلى السور وراء قدس الأقداس. وأثار خوف قدامه. رمقها للوان كانت كافية ليميّز أصابع غليظة قصيرة تشير لأصل بدوي. صاحبها شديد اليأس غليظ الملامح. تسلل من فتحة السقف هرباً بعدما ترك باب الهيكل موارباً ليُوحى بأن القاتل من أبناء المعبد.

تراجعت الاستنتاجات في رأسه قبل أن يركض بخل ما أوتي من قوة ليففر في مياه البحيرة المقدسة. في اللحظة التي أشار أحد الكهنة إلى الدماء التي لطخت تمثال إدريس وتركت البصمات قرب فتحة السقف. انتشروا حول ضفاف البحيرة. وهناك. لم يجدوا لكاي أثراً.







بعد خمسة أيام.

قاعة الباليسترا، الجمنازيوم الملكي، الإسكندرية.

رغم حرارة الجو لم يرفع نائب الكاهن فرو الفهد عن كتفه. جلس ساكناً يتعرق فوق أريكة تطل على ساحة المصارعة. يتأمل مصارعين غاريين وسط دائرة من المشجعين. أحدهما أورجيتيس ابن الملك والآخر شاب مفتول في نفس سنه. شبكاً الأيدي وضغطاً الأكتاف بفيضات صلبة وعضلات متحيزة. الضربات أدمت أنف ابن الملك قبل أن يظفر بورك الشاب في حركة مفاجئة ليرفعه عن الأرض فيدخل تواربه ليهوي فوقه فجهاً. ضرب المعلم ذو الرداء القاني عصاه على الأرض فانفك الاشتباك ليقوما ويتصافحا، مردخاي كان يتابع المباراة عن قرب. دنا من الحلبة فأفسح المتابعون المجال. ربت على كتف الملك الصغير وهمس في أذنه بكلمات ضحك على أثرها قبل أن ينتبه لنائب الكاهن فاستأذنه أن يكمل المصارعة وضعد الدرجات:

. هل استمتعت بالمصارعة؟

سأل مردخاي نائب الكاهن.

. عيناى لا تهوى ان الدماء.





جلس مُردخاي:

. إذا اختبرت شعور الوقوف عارياً أمام خصم ستَعْبُرُ رأيك، ألا يشعرك جلد الفهد بالحرارة؟

. الحفاظ على مظهر الكاهن له أعباء.

ابتسم مُردخاي للفتى الذي يُصارع الملك الصغير ورفع يده بتحية تشجيع قبل بدء جولة جديدة، ثم التفت إلى ضيفه هامساً:

. أرى في وجهك مزاجاً مُضطرباً.

. جئت بخبر مُزعج، الكاهن، زار المعبد أول أمس.

اعتدل رئيس القصر في جلسته:

. أعد ما قلتَه.

حكى له نائب الكاهن ما كان من أمر كاي وظهوره الخريف في المعبد. أنصت مُردخاي دون مقاطعة حتى انتهى:

. لم لم تبعث بالحمام الزاجل؟

. خشيت أن تقع الرسالة في يد العامة فيظنوا بالكهنة الظنون.

. هل اقتفيتم خطواته؟

. الفتى يملك من العلم ما لا يملكه الكهنة، اختفت خطواته عند البحيرة.

. هل له عائلة؟

. قال أهل بيته والجيران إنه لم يظهر مُنذ الحادث.

رفع مُردخاي عينيه إلى القبة الزجاجية المَلَوَّنة فوق القاعة ثم زفر بصوت مسموع:



.أعتقد أن الفتى ينوي انتقاماً، منك.

اضطربت ملامح الكاهن:

.لا أظن أن كاي مصدر تهديد. فتيان المعبد ينشئون على الخضوع والطاعة.

.ألم تكن من فتيان المعبد يوماً يا نائب الكاهن؟

.كنت... حتى عاند مانيتون الآلهة.

.سأرسل معك حارساً شخصياً، حتى إذا عاد الكاهن قتله.

هذا القلق في عيني الكاهن فهمس فردخاي.

.لقد أقنعت الملك برسمك كاهناً أكبر بعد أن نوازي جسد مانيتون. لا تنشر الخبر حتى لا تحدث جلبة. دعنا نُخلق أبواً

تأتينا بريح مغبرة.

.هذا كرم بالغ.

استطرد فردخاي.

.هناك أمر آخر. لقد أسر لي الملك أن متون الجيتانا ناقصة. هل كان كاي هو الوحيد القائم على كتابتها أم أن هناك

من ساعده؟

.لم يكن مانيتون ليأمن إلا لكاي.

.البرديات مبتورة، ينقصها سفر أشار إليه مانيتون وسط الأسفار. ربما أخفاه في خبيثة خارج المعبد؟

.كاي لم يخرج من المعبد منذ بدأ الكاهن الأعظم إملاءه المتون. إن كان هناك أسفار ناقصة فيما هي بحوزتك أو كتبها

مانيتون بنفسه ولم يُطلع عليها أحداً، لقد فتشنا غرفته وخبرات المعبد ولم نعثر على أي برديات.



شردت عيناً مُردخاي في تفكير قطعه نائب الكاهن:

. جَل ما أخشاه أن ينتشر الخبر فيهتز إيمان الناس بكهنة المعبد.

. إن الشعب لا يصدق، وإذا صدق فإنه ينسى، مثل طفل يبكي بحرقة ويصرخ، ثم يضحك بعد لحظة، كأن شيئاً لم يكن.

لكن، إذا اتضح أن المتون المفقودة في سمنود قسيكون غضب الملك غير محمود، على المدينة بأسرها.

. بالي لن يهدأ حتى أجدها.

. كم تبلغ مساحة الأراضي المملوكة للمعبد الآن؟

ضرب الفلق ملايح الكاهن ثانية، فاقنطاع أراضي المعبد أمر ينتهجه الملك تحجيماً لسطوة الكهنة في نفوس العامة:

. حوالي مائة وعشرين أرورا من الأراضي.

. يا لها من مساحات، أجمعها مزروعة؟

أجاب الكاهن في وجوم:

. معظمها.

قام مُردخاي مُنهياً المقابلة:

. قبل أن أنسى، لقد ذكرت أثناء حديثك فقدان تالنت ونصف من الذهب من خبينة الهيكل، أثق أنك لن تنساها حين

تزور الإسكندرية في المرة القادمة، عودة سالمة لسمنود، سنلتقي بعد دورتي قمر، يوم الجنازة.

رجل نائب الكاهن وفي صدره خوف يخمش صدرًا عطاه فرو فهد. ووعد، خوف من غدر رئيس القصر إذا أوعز إلى الملك

اقتطاع أراض من ممتلكات المعبد، ذلك السوط المُسلط على رقاب الكهنة منذ رست مراكب الإغريق على شواطئ

الإسكندرية وأدرك الإسكندر يومها أن شعب الجيبتيين هم أكثر شعوب الأرض توقيراً للدين، أما الوعد فلقب طال

انتظاره، «الكاهن الأعظم»، مكانة ما كان ليتمنى نيلها بتسليم رقية معلمه، لكن، العقد السابع أوشك على الانقضاء،



ومقبرته انتهى نقشها ورسمها واستقر التابوت المزين فيها، إنها سنة الحياة القاسية، حين تتأخر الطبيعة، على الإنسان أن يتحرك، أما أكبر المخاوف فكان وقع الخبر في نفوس العامة إذا علموا أن خادماً للرب قتل معلمه، سيهتز الإيمان ويفقد زي الكهانة هيئته فتشخ الذور وتنقوض أركان المعبد. ارتعد من الفكرة لكنه ردد في نفسه: «إن الشعب لا يصدق، وإذا صدق فإنه ينسى، مثل طفل يبكي بحرقه ويصرخ، ثم يضحك بعد لحظة، كأن شيئاً لم يكن».

أما مُردخاي فنزل الدرجات وأشار لحارسه الذي قذف حربه منذ أيام في صدر كاي، اقترب وانحنى بالقرب من فم سيده:

فقدت القدرة على التصويب أم ضعفت ذراعك؟

. ماذا حدث يا سيدي؟

. فار المستنقع حي يمشي على قدمين، عاد إلى المعبد وهذ الكهنة.

اضطربت معالم الحارس:

. لكن الضربة كانت...

قاطعهُ مُردخاي:

. ليس الآن وقت حساب، أرسل مع الكاهن من يقوم على حراسته. لا أريد أن يطوله انتقام، وأرسل إلى رئيس الشرطة بأوصاف الكاهن الذي أفلت من حريتك الخائبة، ليطلق عيونه في كل مكان حتى يأتينا بخبر عنه.

انسحب الحارس ليتابع مُردخاي الأمير والفتى الذي يُصارعه.





المدخل الجنوبي للإسكندرية.

ضرب يود البحر أنوف القادمين تجاه بوابة المدينة. مزارعين يسوقون حميراً وبغالاً تحمل الغلات. عمال الصيانة وبخارة السفن، ووافدين جددًا يحلمون بمكان في حنة الإسكندر تحت رعاية الرب الإغريقي. أما الميسثرون فيركبون عربات مزينة تجرها الأحصنة في طابور طويل يضيق بهم عند عنق البوابة. يمرون أمام أعين الحراس وعصيتهم التي يخزّون بها البضائع المربوطة فوق الدواب كي لا يخترق المدينة غير مرغوب فيه. ثم تقدّر الصربية على أصحاب الغلات بحسب نوعها ووزنها. وهوية من سيحملها إلى «أجورا» سوق المدينة المطل على المرفأ الغربي. مساحة شاسعة من الأرض تفصل حي راقودة الخاض بالجيبتيين عن البحر. يجري فيه الشبالون كالفئران بين الناس. يرفعون السلع إلى بطون السفن المغادرة إلى البحر. وينقلونها بين الباعة الذين يرضونها في تشكيل مبهّر للأعين.

عند البوابة اقترب رجل غطى وجهه بقماشة. أوقفه الحارس بإشارة من يده.

. من أنت ؟

أجاب دون أن يرفع القماشة عن وجهه:

. مينأ بانياس. شارع الستاد يوم المنزل التاسع، راقودة.



نظر الرجل في سجل مُعلّق بجانب البوابة، مُشّت عيناه في سُرعة بين السطور والأرقام حتى عثرت على رقم تسعة،  
تأكد أن شخصاً بنفس الاسم يعيش في نفس المنزل ثم سأل:

. اذكر اسم جار لك في البيت.

أجابه الرجل:

. طبيب يدعى عزيز.

راجع حارس البوابة البردية حتى عثر على اسم الجار فأشار للرجل بالمرور قبل أن يستوقفه:

. لم تغطّي وجهك؟

كشف كاي القماشة عن وجهه فظهر شح عميق في الخد:

. قاطع طريق حاول سرقتي.

تركه الحارس يمر فعطى وجهه ثم ذاب في الزحام. خلّما توغل في المدينة ارتفع إيقاع الطبول وضج الناس. اليوم  
كان عيد «باستت»؛ قطعة مدينة «يوباستيس» الشهيرة بالوجه البحري ورمزها، تُقدّس عرقانا بجميلها في بث المرح  
والأنس في البيوت، ولشراستها في اصطباد الفئران من الصوامع. يُمثلونها على هيئة امرأة ممشوقة القوام لها رأس  
قطعة، تمسك في يدها شخشيخة ذهبية، يضعون تماثيلها المزينة بالذهب والأحجار على رأس موكب مبهر يلف الشوارع  
والناس من ورائه سائرون في جماعات، يحتسون الجعة في مرج وبرش بعضهم بعضاً بها، واضعين وجه قطعة مصبوغاً  
بالنيلة الزرقاء فوق وجوههم ويهزّون الشخاشخ وهم يرقصون.

مشى كاي بينهم يتأمل وجوه قُطط على أجسام بشر، تخبّطه السكرى وتفخوا المزامير في أذنيه حتّى صاحت فيه  
امرأة مُنتشبة عارية الصدر، لم لا ترتدي وجه باستت أيها الوسيم؟ قبل أن تلتصق وجه قطعة بوجهه وتقبل خدّه بعنف،  
صار واحداً من المحتفلين فمشى يلتمس بالسؤال طريقاً إلى منزل طبيب المُستنقع عزيز الذي أعطاه عنوان بيته  
واسم جار يساعده في المرور من البوابة، وأوصاه أن يأتيه بخبر عن «ناديا»، ابنته التي تركها يوماً لينجو بحياته، في آخر





فكان يخطر ببال كاي أن يطرق أبوابه: الإسكندرية.

قبل أيام، وحين عبر كاي بحيرة المعبد المقدسة بحد مشقوق من كاهن زميل وجروح تفتقت، كان يدرك أن رئيس القصر لن يخفي عليه أمر بقائه على قيد الحياة، سيقلب البلاد رأساً على عقب حتى يجده، فنائب الكاهن لن يحتاج نصيحة ليبلغ أمر زيارة القاتل للمعبد، كما كان يدرك أن التمساح الذي يقطن البحيرة لن يطول صبره حتى يظفر به رغم العشرة. خرج من الماء فألصق سَعَفَتَي تَخيْل بباطن قدميه لإخفاء أثاره عن زملائه السابقين من الكهنة، ثم ركض حتى طوته الأحراش، استقر في ظل شجرة داوى تحتها جرحه بورق الجميز ثم غلبه النعاس للحظات رأى فيها الكاهن الأعظم في قدس الأقداس، أمام تمثال الرسول إدريس، اقترب منه ثم جثا على الأرض:

. سيدي، أنت حي!

التفت الكاهن إليه بوجه يملؤه القلق ثم لامس بيده شرخاً في قدم التمثال:

. انظرا إن تمثال الرسول يتشقق.

نظر كاي للشرخ الذي يتسع فأردفه:

. سيدي، ابتعد، ستسقط الأحجار.

. الوقت ينفد، اذهب إلى الإسكندرية، ستجد هناك ما تُصلح به التمثال.

وانتفض كاي فجأة، لمح قوس الشمس ينحدر والطبور في جماعات تحط على الأعصان، التفت أدناه أصواتاً تقترب فأدرك أنه متبوع من كهنة المعبد، زملاء الأمس، وأعداء اليوم، تسلق شجرة تحفّي في أغصانها حتى عبر زملاؤه، قبل أن يتقهقروا في خيبة من إدراكه، ليث ليلته بعينين لم ترمشا حتى أدرك أول ضوء فاتخذ طريقه بوحى من كلمات معلمه، نحو الإسكندرية.





حين وصل كاي أمام بيت عزيز خلع وجه القطة وطرق الباب، النقط صوت خطوات تقترب قبل أن يفتح الباب عن عجوز ضيقت عليها حتى تراه:

. من أنت؟

اضطربت كلمات كاي:

. كان هناك طبيب يعيش هنا، يدعى...

عبث وجه المرأة:

. يدعى اللعين، ماذا تريد؟ أنت من أقربائه؟

تدارك كاي:

. بل أقرضته المال يوماً ولم يرده.

. اغرب، لا أموال لك عندي، هذا اللعين قتل زوجي من أجل دينه.

أغلقت المرأة بابها فأعاقه كاي بقدمه، نظرت إليه شذراً فاستدرجها:



. أمهليني يا سيدتي، أليس للرجل أبناء أقتص منهم؟

قالت المرأة بصبر نافذ وعينين لمعتا من الفكرة:

. كانت له ابنة، ابحت عنها في حوارٍ إليوسييس.

قالتها وأغلقت الباب في وجهه. تلقت حوله فسأل عابراً عن حيّ إليوسييس أين يقع، ابتسم الرجل ثم أشار للشرق:

. عبر الحي الملكي إلى الشرق ثم انحدر جنوباً، لكن أفهم، إن ساكنات هذا الحي لا يستيقظن صباحاً.

. لم؟

. لأنهن العاهرات.

قالها الرجل وابتعد فاسدل كاي القماشه فوق شج خده ثم ابتعد، غرباً.





في الأيام التالية توارى كاي في ظلال المدينة الكبيرة. مُترقبًا خائفًا وسط أمواج الصُخب والجنون، يعيش تحت سيف من القوانين الصارمة، الجببتي فيها هو الأفل خطأ. لا مكان لعاطل أو مشاعب في الإسكندرية. لا مكان لغريب ضعيف لا يقدر على الحياة. حتى العميان والخصيان وأصحاب العاهات يعملون. وإلا تنذبتهم المدينة الكبيرة النازرة وتدير رءوسهم، ثم تلفظهم كما يلفظ البحر جثث الغرقى.

بعد يومين من المبيت على شاطئ البحر تحاشى كاي حالهما الغرباء وعيون القصر بقلنسوة أخفت نصف ملامحه ولسان شحيح الكلمات، وجد كاي مأوى للمشردين يقع وسط حوارى السوق المزدهم في شمال راقودة، ينظف المكان ويشترك في توزيع الطعام. وبساعد العجائز في قضاء حوائجهم نظير وجبة ومبيت، ثم يقضي ليلته مُحملًا في السماء بحثًا عن طريق الأيام القادمة، الكاهن الأعظم قال له يومًا إن النجوم تحوي الإجابات، كما قال في الرؤية التي أتته حين خرج من البحيرة إنه في الإسكندرية سيجد ما يصلح به تمثال الرسول إدريس! لم يكن ذلك كافيًا ليهتدى به، وخارج المعبد حياة شائكة لا يقدر عليها كاهن لم تغادر الأسوار منذ وعي. خمّن الجعران في الرمال انتظارًا لإشارة حياة كان أمرًا لا مناص منه. حتى يضيء راعي السماوات والأرض مسارًا يسترشد به. أو يقضي عليه الموت كما قضى على أبيه يومًا. يقاوم ياسًا يسحبه إلى بئر مظلمة. كلما أخذته سنة من التوم شاهد الرسول إدريس يرمقه في صمت، عيناه الصامتتان تستغيثان وشفته تنفتحان ببطء كأنه ينوي قول شيء، لا يخرج صوته. ثم يرى نقوش الحوائط تتبدل وأعمدة المعبد تتداعى، ويدًا تمتد لتجزع عنق الكاهن بسكين!



ترتعد أطراف كاي فيبكي وهو يرثل متن الرّحمت فتهدأ هواجسه ويصغى الصّبر، ثم يذكر أباه حين كان يهيئ روحه وجسده قبل اقتفاء آثار المجرمين، يجثو على الرمال ويغمض عينيه، يفرغ الأفكار من رأسه حتّى يستمع لانفاسه فقط، يتلاشى العالم من حوله إلى ظلام قبل أن يرى بقعة نور تكبر وتكبر، حتّى تغمّر كيانه، ثم تظهر فكرة واحدة، تكون هي بداية الطريق.

أو ربما رقم!

٥٨٤.

تنبهت حواس كاي دفعة واحدة كأنما لسعته نحلة، كيف نسي الرقم الدموي في خضم الهرب من الموت؟

ما الذي قد يكتبه كاهن تخطى العقد الثامن من العمر والدم ينزف من رقبته؟

إن لم يضيّع لحظاته الأخيرة في كتابة اسم القاتل فما كتبه هو أقيم من حياته.

أفكاره؟ بردياته؟

لكن أي برديات يقصد وكلها منسوخة ومُتاحة؟

سفر لم يملِه على أحد؟

بردية لم تظهر للنور بعد؟

بردية برقم ٥٨٤؟

«الوقت ينقد، اذهب إلى الإسكندرية، ستجد هناك ما تُصلح به التمثال».

انتفض كاي قائماً، سأل زميلاً في الملجأ عن المكتبة الكبيرة فأرشده، سار في شوارع المدينة الصّاخبة قبل أن يقف مشدوهاً أمام الأبنية البيضاء الهائلة والعمود الضخم الذي يعلوه تمثال لبطلميوس الأول مُزين بالأحجار، صعد كاي على السلالم اللانهائية حتّى قابله حارس سألَه عن هويّته فأجاب: «مُحب للقراءة وأبغى الاطلاع»، مسح الحارس هيئته



ثم ضيق عينيه: «المكتبة لا تستقبل المشردين». رجاه ألا يسرع في الحكم عليه وأسر له بأنه حافظ لمتون الأقدمين فأجابه: «لا ينال شرف الدخول إلا عالم أو متبرع بكتاب، هيا ابتعد». رجع كاي خطوات قبل أن يتخذ طريقه مبتعداً، سار محاذياً الشاطئ متأملاً مشهداً لم يعهده، المياه الخضراء وأمواجها تضرب الأحجار بهدير هز روحه، توقف شارداً متببساً قبل أن تحدثه نفسه: «أنت لم تنج لتستسلم أو تموت، لقد نجوت لحكمة لا يعلمها إلا راعي السماء، لا تدخل معلّمك الأكبر، لا تدخل الرسول».

لا يعرف كم من الوقت مرّ قبل أن ينسحب راجعاً، في طريقه مرّ بالترسانة الحربية ثم الميناء الغربي المزدحم، تأمل حركة الشياطين في الإفراغ والتحميل قبل أن تلتقط عيناه ربتاً فوق سفينته، يخرج إصماعات برديات من صندوق كبير ويرص بعضها فوق بعض، لم يتخذ التفكير منه لحظات، نزل درجاً أوصله إلى رصيف السفن، في غفلة من رئيس العمال اندمج في تغريغ جوانات من باطن المركب قبل أن يصعد سلماً أوصله إلى سطح المركب، تصنع الانشغال بتنظيف السطح حتى ابتعد الرّبّان عن البرديات، التفت إصماعة مربوطة بخزام جلدي سميك واتجه للسلم فلمح زي رّبّان معلق في باب الغرفة، لفته حول إصماعة البرديات والتعلّ حذاءً ثم ففر السلم، دس سرقة في جوال وخرج وسط الشياطين، ابتعد حتى اطمأن فسالت إصماعة البرديات المخفية واختفى.

في اليوم التالي اتجه كرتان سفينة إلى مكتبة الإسكندرية، التمس باباً وقف عليه حارس غير حارس أمس، أشار للبرديات قائلاً:

. جئت لأسلم هذا الكتاب نيابة عن صاحبه.

نظر الحارس في وجهه ثم أفسح الطريق فعبّر كاي البوابة إلى بهو أعمدة مستدير مليء بالحركة، طلبة يمشون خلف معلّميهم وموظفون يشرقون على النظام، اقترب من أحدهم فسأله أين يطلع على الكتب للقراءة فأشار إلى مبنى يقع بعد حديقة واسعة، نزل إلى طريق مبّلط مشى فيه، كل عشرين ذراعاً يرى معلماً يجلس على حجر وأمامه عدد من التلاميذ في نصف دائرة يتلقون العلوم المختلفة، قبل أن يمر بأقفاص ضخمة تحوي حيوانات وطيوراً لم ير لها مثيلاً في حياته، ثم وصل إلى مبنى الكتب، دلف من الباب إلى بهو دائري مرفوع سقفه بأعمدة زينتها تيجان ملونة، يقضي إلى ثماني قاعات ضخمة، حيطانها مكسوة بخزانات خشبية تصل للسقف ولكل منها مصراعان، تحوي برديات ملفوفة





ومُرَقَّمة بنظام دقيق، اقترب منه موظف:

. أستطيع أن أساعدك.

. معي إضمامة برديات لكتاب أوصى صاحبه بإيداعه رفوف المكتبة.

قالها كاي ووضع البرديات بين يدي الموظف الذي تأمل عنوانها ثم أردف:

. سأسجل بياناتها وستعرض على سيدي «ديميئريوس فاليروس» أمين المكتبة. إن وافق عليها، ولا أعدك، ستوضع في الرفوف.

. لا بأس، أود أن أعرف نظام الاطلاع.

. يمكنك طلب اسم كتاب بعينه أو موضوع تبحث فيه فأساعدك.

. ماذا إن كنت أملك رقماً؟

. رقم الرف سيختصر وقتك.

. ثلاثمائة وخمسة وستون.

التقط الموظف لوحاً دُوِّنت فيه بيانات الرفوف، نظر فيه للحظات ثم رفع رأسه بابتسامة:

. اتبعني.

في القاعة الثالثة مشى الموظف بعينه على الخزانات المُرَقَّمة، حتى وصل أمام واحدة فوقها لوحة نحاسية نقش عليها الرقم، وضع سُلماً صغيراً وفحص أرقام البرديات ثم التفت لكاي الذي وقف متربحاً:

. هناك من استعار تلك البرديات، دعني أراجع الواحي.

أسرعت عيناه على الألواح حتى استقرت:



البرديات التي سألت عنها استعارها رئيس الخاصة الملكية.

انقبض قلب كاي.

مردخاي!

نعم، رجل واسع الاطلاع، للأسف لا أملك ميعاد استرجاع، هل أستطيع مساعدتك بشيء آخر؟

تمالك كاي نفسه:

أشكرك، سأتحول في الأروقة لعلي أجد ما يفيدني.

هناك قاعات مفروشة بالابسطة والوسائد الفارسية، ستجد راحتك هناك.

ابتعد الموظف فزقر كاي ألماً، نظر إلى السماء من خلال رجاج السقف الملون قبل أن يستدرك الموظف:

سيدي، انتظر، ما عنوان البردية التي كانت في الكوة؟

رفع الموظف الواحة قبل أن يجيب:

إضمامة برديات كتاب «أبيقور» عن السعادة.

قالها قبل أن تلتقط أذناه جلية وهمهمات فاستأذنه بابنسامه ودودة ورجل، تطلّب الأمر من كاي لحظات ليستوعب المستنقع الذي ظن أنه خرج منه. الطحالب التي التفت حول ساقيه والتمساح الذي فغر فاه واقترب «إن كان معلمي قد ترك خيطاً قبل أن يرحل فقد انقطع. سينزل جسده إلى القبر ومعه سره. وخدلان سأراه في عينيّه حين يزور أحلامي. لكن! أبيقورا لماذا كتب المعلم إشارة لبرديات أبيقور عن السعادة لحظة خروج روحه؟ ولماذا يخفيها؟ أكان يعني ما كتب؟ سكرات الموت أذهبت عقله أم أن الظلام أعماني فلم أقرأ جيداً؟ أم أن الأرقام...؟

مكتوبة كما نكتب أرقامنا نحن الجيبتيين، لا بطريقة الإغريق، من اليمين لليسار.



رفع كاي عينيه للوحة نحاسية تعلو باب القاعة، مكتوب فوقها القاعة الثالثة. مر بعينيه على أرقام الخزانات فوجدها تبدأ بترقيم ثلاثمائة، علت الجلبة فتحرك متباعدة إلى القاعة الرابعة ثم دلف إلى الخامسة بعينين تمسحان أرقام الخزانات في الحيطان، حتى وقعت عيناه على خزانة تحمل مقلوب الأرقام: خمسمائة وثلاث وسبعون. وضع السلم وصعد، ارتفعت الجلبة مقتربة، فتح مصراعي الخزانة حين التقط وقع أقدام تركض، ثم سمع صوتاً يعرفه يصرخ في الحرس: «حاصروه، أريد حياً». سقط قلب كاي بين قدميه، إنه مردخاي التقط إصمامة البرديات قبل أن يدخل حارس من الباب رافعاً خنجراً متحفظاً: «لا تتحرك»، صرخ بها فركض كاي بأقصى سرعته، خرج إلى القاعة السادسة ثم السابعة والحراس يزدادون صراخاً وحصاراً. ألقيت عليه الخناجر قبل أن يدخل إلى القاعة الأخيرة ليجد رئيس القصر في انتظاره بين حارسين:

. توقف ولن يمسك سوء .

اندفع الحراس من ورائه محاصرين فلوح كاي بسكينه في توتر.

. لم أقتل الكاهن الأعظم.

. كاي، أنت في الإسكندرية، تحمل سكيناً في وجه رئيس القصر. ساعد نفسك، أعطني البرديات ودعنا نتحدث.

. أي حديث بعد أن طعنيتني وألقيتني في مستنقع؟

. نائب الكاهن أكد ارتكابك الجريمة.

ضرب الدهول وجهه:

. لماذا يفعل ذلك؟

. أعطني البرديات وأعدك أن نذهب إلى المعبد فنعيد البحث عن القاتل الحقيقي.

نظر كاي في عيني مردخاي، قرأ الغدر فانطلق فجأة نحو أحد الحراس. تحفز الأخير في رعب قبل أن يحتضنه كاي ليقفز به من نافذة خلفه، سقط فوقه على عشب الحديقة وقفز وراءه الحراس، اقترب مردخاي من النافذة يتابع، تعثر رجاله

في أسلحتهم الثقيلة وكأي أمامهم بجسد خفيف يحتضن إضمامة البرديات ويطلق ساقيه فوق العشب حتى التحم بالأشجار فدخلوا خلفه.

كان على مُردخاي أن ينتظر ساعة قبل أن يعود حارس من الثلاثة ليَقص عليه ما جرى ومن ورائه رئيس الشرطة ومُساعده:

. انطلقنا ورائه حتى قفر سور المكتبة، اتجه إلى الميناء الغربي ثم جنوباً إلى سوق الأجورا قبل أن يذوب في زحام الباعة، لكن أحد المواطنين تعرّفه، قال إنه مُشرد يعيش في ملجأ خلف السوق، اتجهنا إلى هناك فأخذ المُشرف أنه يأوي شخصاً بتلك الأوصاف منذ أيام، فتشنا الملجأ ولم نجده فتركنا زميلنا هناك وجئنا لانيك سيدي.

سحب مُردخاي نفسه إلى صدره ثم حك ذقنه قبل أن يُومئ إلى رئيس الشرطة بإشارة، خرج ورائه، مشياً في صمت عبر القاعات قبل أن يضع مُردخاي يده على كتفه.

. لا أخفيك سرّاً، لو علم الملك بما حدث فسبكون غضبه عظيماً. إن الذي اقتحم المكتبة هو كاهن سمهود الذي ذبح الكاهن الأعظم.

اضطربت معالم رئيس الشرطة.

. ألم يقتله حراسك في المستنقع؟

. كهنة إيجيت لهم في السحر باع قديم، يبدو أنه نجا بطريقة ما، لا تنس أنه من تلاميذ مانيتون قبل أن ينقلب عليه، كما أنه قاص أثر يجيد إخفاء خطواته.

. سأزيد عدد رجالي في الموانئ وعند بوابات المدينة، لن يستطيع الخروج براً أو بحراً ولن يطيق الجصار.

. أخشى أن يخفيه أهل راقودة بينهم، الجيبتيون شعب يقدّس رجال الإله ويجلونهم، سيحكك لهم قصة يبدو فيها مظلوماً، وسيبهرهم بسحر يتقنونه في المعابد.

. أهل راقودة منهكون ولا يأملون إلا العيش بعيداً عن أيدينا، ولنا فيهم أعين مستيقظة تتمنى الرضا.



أريده خيّا، أمّا البرديات التي بحوزته فالملك خَريض عليها أشد الحرص.

. كل اليقظة والتدبير يا سيدي.

قالها رئيس الشرطة ثم انسحب تاركًا مردخاي في القاعة الخامسة أمام خزانة فوقها لوحة نحاسية تحمل رقم مقلوبًا،  
قرأها من اليمين لليسار، مثل الجيتيين، بضروس تطحن نفسها، قبل أن ينسحب بغضب.





حين هذات أنفاسه وعادت ضربات القلب الإيقاعها التقليدي كفاً عن الالتفات وراءه اتقاءً لحرس رئيس القصر. طوى البرديات بحرص ودسّها في رذاته مسرعاً خطاه دون وجهه بقصدها، هالماً على وجهه مضطرب النفس يتلفت ذعراً مع نداء بانع أو طقطقة خوافر خيل على الأرض. انزوى لساعات لم يُحصها في ظل معبد، تناول سمكة أسكتت معدته ولم يجرؤ على النظر في البرديات من وحز نظرات الكهنة إليه. رتل متون الاستغاثه بصوت خفيض حتى انحسرت الشمس فاستأنف طريقه شرقاً، عبر حتى دلتا وتوغل في أرفه إليوسيس، حيّ محمي بقانون سنّ لمنع الشباب من إغواء الزوجات المهملات بعدما تفتش حب العلمان في قلوب الرجال، تتناثر البغايا من كل الألوان فيه، يفترشن عتبات مغلّقة على أبوابها منحوتات لأعضاء ذكورة مصبوعة بالأحمر، حاسرات الصدور والأوراك يبعين رزقا بنداءات معسولة تأسر الرجال بسحر خوريات البحر، يُطلقون عليهن فتيات «الدكترياديس» ماجنات مانعات نجدن الرقص المثير والمعاشرة، يخدمن البحارة المقيمين مؤقتاً في موانئ المدينة، تعلوهن بدرجة قلة تسمي «الأولترايدس» عارفات الناي، فتيات رقيقات معطرات يحضرن الاحتفالات الخاصة عاريات أو متدنرات بالديافانوس الشفاف، يعزفن ويغنين بصوت يسلب العقول ويلهون بالنيران في وجوه الضيوف الذين أثقلهم السبذ، يتسابقن على أفضل عجيذة وأحمل استدارة صدر حتى يفقد الحاضرون رزانتهم ويأخذوا في القفز على الأرائك وراءهن كالأطفال، ثم يعقد المزاد، مزاد على أسعار الفتيات في الليلة، أو شرائهن لاتخاذهن محظيات، لسنوات تمتد أو تقصر، حسب قدرة الفتاة على الاحتفاظ برقية سيدها، بين ساقبها.





ثم تأتي طبقة «هتيرا»، أو المضيفات، وهنّ غايةً تصبو إليها كل فتاة مسحت ببطنها حانات إليوسيس، نساء على قدر من الذكاء والنفوذ والجمال مما يُعطيهن الحق في فتح منازل خاصة لعشاق يختارونهن بعناية لينعاشروهن باختيارهن، يهيمن على المسارح والنوادي الخاصة، ويُدرن سهرات شباب الجمنازيوم وأدباء المكتبة ورجال القصر والحاشية، على رأسهم الملك الذي اتخذ من بينهن «بليستيش» محظيته المفضلة.

في أرقّة إليوسيس أجواء مسحورة وحكايات لا حدود لشططها، روائع مختلطة وأبدان ملونة تتزاحم كمخلوقات المُستنقع، مع فارق كبير، إليوسيس أشد خطراً من المستنقعات.

على قلوب الرجال

حين انسدل الليل بدأ كاي البحث عن مأوى، غريب يخفي رداؤه قليلاً منهكاً وبرديات مُلطحة بدماء كاهن، استدعى مظهره الرّت ضحكات النسوة والمُختئين، استبعد معبداً يحوم رجال الشرطة من حوله، وملجأ مُختطاً بأعين لفظته دون حوار، حتى اقترب من ناصية وقفت عليها سيدة لها لديان كريمان وشعر أحمر هائم، تأملت مظهره فابتسمت نصف ابتسامة ثم حركت لسانها غنجاً فاقترب.

. هلا تدلينني على مبيت ليلتي؟

. د علي أديكك مضاجعة لن تنساها.

. أبحث عن فتاة بعينها.

. أستطيع أن أكون لك خيراً منها.

. لا، أنا...

مطّت شفّتها:

. مم، عاشق يُعاني حرقّة الهوى؟



. بل قريب لها، قادم من سفر.

. ما اسمها؟

. ناديا.

بصقت المرأة شيئاً كانت تمضغه ثم أردفت:

. حوارى إليوسيس تشبه مئاهة الحديقة الملكية.

ثم أشارت إلى الوادي المحفور بين ندييها وأبتسمت:

. لكنني أحفظها هنا، ما كنتها؟ فكل فتاة تترك اسمها على عتبات إليوسيس قبل أن تدخل.

. ناديا، بنت عزيز.

امتقع وجه السيدة وغاب الخنج في صوتها:

. حانة «يلوس» بجانب الحمام الكبير.

شكرها كاي وابتعد حين صاحت مسمعة فالتفت:

. احترس من الكلب أيها الوسيم.

بلغ كاي الحانة فمر بين خيول وحمير مربوطة، دلف مستطاعاً، شاهد نسوة يرفصن ورجالاً، سقاة يطوفون بكنوس البلح والعنب يسكبون الخنون في الحلوق، وفتيات في ركن يعزفن الناي بحرفة تميل الحيطان، اقترب كاي من الساقى العجوز:

. ألتمس مبيت ليلة أعمل بأجرها، أجدد التنظيف.

نظر إليه الساقى بلا تعبير:



ليس لديّ مكانٌ شاغر، اغسل الكئوس واقض ليلتك على مقعد.

أتعرف فتاة تدعى ناديا؟ ناديا عزيز.

نظر إليه الساقى بلا تعبير:

أنت غريب عن إليوسيس أليس كذلك؟

أجاب كاي بعد تردد:

نعم.

هل هي أخت لك؟

لا، إنها...

قاطعه الساقى:

إذن انس أمرها ولا تذكر اسمها هنا، دلو الغسيل وراء براميل التبيذ، نظف الكئوس واقض ليلتك في سلام.

قالها الساقى وانشغل مع رواد الحانة قدس كاي البرديات بين براميل التبيذ والجعة والتقط الكئوس، دسها في الدلو مستند عينا لحظات كان يغسل فيها كئوس وأواني قدس الأقداس في مياه البحيرة المقدسة حلف المعبد، لا يصدق أن كاهن الأمس يختبئ اليوم في حيّ عاهرات لينجو بفعلة لم يفترقها، احتفن أنفه وتهدّجت أنفاسه قبل أن يدخل الحانة شاب غزير الشعر قوي البنية مكتحل العينين، يقبض بيده على عنق كلب مولوسي ضخم، حيّاه الرجال وتهايمست الفتيات، أمر كلبه المزمر بالجلوس فخضع في ركن ثم توسّط الحانة مستعرضا قوة ذراعه في الريب على أكتاف أصدقائه، لحظات وتعاقد صوت الناي، حزين كئواح في بئر، اتسعت الدائرة وسكنت الحركة، أغمض الشاب عينيه تاركا الموسيقى تنساب إلى رأسه، ثم صاح صيحة كالعواء فلمس الساقى سؤالا في قلب كاي، أجابه:

هذا أرام، تاجر الكلاب المولوسية، يقولون إن مرأة الفئار ستسقط في البحر إذا خرجت من إليوسيس فتاة لم يطأها



ذلك الفتى، وهو بالمناسبة عشيق ناديا.

التفت كاي للفتى الذي صاح نشوة ثم رجع للساقي:

. عشيقها؟ أهى عاهرة من عاهرات إليوسيس؟

. بل عازفة ناي، وراقصة. وطأت أرض إليوسيس صغيرة وتنقلت بين عشيقين أنصبا ثمرها، ثم شاهدها أرام ترقص، وله

بها وذهب عقله، اشتراها من سيده يهودية باعها لتسديد دين عليها، باع نصف كلابه ومقبرته حتى يظفر بها، مزق

من أجلها رجالا وخاض معارك حتى خلصت له وعرف سكان إليوسيس أنها نصفه الآخر.

ابتلع كاي ريقه وهو يتابعه ثم سأل:

. وأين هى، ناديا؟

. ها هى، تعزف الناي.

نظر كاي إلى حيث أوما الساقي فراها. تجلس إلى كرسي قصير في رداء عسلي شفاف كشف عن فخذين قويتين. لم

يتبين ملامحها المخفية بين الخصلات المموجة النائرة حول رأسها. خصلات تخيف الليل من سوادها. وضع الكنوس

المتسخة ومسح يديه المبللتين في طرف رداءه واقترب. تابع أصابعها المتمفة تتراقص على فتحات الناي. تصدر نغمة

ساحرة تنوغل في الروح. على ضوء السراج المرتعش نمشت عيناه على جلدتها الخمرى وزغب الذهب الذي يجري عليه.

اقترب خطوات حتى وضحت ملامحها. فم واسع يفتقر عن أسنان بيضاء. وشقان غائران في وجنتين عاليتين أضفا

عليها سحرا لم يخف شجنا. رموشها طويلة ظللت رواد الحانة. وعيناها شديدا السواد. التفت بعينية للحظة أرجعته

للوراء خطوة فاضطدم بالساقي:

. إن لم تكن لك بها حاجة فابتعد. فعاشقها كلب لا يستأنس.

ثم قامت ناديا، رفعت ذراعيها وضمت أناملها الرقيقة وبدأت ترقص. وقف كاي على أطراف أصابعه ليتابعها من بين

البروس. أغمضت عينيها وضمت شففتين تنزه من شفقهما. رفعت ساقيها المتناسقتين، نضح منها عرق زادها لمعة.



تھاقت شعرها في توحش حولها، تمايلت حتى دارت رموس الحاضرين في نشوة، رقصت على قلوبهم وصدورهم قبل أن تنتهي وقد قتلت العشرات. جاهد كاي في إغلاق فمه وتصارعت الحناجر في الثناء عليها والعيون في نهشها، ثم اقترب آرام، التقط يدها فقبلها ثم اتخذاً ركناً فأجلسها على ساقيه رامقاً البحارة بنظرة أرجعتهم إلى كراسيهم، طلب كأس نبيذ وداعب عنق كلبه. تابع كاي «ناديا» تلتقط أنفاسها، تركي ذراعيها بجانبها وشعرها فوق وجهها، مسح العشيّق عرقها ولعقه، ابتسمت فقبل كتفها. انتظر كاي حتى هدأت أنفاسهما فاقترب بابتسامة ودودة كان يستقبل بها زوار المعبد يوماً:

.أحمل رسالة.

رمقه آرام بلا تعبير:

.رسالة؟ ممن؟

.رسالة للسيدة.

رفعت ناديا عينيها إليه في فضول، فيما احتفن وجه آرام فأزاح ناديا من فوق ساقيه برفق وقام مفترناً من كاي:

.رسالة للسيدة هي رسالة لي.

اضطربت ملامح كاي:

.من الأفضل أن نتحدث بعيداً عن الأعين.





خارج الحانة كان الليل قد تمخّن، حمل الهواء أصدااء الموسيقى من كل اتجاه وتناثرت العاهرات بين المارة يناقسن باعة السمك والحلوى الجائلين في ترويح بضاعتهم. خرج كاي بشعر متلبد وقلب غائر في صدره، زمجر الكلب فرجع خطوتين وشدّ أرام قبضته على حنزير العنق، أما ناديا فوقفت خلف عاشيقها الذي مسح كاي بعينيّه:

.هيا، تحدث.

.أحمل رسالة من والد ناديا.

خفق قلب ناديا:

.ماذا تقول؟

.قابلت أباك، الطبيب عزيز، أرادك أن تعرفي أنه على قيد الحياة.

زمجر أرام:

.لتتحدث معي أنا، أين وجدته؟

يعيش في المستنقعات.





ذهلت ناديا:

. يا إلهي.

. ويطلب منك أن تتهيئي للقائه، خارج الإسكندرية.

قبض آرام على ثلاثيب كاي.

. لولا هياتك الرثة لتركت كلبى سيربيروس ينهشك، أي تخاريف تحكي أيها الأبرص؟

أمسكت ناديا يرسغ آرام تستمهله:

. انتظر، ثم نظرت لكاي:

. صف وجه أبي.

. نحيل، له لونك، حكى لي عن عشقك للرقص منذ وكدت وعرفك الناي. وعن مرض شديد ألم بك وكاد يهلكك وأنت

صغيرة، وعن والدتك التي هجرت البيت وراء رجل آخر

التفتت ناديا إلى آرام:

. إنه يتحدث عن أبي.

أقلت كاي بعد لحظات طالت والتفت لناديا:

. أبوك القاتل؟ أبوك الذي تركك صغيرة حتى باعتك امرأة المزابي لتسديد ديوته؟

ترقرقت عينا ناديا بهدوء فأكمل:

. تخليه عنك بعد أمك العاهرة اضطررت إلى فتح ساقيك.

ساد الصمت فتابع كاي ناديا التي تحجر وجهها، شخصت في نقطة بعيدة خلف كتفه والدمع الساخن ينساب فوق



خديها العاليتين، تحدّث كاي بصوت خفيض:

. إن أباك يتألم في مكان يعج بالتماسيح، أيامه الباقية قليلة، ولقاؤك هو كل ما تبقى له من أمل.

الثقت إليه آرام:

. قد أبلغت رسالتك أيها الأشعث، الآن اغرب عن وجهنا.

انسحب كاي في هدوء، بصرتة ناديا حتّى دخل الحانة قبل أن يسحبها آرام مع كليه وبيّتعدا.





نفس الليلة.

حي دلتا، الإسكندرية.

رائحة لحم العنزة ملأت هواء الباحة الخلفية للبيت الخبير، فحمّله بنكهات الفلفل والثوم وقطع البندورة المقشرة، أشعل شواء ول شمعدانا فوق المائدة ثم رصّ الأطباق حين التقطت أدناه طرفًا بالباب، هبّش الأفراخ والماعز بعضا ثم اقترب وفتح ثلثة تعرف منها وجهها مألوفًا ففتح.

. سيدي.

دلف مزدخاي واضعًا يديه خلف ظهره مبتسمًا في ود:

. كيف حال مصارع الأمير؟

. حريص على ما علمتني، النهايات السعيدة لصالحه مهما بلغت فسوة القتال.

. هذا هو تلميذي، أين جدّتك؟

. لديها مريض، سأخبرها بحضورك.



دَخَلَ الشَّابُّ مِنَ الْبَابِ قَدْلَفَ مَرْدَخَايَ وَرَاءَهُ، يَتَأَمَّلُ الْبَيْتَ الَّذِي قَضَى الطُّفُولَةَ بَيْنَ أَرْكَانِهِ، وَالْجِدَارِيَّةَ الَّتِي طَالَمَا أَجْبَرَتْهُ عَلَى الْوُقُوفِ أَمَامَهَا لِسَاعَاتٍ، جِدَارِيَّةٌ مَرْسُومٌ فِيهَا سَفِينَةٌ خَشَبِيَّةٌ ضَخْمَةٌ تَمُخَّرُ وَسَطَ الْأَمْوَاجِ الْعَاطِيَةِ، عَلَى جَوَانِبِهَا فَتَحَاتٍ خُرِجَتْ مِنْهَا رُءُوسُ حَيَوَانَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَعَلَى مَتْنِهَا وَقَفَ النَّبِيُّ «نُوحٌ» بِلَحِيَّةٍ بَيَاضَ طَوِيلَةٍ، رَافِعًا يَدَيْهِ لِلسَّمَاءِ تَضَرُّعًا وَالْمَطَرُ يَنْهَمِرُ، لَمْ يَنْسَ يَوْمًا تَعْبِيرَ الْوَجْهِ الْمَرْسُومِ، فَمَمَّقَتْهُ عَلَى صِرْخَةٍ خَوْفٍ وَأَمَلٍ، دَائِمًا مَا تَسْأَلُ عَنْ الْمَغْزَى مِنَ الْحَدَثِ الْجَلِيلِ، أَنْ يَغْرُقَ الرَّبُّ الْأَرْضَ بِمَنْ فِيهَا حَتَّى يَقْضِيَ عَلَى حِفْنَةٍ مِنَ الْبَشَرِ! وَدَائِمًا كَانَ يَتَلَقَّى نَفْسَ الْجَوَابِ مِنَ سَيِّدَةِ الدَّارِ: «حِينَ غَضِبَ الرَّبُّ عَلَى عَوَامِ الْخَلْقِ بِسَبَبِ أَفْعَالِهِمْ، قَرَّرَ أَنْ يَفْنِيَهُمْ كَمَا تَنْتَظَرُ الْأَرْضُ وَتَنْتَهِيهِ لِالْإِسْتِقْبَالِ نَسْلٍ مِنْ أَبْنَائِهِ الْمُقَرَّبِينَ، نَسْلٍ سَيَقُودُ الْبَشَرِيَّةَ وَيَتِمَكَّنُ فِيهَا، فَكَانَ سَامُ بْنُ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ، ثُمَّ يَعْقُوبُ الَّذِي لُقِّبَ بِإِسْرَئِيلَ، لِنَرَضِخِ الْأُمَمِ لَهُمْ وَتُدْعَى طَالَمَا كَانَ هَذَا الْجَوَابُ يَتَبَرَّحُ بِدَخَالِهِ شَعُورَيْنِ مُتَضَارِبَيْنِ: فَخَرًا بِالنَّسَبِ، وَمَسْلُولِيَّةً فَادِحَةً أَمَامَ بَنِي جَدِّسِهِ الْمَكْرُمِينَ مِنْ بَيْنِ الْخَلْقِ، فَمَنْدُ أَخْضَعِ بِطَلَمِيُوسِ الْأَوَّلِ بِلَدَّتِهِ أُورُشَلِيمَ فِي حَرْبِهِ ضِدَّ السَّلُوقِيِّينَ بَعْدَ حِصَارٍ لَمْ يَظُلْ، هَاجَرَ مَرْدَخَايَ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ بَيْنَ جُمُوعِ الْفَارِسِيِّينَ، اسْتَوْطَنَ حَتَّى دَلَّتْهُ الْخَصْمَةُ الْمَلِكُ لِلْيَهُودِ قَبْلَ أَنْ يَشُقَّ طَرِيقَهُ بِمَعْرِفَةِ الْكُتَابَةِ وَقُوَّةِ الْبَلَاغَةِ وَبِمُسَانَدَةِ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَدُوبٌ دَائِمٌ يُمَثِّلُهُمْ فِي بِلَاطِ الْمَلِكِ الْمُنْتَصِرِ، الْمَلِكِ الَّذِي مَالُ إِلَيْهِ بِدَوْرِهِ وَقَرْبِهِ لِيُضْمِنَ مِنَ الْيَهُودِ خُلَفَاءَ مُدَبِّرِينَ وَأَصْحَابَ خَبْرَةٍ فِي إِدَارَةِ الْأَمْوَالِ وَجِبَابِيَّتِهَا، يَقِفُونَ فِي صَفِّهِ أَمَامَ أَبْنَاءِ الْبَلَدِ الْمَشَاعِغِيِّينَ، جِدَارًا عَازِلًا بَقِيَّةَ التَّعَامُلِ الْمُبَاشَرِ مَعَهُمْ وَبِوَقْرِ عَلَيْهِ عَضْبِهِمُ الْمَكْبُوتِ فِي الصَّدُورِ، لِيَتَرَقَّى مَرْدَخَايَ فِي الْمَكَانَةِ حَتَّى يَمْلِكَ مِفْتَاحِي الْقَصْرِ وَأَسْرَارَهُ بَعْدَ مَا أُثْبِتَ حِكْمُهُ وَأَمَانَةُ، وَأَدَارَ الْخَاصَّةِ الْمَلِكِيَّةِ بِإِقْتِدَارٍ ظَهَرَتْ أَثَارُهُ.

ثُمَّ تَوَقَّيَ الْمَلِكُ الْمُحَارِبُ، لِيَأْتِيَهُ مِنْ بَعْدِهِ فِيلَادَلْفِيُوسُ: مَلِكُ رَحْبَتِهِ شَيَاطِينِ الْمَوْسِيقِيِّ وَالْفَنِّ، وَالنِّسَاءِ، اسْتَقْبَلَهُ مَرْدَخَايَ بِعَنَاقَةِ قَدْعَمٍ ارْتَحَاءَ جَسَدِهِ حَتَّى أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ الْقَصْرِ وَتَفَرَّغَ لِلْأُمُورِ الْخَبْرِيَّةِ مِنْ صَرَاعَاتٍ خَارِجِيَّةٍ وَتَجْدِيدِ وَبِنَاءِ لِعَاصِمَتِهِ الْأَثِيرَةِ، الْإِسْكَندَرِيَّةِ.

أَفَاقَ مَرْدَخَايَ مِنْ لَوْحَةٍ نُوحٍ عَلَى صَوْتِ أَنْبِيَاءٍ وَاهِنٍ أَتَى مِنَ الْغُرْفَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا شَاعِلٌ:

«جَدَّتِي سَتَنْتَهِي بَعْدَ دَقَائِقٍ قَلِيلَةٍ، سَأَرْفَعُ اللَّحْمَ مِنْ فَوْقِ النَّارِ.

قَالَهَا وَخَرَجَ فَاقْتَرَبَ مَرْدَخَايَ بِهَدْوٍ مِنَ الْغُرْفَةِ الَّتِي يَصْدُرُ مِنْهَا الْأَنْبِيَاءُ، نَظَرَ مِنْ قَرْنَةِ الْبَابِ فَرَأَى عَوْدَهَا الْمَحْنِي



وشعرها الأبيض والتجاعيد التي تفترش جلدھا، واقفة أمام رجل مسن راقد، وبين أصابعھا المرتعشة مبضع مسنون شقت به منذ لحظات خراجاً في مؤخرته، ضغطت على جوانب الجرح حتى طردت القيح، ثم تفجر الدم فلامسته بأناملھا وقربتها إلى أنفھا، اشتمته وفركته ثم أخرجت برطماناً صغيراً من حزامھا العريض، دسّت فيه سبابتھا وغرقت مرهماً داكناً أغلقت به الجرح ثم ضمّدتھ وربّدت على مؤخرة المريض الذي قام بمسح عرقه:

. لا تأكل الدهون حتى أذن لك.

هزّ المسن رأسه في ألم ثم ستر مؤخرته وقبّل يد السيدة:

. ليناركك يهوه يا أمنا.

. أرسل تحياتي لزوجتك الثرثرة.

تلك كانت «راعوث» طبيبة الحي الذي يذكر أغلب معمریه أنها لا عبتهم يوماً صغاراً، بيتھا مفتوح لأبناء الخالية في كل وقت، عدا السبت المقدس، تجرّ الكسور وتشقّ الخرايخ وتضع المراهم على التفريجات، تحكي أحداثاً تجاوزت الألف عام كأنھا عاشتها بالأمس، وتملك عقل رجل ناضج، ودهاء قراب عتيّد.

توارى فردخاي حتى رحل المريض ثم تابعتها وهي تنظف المبضع بقصوص الليمون وتغسل يديھا اليابستين في إناء، قبل أن تلتقط عصاها الخشبية وتخرج بخطوات لا صوت لها من حفة العظام فيها، وقف احتراقاً يتأمل الظل الضئيل الذي يقترب ببطء حتى رآه:

. فردخاي.

. أمي.

. أقابلت السيد يورام؟

. رأيتك تربتين على مؤخرته.



. دماؤه مملوءة بالدهون كالخنزير.

ابتسم مُردخاي والنقط يدها اليابسة ثم خرجا للباحة الخلفية. أجلسها إلى المائدة وجلس بجانبها:

. ضاق صدرك بحينا يا مُردخاي.

قيل يدها:

. سامحيني يا أمي، إدارة أمور القصر تشبه تنظيم خلية نحل.

. الشجرة التي تقصر جذورها يسهل قطعها.

. لن أخيب ظنك ما حبيت.

ثم اقترب شاءول ووضع الصحن الساخن على المائدة وقطع اللحم حتى أعفاه مُردخاي من التّخديم بنظرة فانسحب، انتشى جزءًا طويلاً ليضعه في فم أمه العجوز باسطة راحته في حنو تحت ذقنها المشعر، لاكتها قبل أن ترفع يدها اكتفاء حين أراد أن يزيد، ابتلعت ثم تكلمت:

. منذ أيام عرفت أن شاءول يراود فتاة يونانية، ابنة خالك راته في السوق يداعب خصرها، كذلك بنيامين ابن سيرينا، والكثير من أبناء الحي.

. اليونانيات نَجِدن الغنج، ولهن بشرة ملساء شفافة.

. نهانا بهوه عن لحم الأنجاس، ذلك مذكور في الخُتب التي سنرتها الأثرية. لا أخشى على الأحفاد بعد موتي إلا مغبة التيه الجديد، أن يموتوا بين يدي خير لهم من أن يتدمجوا في الأمميين.

. سيعود الأحفاد لحظائريهم، وسيقرءون كتبهم، لقد بارك الملك الأسفار الخمسة الأولى وتم إيداعها المكتبة، ويجري الآن نسخها لإرسالها مع السفن إلى أرجاء المعمورة.

. باليونانية؟





. في الترجمة قُرصة لمواكية تغيّرات الزّمن.

. نعم، لا يأتي كل يوم ملك يعني اسم جدّه بلُغتنا أرنبا.

. لأجل الزهر نسقي حشائش الخَلق.

. وماذا عن الكاهن؟

. انتهى أمره، لكن اللعين أطلق من الجحيم سهماً أحاول جاهداً تفاديه.

. تسلق الفلق ملامحها:

. أترك أوراقا غير قوائم أسماء ملوكهم؟

. قوائم الجيبتيكا يمكن التعامل معها. فهي أسماء وتواريخ لأسرات حاكمة يسهل الطعن فيها، لكن آخر ما كتبه

كان شيئا مختلفا، شيئا مخيفا.

. تلبّثت حواس العجوز فحفظت عيناها رغم الضعف. أكمل فردخاي.

. الجيتانا، سيرة البلاد فيما قبل الأسرات الحاكمة. نبشأه الخلق وتكوين مملكة الجيبتيين، قصة بيهم إدريس ومتون

الحكماء الأقدمين، مَرورا بقصص رسل السّماء. وزمن الجلود.

. موسى؟

. ذلك الجزء الأخير مفقود من الجيتانا، كتبه بنفسه ولم يمله على أحد، ثم أودعه خزانة من خزائن المكتبة الكبيرة.

. كيف عرفت أنه كتب ما كتب؟

برديات الجيتانا بدت مبتورة الترقيم، وبين الكلمات إشارة لسفر يُسمى «التّصحيح»، لم أجده بعد الفحص، كما أن لي

في المعبد أعيننا مترصدة أخبرتنني أن مانيتون كان يسافر ليودع بعض كتاباته رفوف المكتبة.



. قل إنك عثرت على تلك البرديات.

. البرديات لم تغد في المكتبة.

امتقع وجه راعوث فأعطى مردخاي القرصة لأنفاسها أن تنتظم.

. هناك كاهن بمعبد الأسوار السبعة، افتحم المكتبة وسرق البرديات.

زاعت عينها فاستطرد مطمئناً:

. أغلقت منافذ المدينة جميعها، لن يستطيع مني هرباً.

. هل عرف الملك بأمر الجزء المفقود من تلك الجبتانا؟

. لا تصل بردية إلى يد الملك قبل أن تمر بين يدي.

. أهل البلاد إذا امتلكوا نسخاً من أحقاد مانيتون فسيتداولونها وسينشرونها كالنار في الهشيم.

. من يتفن القراءة منهم قليلون، والخط هيراطيقي، ولن يعينوا بحكايات بائدة عن نبي لا يعرفونه؟

تحاملت العجوز وقامت، مد يده إليها مساعدة فأعفته، اقتربت من ماعز صغير يرقد في ضعف، فحصته بحثاً عن علته:

. الكهنة يحملون لنا من الكراهية أضعاف أهل ذلك البلد.

. سأدرك الفأر ولو في القبر.

. آه، ها هي...

وجدت العجوز شوكة صغيرة في القائمة الخلفية للماعز فأخرجتها بأظافرها ثم دفعته فقام، أردفت:

. إذا عرف ذلك الكاهن القراءة والكتابة، واقتحم المكتبة، فليس بكاهن عادي.



. حراسي يسعون خلفه في...

قاطعته:

. كما لم يكن مانيتون كاهنًا عاديًا، لم أر في حياتي المدينة من هو أكثر جرأة، لن أنسى يوم قرع هذا الباب ووقف أمامي بكل تكبر يصرخ بأنني أحمل روح «ست» في جوفي، وأنني أثقت سموهي في بلده المزعوم. أوشك شءول أن يطعنه لولا وجود شهود من أهل البلد. منذ تلك اللحظة وأنا أعلم أن ثعيان المعبد يريد أن يستبق ضربة يجهض بها تاريخنا وملاحمنا التي تكيدنا العرق والدم من أجل تدوينها.

. ما أمره إلا كناسة عهد ولي.

. لينيش قبره ويدنس جسده ولينكح امراته جمار من بعده.

هز رأسه مؤمنا ثم دس الشوكة في اللحم وأردف:

. ستدفن أفكاره في إناء أمعائه، هيّا تناولني طعامك.

أشاحت بوجهها:

. اللحم نبيء.

ابتسم مردخاي ثم أجلسها:

. استريحني، سأذهب لأخبر شءول.

في المطبخ انهمك شءول في تنظيف الأواني حين دلف مردخاي التفت فمسح يديه في ملابسه تحفيها وأحنى رأسه احترامًا.

. اللحم نبيء، كان بحاجة لدقائق إضافية فوق النار يا ابن شقيقتي.



. اغفر لي يا سيدي، سأشوي قطعة أخرى.

خرج مُردخاي فرجع الفتى لأوانيه، لحظات واندفع ناحيته كسهم قارق قوسه، كمّم فم شاءول ببساره ورشق الشوكة في يمينه، صرخ الفتى فجثم مُردخاي فوق ظهره بعدما أسقطه أرضاً، اقترب من أذنه وهمس:

. أتعلم يا شاءول، لحم الكهنة لا يختلف عن لحم الماعز، يحتاج وقتاً كافياً لكي ينضج.

من بين الأصابع حاول شاءول أن يصرخ، أردف مُردخاي:

. تترك ذبيحاً يخط بدمائه الكلمات على الأرض كطفل يلهو، ثم تأتيني ببرديات ناقصة؟ الآن عليّ مطاردة فأر نجح في قراءة ما كتبه الكاهن ولم تلاحظه، أي إحقاق أرى في حفيد سيّدة الحي! اصطفيك على شباب الإسكندرية لتصارع الملك القادم، أردت أن يكون لك شأن يا أحمق، لو علمت جدتك بتقصيرك لقتلتك بيديها، الزم البيت ولا تتحدث لمخلوق حتى أقرر أمرك.

قالها مُردخاي ثم أدار الشوكة بين العظام.





قرب الفجر هدا الصُخب في حانة بيلوس، ترتج البخارة مغادرين وتلاشت الفتيات بعد أن تركن وراءهن عرقاً وعطورا وبقايا ضحكات، لملم الساقبي كنوسه ليضعها أمام كاي، غسلها بهمة ثم انزوى في ركن، استلقى للحظات حتى سكنت أطرافه وانتظمت ضربات قلبه، أشعل شمعة ثم سحب البرديات من وراء البرميل وقصّها، تعرّف خط سيّده مع أول كلمة، له صفة مميزة في ليّ أطراف الحروف كأنها دبول القردة، استخدم عوداً رقيقاً من الغاب وحبراً أسود، «سفر النصحيح» ذلك كان العنوان، مكتوب بالهيراطيقية، وليس باليونانية كبقية الجيتانا، اللغة الكهنوتية القديمة التي لا يحفظها إلا كتبة المعبد ويتوارثونها، آخر ما تبقى من العهود البائدة.

ابتلع كاي ريقه وقرب الشمعة حتى لمع الحبر في الصفحة قبل أن يبدأ في فك الخط.

«عشت أنا مانيتون في معبد سمنود ذي الأسوار السبعة، تعلّمت وعلمت وأنقنت لغات كثيرة، صرت كاهناً أكبر وأنا ابن ثمان وعشرين، ولم أذق سمكاً في حياتي ولا لحم خنزير، تعلّمت وعلمت في معابد الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها، أنقنت الخطوط الجيبية، كما أنقنت الإغريقية والفينيقية والآرامية والعبرية، وطوّقت على معابد الإغريق والأدوميين، ومعابد فينيقيا وبيلوس وهاران، اطلّعت على كتابات والواح الكثير من الشعوب وعلى كافة المتون التي أرسلها الإله فدّونت على الأحجار المقدسة والجدران والبرديات.

هأنذا أعيش أيامي الأخيرة ما بين الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها ومعبيدها، وبين سمنود ومعبيدها الهادئ





ذي الأسوار السبعة، أكتب الجيتانا ملتزمًا بتوجيهات إدريس الذي أتاني في رؤيا وأمرني بتسجيل أسفار التكوين والخلق الجيتية من قبل توحيد المملكة.

أنا مانيتون أقر بأن الجيتانا هي التاريخ الحقيقي للسلالة الجيتية، كما أقر أن ذلك السفر الذي أسميته بـ «التصحيح» ربما يكون آخر الأسفار التي سأكتبها، وأشدها خطراً على حياتي».

سرت رعدة في جلد كاي ونشع العرق في جبينه فاعتدل، لقد نبأ الكاهن الأعظم بنهاية حياته؛ قام من مكانه وتفقد الحانة، وجدها نائمة فعاد إلى الركن فكملاً القراءة على ضوء الشمعة:

«اليوم أدركت أقول نجم إيجيت، إلى وقت غير معلوم، فقد ظلمت روح «ست» الشريرة عرش الملك، فتمثلة في جسد فردخاي اليهودي، رئيس الخاضة الملكية، استطاع سليل الأفاعي بدهانه ودعم شيوخ حي «دلنا» إقناع الملك بترجمة أسفار التوراة من العبرية إلى اليونانية، التوراة التي تناولت تاريخنا نحن الجيتيين بالتمزيق والتشويه المتعمد، بغرض تحميل إيجيت ذنباً شنيعاً لم نفترقه. ناشرين المرض في أرضنا ليتهلكوا ما تبقى من مجدنا فتسقط بأحقادهم أعمدتنا العتيقة وتطمس آثارنا تحت الرمال، لذا، وبعد أن تلقيت إنذاراً بالقتل في رسالة مليئة بعظام الفئران، قررت أن أكتب الحقيقة لأفيد الإفك الذي سينتشر من بعد تلك الترجمة، فعمداً على البردية التي عثرت عليها بمعبد الملك «أحمس»، المنسوخة من البردية الأصلية التي دفنت في مقبرة الملك الصغير بالوادي الغربي، عن حقيقة الأرض التي أرست قواعد الحياة وأقامت دعائمها، الأرض التي صارت جسداً بلا روح، معبداً كبيراً بلا إله، مرتعاً لحشود أسرى من الرعاة الشرقيين لا ملة لهم إلا نسخ الأمم ونهب أفكارها، أتوا إلينا في ذلة ومسكنة، حاملين على ظهورهم ذكرى بطش مزعوم في بابل، وحكايات ملفقة جمعوها من أساطير الأمم البائدة التي توغلوا في أرضها، تلوّنوا بألوان الناس فيها حتى تمكّنوا، ثم انغرسوا في الجسد المنهك كدود المستنقعات، امتصوا الذهب والعقول واضطبعوا بهيئة من آواهم ليكرسوا لفكرة ملعونة تهدم العقول وتخل بكفتي ميزان العدالة في سماء الراعي، فكرة استولوا فيها على بركات السماء دون غيرهم، فكرة تقول إنهم «شعب الإله المختار» وإن من دونهم أعيار، لا روح فيهم، ولا حياة يستحقونها، إلا عبيداً في أراضيهم وتابعين.





لقد اطلّعت على كتب أخبارهم الخمسة في معبد لهم بسورية، ثم علمت بنية ترجمتها إلى اليونانية السائدة، وإني لأشهد الجيبتيين. إذا كتب لسيفري هذا أن يظهر إلى حيّر الوجود. أن بني إسرائيل فرزوا سير رسل السماء الأقدمين واستحوذوا على نسل آدم، أول من ملك اللغة من سلالة البشر، ثم نسل نوح، استأثروا به واستبعدوا كل من عداهم من البشر، سفّهُوا أصولهم وُلطخُوا سيرتهم واستولوا على بركة إلههم المزعوم يهوه الذي ادعوا أنه أغرق الأرض كلها في حين لم يطل الغرق سوى قوم نوح، فكيف يغرق الراعي الأرض بمن عليها من أجل حفنة من العصاة؟ وما ذنب الذين لم تاتهم الرسالة؟ وما ذنب الجيبتيين الذين اتبعوا إدريس؟ لم لم يغرقوا وتغرق أرضهم ومعابدهم القائمة؟ وكيف لمركب ما صنّع قبلها مركب، أن يحمل دواب الأرض كافة؟

ولم يكتفوا بذلك، بل استأثروا بنسل «سام» من بين أبناء نوح وادعوا نسيه، ولعنوا أخاه «حام»، واستبعدوا سلالته فأورثوها الخزي والعار، وسودّ ربهم يهوه بشرة بعضهم وهم ساكنو جنوب الأرض المعمورة ليسهل استعبادهم وتسخيرهم دون ندم، ثم استبعدوا إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم وهاجر، ظمّسوا ذكره رغم بكوريته ومجدّوا اسم أخيه إسحاق، ثم باركوا ابنه يعقوب الذي دعوه زورا في قصصهم بإسرائيل لينسبوا أنفسهم إلى نسل رسل السماء.

إن التوراة لم يكتبها نبيهم موسى، إنما كتبها «عزرا» حاخام عاش بعد موسى بثمانمائة عام، كتبها أثناء عزو البابليين الذي اجتاح المشرق قبل أن تحررهم الملك الفارسي «قورش الأخير». روى خالها أخبار الأمم البائدة فأسهب في الحكى عن ممالك صغيرة لم يقدّر لها وجود، أو لم توجد من الأصل، بينما أتت أخباره ضحلة ضئيلة حين حكى عن بلد عريق مثل إيجيبت الذي لم يدخله يوما، فلا يسعه التفرقة بين رعمسيس وتحتمس، أو الملكة حتشيسوت وملكة سبأ. يروج الاقتراءات لابتداع تاريخ مزيف عريق لقومه الهائمين بحثا عن وطن، بالوإح تحوي عبارات لا يمكن أن تصدر عن نبيهم موسى، ففي الآية السادسة من الإصحاح الرابع سفر «التثنية» يتحدث موسى عن نفسه قائلا: «لا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا». وفي الآية العاشرة من نفس الإصحاح قال أيضا: «ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه «يهوه» وجها لوجه». وفي الآية الثالثة من الإصحاح الثاني عشر من سفر «العدد» قال: «فأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض».



إنني مانيتون السمنودي، في السنة الخامسة والثلاثين من حكم ثاني الملوك بعد الإسكندر بن فيليب، أشهد الأجيال الآتية أن اليهود قد نقلوا إلى توراتهم حكم وتعاليم المتون المقدسة التي نزلت على المعظم ثلاثاً «إدريس» بإيجيبت، بعدما أنكروا أصلها ونسبوها لأنفسهم، ثم أضافوا وحذفوا منها ما شاءوا، غير مستحيين الخلط بين دين الإله وبين أحقاد صدورهم، بين التاريخ الحقيقي وبين ملاحم منهوبة من الأمم البائدة، يلوون عنق الأخبار لتتماشى مع ما يقولون، ثم يتحاكونها فيما بينهم ليرفعوا من همم شعبيهم بعد هزائم متلاحقة بسبب ضعف إيمانهم وخياناتهم المتتالية للأمم الحاضرة لهم وللراعي في السماء، وليغزوا إيجيبت ثانية، كما غزوها من قبل مع غزاة الشرق من الرعاة.

وقد نويت بعد تدبر وتفكير أن أسرد في سفر «التصحيح» القصة الأصلية التي لم يدونها في توراتهم، القصة التي نشين شيوخهم وتغند فبح ماضيهم، القصة التي حفظها الملك «أحمس» في معبد أبيدوس قبل وفاته، وأمر بدفنها في مقابر الملوك من بعده، قصة رجل ولد في أرض إيجيبت المحتلة من الرعاة.

رجل اسمه موسى.

انتهت أول بردية فشنخ كاي بنصره في السقف القريب، لم يكن قد رار الإسكندرية يوماً، إلا أنه يعرف جيداً خطوة اليهود فيها، يعرف أنهم النعابين تحت عرش الملك، ديدان الربى التي تمتص الذهب والفضة، ويعرف أن قتل كل نفس عداهم هو حجر في طريقهم مشروع إزالته، أو تحطيمه إذا لزم الأمر، لقد ذبح معلمه في قدس الأقداس قربانا لإلههم، ما كتبه عنهم يحوي حقيقة استلزمت أن تدفن في بئر سحيقة، الغريب أنه لم يسمع من قبل عن ذلك الرجل المدعو موسى، لم يقرأ بردية عن قصته أو رأى نقشاً يحذر في معبد يحكي عنه، أما الرعاة فما هم إلا بدو غزوا إيجيبت محتلين، استقروا في الشمال لمائة سنة أو يزيد قبل أن يحاربهم الملك «أحمس» فيطردهم، لم يهتم الكاهن الأعظم بنسخ تلك القصة؟

.تعرف القراءة؟

بتر الصوت تدقق أفكاره فانتفض، ناديا كانت تقف خلف براميل النبيذ، طوى إضمامة البرديات بالحزام فاقتربت منه خطوة، أجاب:



. أعرف القراءة والكتابة.

ابتسمت:

. وتخشى الكلاب.

. في بلدتي نعرف لغة التماسيح، أما الكلاب الإغريقية فتتحدث لسانا آخر.

ابتسمت:

. أتعلم في أملاك أحد الأثرياء؟

سكت لحظات قبل أن يجيب:

. بل كنت يومًا كاهنًا في معبد.

. هيلتك لا توحى بكاهنًا

. غائب عن معبدي منذ وقت طويل.

. ماذا تفعل في إليوسيس؟ أرض العسل واللين والقاذورات.

. أبحث عنك.

ضيق عينيها:

. كاهن يخوض أرقعة إليوسيس ليجث عن فتاة لا يعرفها؟

. عاهدت أباك أن أفعل بعدما أنقذ حياتي.

. في المستنقع؟



. إنها الحقيقة.

. لم أكن أعرف أن الكهنة يكذبون!

. أنا لا أكذب؟

. أنت هارب من شيء ما.

. ربما ابغي عزلة.

انحنيت ففتحت صندوق برميل النبيذ فندفقت السائل القاني إلى قممها. رشفت رشفة ثم تأملت البردية المدسوسة وأردفت:

. ماذا عن تلك البرديات؟

. ابتهاالات للرب.

. لم تخفيها؟

. إنها النسخة الوحيدة المتبقية من أوراق كاهن غادر عالمنا.

تأمل وجهها في زرقعة الفجر التي تسرّبت إلى المكان ثم استطرد:

. تشبهين أمك كثيراً.

. كيف تقول ذلك ولم تعرفها؟

. ليس في أهلك وجنتك العاليتان وشفتك الممتلئتان. سمات لا تورثها إلا أنثى لأنثى.

دار الألم في قسماتها:

. شيء طيب فعلته قبل أن ترحل عني. لكن منذ متى يعرف الكهنة أسرار الوجوه، والشفاه؟



كاد كاي أن يتلعثم.

. أبي كان قاصداً للأثر وعالمًا بفراسة الوجوه والأجساد، يستطيع معرفة نصف حياتك من خطوط كَفِّك ومن عينيك.

. لن يسعده النظر فيها، سيرى ما لا يسره.

. حزن دفين!

. لا تدقق النظر فإنه مُعَد، فما اقترفته أمي لا تفترفه الخنازير.

. تركت أباك من أجل رجل آخر؟

. تركت أبي من أجل كل الرجال.

أغمض كاي عينيه في ألم.

. هل تلوين لقاء أبيك؟

. هل حكى لك لماذا تركني؟ وكم كان عمري؟

. لقد ارتكب فعلته من أجلك، إن عاد لكان مصيره الموت لا محالة.

. أن يموت من أجلي خير لي من أن أعيش عمري لا أعرف ما حل به، لم يفكر في لحظة.

. بل يفكر فيك كل لحظة.

. وبسهولة يطلب لقائي؟

. ما تبقى من عمره يشفع له.

عمرها الصمت للحظات:



. خُروجي ليس بالأمر الهين.

. ليصحبك آرام إن أراد.

. لن يترك مكلبته الأثيرة في الأرض الشرقية، ولا حانات إليوسيس التي قضى فيها عمره.

. أهو يملكك؟

. عشقي فيه ضارب للحدور، يخاف علي أوراق الشجر وأمواج البحر، وأعين الرجال، لولا آرام لصرت عاهرة من عاهرات

الدكترياديس حتى أملك قوت يومي.

. تتكلمين عن عشقه ولم تذكري حبك له.

. أنا أحب آرام.

. لم لم يتزوجك؟

. تقاليد صارمة؛ فاليهود لا يتزوجون الجيبتيات.

. لكن مضاجعتهن مباحة؟

. نظرت إليه في غضب:

. أنت وقع.

. لم أقصد إساءة.

. وماذا يعرف كاهن خصي عن حب النساء؟

. عشق الإله لا يقل عن عشق النساء.

. تعتزل الناس خلف أسوار عالية، تزهد وتتعبّد حتى تناجيك النجوم، ثم تدّعي معرفة عشق النساء! أيها الكاهن،





إلهك لا يعرف عشقا، إلهك ظالم.

ابتسم كاي.

. تبدين غاضبة منه.

. سيد فوق السحاب يتسلّى برؤية عبيده يتعذبون.

. إنه اختبار القلوب.

. ولم لم يختبرك كما اختبرني؟

فلنت من كاي ضحكة.

. أنت لا تعرفين قصتي، بل ولا تعرفين اسمي.

اهتزّت قدماها في عصبية.

. أنت أذكى من أن تكون كاهنا بمعبد، وأضعف من أن تفهم فسوة الحياة.

. تحملين ضغينة نحو الرب، وتنسين أنك واحدة من أبنائه.

. لست ابنة أحد، أنا ناديا، أبرع راقصة وعارفة ناي في اليوسيس. الرجال كالطيور تتساقط أمامي، وأجمل نساء

الإسكندرية يحسدنني.

. وأنا كاي، كاهن بمعبد.

نظرت إليه للحظات قبل أن تضيق عينيها:

. قد أفكر في لقاء أبي، بشرط، عليك أن تقنع أرام.

رفع كاي حاجبيه:



.ولكن...

قاطعته:

. تخافه؟

. قلبي لا يعرف الخوف إلا من الأثام

. حسناً، تستطيع ردّ جميل أبي ببعض المجهود.

سحب كاي نفساً إلي صدره ثم هز رأسه:

. موافق، ولكن على شرط.

...؟

. أريد، برديات، ومحبرة وبوصة للكتابة.

. ما تطلبه أسهل بكثير من إقناع أرام.

. للكهنة سحر يؤثر.

. حسناً أيها المتحذلق، أمر أخير. لتحفظ بأمر زيارتي لك سرّاً، فأرام يغار من كلابه علي.

قالتها ثم رحلت، بغضبها وغرورها وشعرها الهائم حولها، رقد مكانه يحكّ جبهته وفروة رأسه التي لم يعتد طول الشعر فيها. يحتر حديث ناديا وانفعالات وجهها. روح نارية مضطربة. ثانرة كعاصفة تحرق الوجه وتسليخ الصدر، مغرورة، ولها كل الحق، فعيناه لا تتذكران أنّ لفحها يوماً لون في لون جلدها. أو شفتان كشفتيهما، أو قوام نحت الرقص انحناءاته وأبدع، كقوامها.

مهلاً.



قالها لنفسه ثم ابتهل استغفاراً وهي تتمايل مبتعدة. تذكر أنه ولأول مرة لا يخفض عينيه عن جسد أنثى. ثم باغته وجه عشيقها وهو يزجر فيه تهديداً ومن ورائه كلبه. تصارعت الشفقة والعجب مع اشمئزاز من الرضوخ والإذعان الذي يكئه صدرها ناحية هذا العشيق الغاشم. لم يكن ينقصه الاحتكاك بمثل تلك الأرواح المضطربة لتزيد عقله تخبّطاً وإرهاقاً. فتسارع الأحداث يكاد يعصف به رغم ضبط نفس مارسه لسنين أمام شموع المعبد. لأول مرة يشعر بعثمة الساعات المقبلة. بعد أن كانت أحداث أيامه تكاد تدون على جدران المعبد من فرط التكرار. كابوس هو التحرر من استيقاظه المبكر. السقاية. التنظيف واستقبال حاملي القرابين. الصلاة من أجلهم. ثم نسخ المتون المقدسة حتى هبوط الليل. قبل أن يخلو بنفسه لساعة التأمل. تلك الساعة التي يلتقط فيها همس الملائكة. رغ وأمون وتحت وبتاح. ساعة يتحد فيها جسده مع الحصى تحت قدميه. وأبعد نجم تراه عيناه. ساعة لم يعد يملك ثرف العودة إليها. علا صوت أفكاره حتى كاد يوقظ ساقى الحانة. فانخرط في صلاة طويلة نظم فيها أنفاسه وخس هواجسه حتى هدأت روحه واستسلمت جفونه لإغفاءة إجبارية احتضن فيها البرديات.





ترنح شاطئ الإسكندرية ابتعاداً حتى تلاشت القصور البيضاء والفنار. يوم ونصف يوم في عرض البحر قبل أن تلوح «بيبلوس» في الأفق. مدينة ساحلية تناثرت فوق تلالها أشجار الأرز وعلى مياهها مراكب الصيادين. بأمر الرّيان رفع البحارة الأشرعة وألقوا مرساة عملاقة طمأت السفينة فوق المياه. في الغرفة العليا جلس مردخاي فوق أريكة مريحة بجانب النافذة. ساكنًا يراقب شاطئ المدينة التي تؤمن لإيجيت الأخشاب لبناء السفن والمعابد. مقابل الأواني والخلي الذهبية ولفائف البردي ونسيج الكتان.

بعد دقائق برزت في الأفق سفينة تحمل شارة بطلميوس الثاني. ضربت بمجاديفها الموج حتى أصبحت على بُعد أذرع فمد البحارة جسراً خشبياً مرّ فوقه «اليعازر» رئيس كهنة أورشليم. رجل تخطى العقد السابع. على رأسه شال مخطط وفي يده عصا عاجية المقبض. استقبله مردخاي بحفاوة وإجلال ثم أجلسه إلى مائدة. تناولا غداءهما قبل أن يصرف الخدم. ثم أشار مردخاي إلى خزانة خشبية كبيرة بجانب قدميه وهمس:

. في هذه الخزانة عشرون تالنت من الفضة وتالنت ونصف من الذهب. جمعتها جالية الإسكندرية.

. كل تقدير لأهلنا في حي دلتا ولابن أورشليم البار.

. سفينة المترجمين ستصل مرفأ بيبيلوس غداً. تلقى كل مترجم خمسة آلاف دراهماً وهدية. أرجو أن يكون ذلك كافياً كي لا تتناثر الحكايات حول فترة إقامتهم بالإسكندرية لترجمة كتبنا. لا أخفيك خبراً فإن كرش رأوبين لا تبدو من النوع



الذي يمتلئ، أنا لا أثق في رجل نهم.

ضحك إيعازر:

. رأوبين تمساح وديع، عاشق للطعام، لكنه صموت.

ساد الصمت لحظات فاستطرد إيعازر:

. لقد وردني خبر مقتل الكاهن الجبتي في المعبد.

. حادث مؤلم.

. كيف استقبله الجبتيون؟

. ستكون جنازة حارة ثم ينسون أمره. الجبتيون مشغولون باللهات وراء حلم المواطنة بالإسكندرية: مدينة الأحلام.

. الجبتيون قلوبهم سوداء، لا أظنهم سيتقبلون يوماً قربنا من العرش.

. الشيوخ فيهم ينسوا. أما شبابهم الذين لا يزورون حي العاهرات فإنهم يسعون إلى خنف محتوم بأيديهم العشيمة.

. أتقصد... ثورة؟

ابنسم مردخاي.

. حين تصطاد السمك ضع الطعم في الخطاف وألقه إلى المياه. دقائق وتنجذب السمكة إلى الرائحة والحركة. تبتلع الطعم وينغرس الخطاف في حلقها فتستشعر مقاومة في الخيط. اجذبه برفق. تقاوم السمكة وتبتعد. اترك لها الخيط حتى تظن أنها أفلتت. ثم اجذب الخيط برفق فتعود للمقاومة. ثم اترك الخيط. ثم اجذبه واستمسك بالمسافة. مع كل حركة مقاومة منها ينغرس الخطاف في حلقها أكثر فأكثر. حتى تصبح على بعد أذرع منك وقد خارت قواها. في تلك اللحظة الفارقة، تقبضها إليك.



. تترك الجيبتيين ينشدون حُرْيَةً لن ينالوها.

. بل سيخنقون أنفسهم بها خنقًا، هؤلاء الرّاع لن يردّعهما عنّا سوى طُموح غشيم يسليهم كل أمل، طُموح يُسمّى،  
الحرية الكاملة.

. الحرية الكاملة هي الفوضى العارمة.

. الآن فهمت.

ثم ازداد همس مُردّخاي همسا:

. منذ سنوات ورجال حيّ دلتا لا ينامون. يعيشون بين الجيبتيين في الحانات والشوارع كأنهم منهم، يزكون فيهم  
المساواة والعدالة، ويعظمون أعلامهم في الاستقلال. مع الوقت تأجّت بداخلهم الخصومة مع الإغريق، وما إن  
يستنسّق الرّاع بصيص الحرية...

أردف إليعازر مكملاً:

. حتى يمسخوها فوضى.

. سيصبحون كحيوانات مخمورة تنزع في شوارع المدينة، قبل أن تشتعل بينهم وبين إحدى الجاليات حرب.

. لكن الحرب قد تكون مع جاليتنا

. إذا أردنا أن تكون لنا قدم في العالم الجديد فإن علينا أن نبذل الأنفس.

. والملك...؟

. لن يملك وقتها إلا التنكيل بهم كي لا تنقوض دعائم العرش. هم في النهاية العدو بلا مرأى، وهو لن يخسر يهود  
الإمبراطورية.





. لكن الجيبتيين ذوو بأس وعدد.

. كلاب تنبح بين قدمي فيل، سيسحقهم ولن تقوم لهم قومة بعدها، سيدخلون جحورهم في راقودة ويشكرون ربهم على ترف الحياة.

. بعدها نحصل على المواطنة الكاملة؟

. بعدها ستحكم التلنات الذهب المكسدة في حي دلتا، وسيحكم الملك من سفينة سنكون نحن يحارثها الوحيديين، ستخضع إيجيب، وترقع سورية، وتسجد بابل.

قام مُردخاي والتقط من فوق منضدة قريبة إصمامة بردي، وضعها بين يدي إليغاز:

. تلك ثوراتنا الجديدة، مترجمة إلى اليونانية، احرص على نسخها ونشرها بين الأمم، ولا تلتفت لما فيها من إصلاحات، فلعل عصر قواعده، وهي السبيل إلى استمرار قدمي يهوه فوق هذه الأرض.

ابتسم الحاخام وربت على كتف مُردخاي.

. كلما نظرت في عينيك رأيت وجه أبيك، لو كان على قيد الحياة لأصبح فخوراً بابنه.

. يكفيني فخراً خدمة أبناء عمومتي.

ودع مُردخاي كاهن أورشليم قبل أن يلح شاءول ابن أخته، جالسا القرقصاء في ركن السفينة ينظر إليه في رجاء، رفعه للحظات ثم أشار إليه أن يتبعه، في الغرفة أمره بالجلوس بعد غلق الباب، نظر إلى يده المضمدة ثم تكلم:

. كيف حال أمنا؟

. بخير حال.

صب مُردخاي لنفسه كأس نبيذ، تجرعه ثم تكلم:



. منذ أيام سرق كاهن من معبد سمنود بردية من رفوف المكتبة، رئيس الشرطة أغلق منافذ الخروج من المدينة ويمسح الآن حي راقودة، بيتًا بيتًا، يظنها أيامًا حتى يخطئ الفتى ويتخذ طريقه في البر أو البحر هربًا، إلا أنني لا أعتقد ذلك، ولا أظنه سيحاول الخروج من المدينة، فالفتى قاص أثر، ذو فراسة، وكاهن مقطوع للعبادة، منذور لخدمة رب لا يراه، لا أظنه سيختبئ في راقودة وسط الجبتيين، أو يلجأ لمعبد يسكن إليه، أظنه سيئجه شرقًا إلى حيث لن نفكر.

. إليوسيس؟

. أرض مزدحمة تنتهي بالمستنقعات، ملجأ يخلو لكل هارب ينشد الاختفاء.

. لم اخترتني لمهمة أخرى بعد أن أخفقت؟

. عليك أن تنظف فوضاك في معبد الأسوار السبعة. واحذر، فصدري لا يتسع لخطأ ثانٍ. حتى وإن كنت ابن شقيقتي.

سحب شاءول نفسه لم يخرج، فأردف فردخاي بعد صمت.

. كاي اسمه، في كتفه جرح من نصل حربة، وآخر في معدته من سكينك الخائب الذي تركته في المعبد، أخضر لي البرديات، ورأسه أمامك ثلاثة أيام. واحذر، فهو وإن كان كاهنًا لا يقوى على المصارعة، إلا أنه سريع الحركة شديد الذكاء.

هز شاءول رأسه في تصميم وافترشت الحدية ملامحه فانسحب نازحًا فردخاي يرنو ببصره إلى بحر لا نهاية له.





«استيقظ»

سمعتها كاي بصوت الكاهن الأعظم فاستقضى واقفاً وسط براميل النبيذ. تلفت حوله. اتخذ دقيقة حتى تذكر ما الذي أتى به لذلك القيو. ودقيقة أخرى ليسترجع ما حدث في الأيام الماضية. اطمأن على البرديات في مكانها ثم قام يتفقد الحانة التي اقتحمها الشمس من كل اتجاه. الساقى كان مشغولاً بمسح المناضد تحضيراً ليوم صاخب. دون أن ينظر إلى كاي تكلم:

. يقولون إن النوم وسط براميل النبيذ يجلب أحلاماً وردية.

. اسمح لي بمساعدتك.

لم ينتظر كاي جواباً. التقط ممسحة ودلوا وانحنى ليمسح الأرضية. تأمله الساقى للحظات:

. ما قصتك؟

. لا قصة لي.

. أكره أصحاب الأسرار.



. رجل فقير ضاق به الحال في بلدته فجاء إلى دُرّة التاج يبتغي رزقا.

. الهوام تقترب من النار ظناً منها أنها جسد الإله، حتى تحترق.

. لا أنشد إلا الكفاف.

. فمك يتكلم كالكهنة.

. ابتسم كاي في أسى.

. يا ليتني.

. كلهم يقولون ذلك في البداية، حتى تنخم بطونهم بالشراب وصدورهم بالعشق فتنتطلق الأمانى ويرتفع سقف الأحلام.

. لا وقت عندي لعشق أو خمر.

. أما الخمر فهناك من الناس من لا يالفه، لكن العشاق لا يستأذن في الولوع إلى الصدور، إنه يفتحها.

. إنه لعار أن يمتلئ الصدر بشيء غير العلم.

. أرفق الساقى ساخرًا:

. وأين ستبتغي العلم أيها الجيتي؟

. ربما في «أون»؟

. ضحك الساقى:

. أون؟ لم لا؟ طموح يحمد بالنظر إلى هيئتك المزرية.

. تملل كاي في مكانه:



. ألا أعمل عندك فتأجرني وجيتي وبيات الليل في غرفة؟

. أوافق، إن وعدتني بتجنب فتيات الحانة؟

. أعدك باسم الإله، أين سأبيت؟

. في غرفة الخزين بالدور العلوي.

ثم ابتسم الساقى:

. لا تبدو لي من محبي الرجال.

. لا رجال ولا نساء.

. وماذا عن ناديا؟

. كنت أحمل رسالة لها وانتهى الأمر.

ابتسم الساقى فعقب كاي:

. وهي ليست من النوع الذي يروق لي بأي حال من الأحوال.

. لم لا تقول له السبب الحقيقي لثقتك في وعدك؟ أيها الكاهن!

التفت كاي فوجد ناديا وراءه. اقتربت والتحدي في عينيها. وضعت دواة حبر في راحته وقلما من البوص وأوراق بردي قبل أن تبتعد.

. انتظري.

قالها كاي فتوقفت، اقترب منها هامسا:

. لم أكن أعني...



لم تمهله:

. أيًا كان ما تفعله احرص على ألا يعطلك عن وعدك الذي وعدتني. فالرب ورجاله هم أكثر من خذلوا ابتها لاني.

غمزته بعينها ثم رمته برمش اخترق صدره.

استغرق كاي في التنظيف ساعة، وساعات حتى ينسى عينيها وابتسامة السخرية في جوانب فمها. انهمك في حمل براميل النيذ والبيرة وتحضير الفطائر الخفيفة حتى هبط المساء وبدأت الفتيات يتوافدن ألوانًا. تناثرن في الأركان واعتلت بعضهن منصّة نفخ فوقها النايات في نغمات أسرة نادت البحارة من كل صوب. اقتحموا الحانة في وفود حتى صخب المكان. انهمك كاي في الخدمة بأعين لا تواجه ولا تصطدم. نهره البعض في فورة سكر وجازاه البعض بدراخمت معدودات دسّها في ملايسه وعيناه تترددان على باب الحانة في انتظار. متجنبًا سؤال نفسه عن سبب الترقب. وتلك السخونة التي خلفتها ناديا في صدره. حتى خلت القاعة وهذا الصخب فاقترب من الساقبي. أخرج ما جمعه من نقود ووضعها أمامه. نظر إليه مندهشًا:

. أنت مخبول. أو كما قالت ناديا. كاهن!

. هذا حق الحانة. وقد اتفقنا على المبيت والطعام فقط ولم نتفق على الإكراميات.

هز الساقبي رأسه ثم سحب النقود. ابتعد كاي قبل أن يرجع.

. ألن تأتي ناديا اليوم؟

. إن لم تر آرام فلن ترق ناديا. سمعت أنك تعرف أباها.

. بلي. تقابلنا.

. في المستنقعات؟

نظر إليه كاي بدهشة فأردف:





. عند الساقى تنصبّ الهموم والحكايات، أتتوي أن تتبحر لناديا رؤيته؟

. هكذا وعدته.

ابتسم الساقى:

. أيها الغريب، روحك تشبه الكحول: سريعة التبخر، أنصحك بالنزول على الأرض، فأرام طفل طيب رغم المظهر، له نصف عقل، وأمه مخبولة، عقلها بين أصابع الرب. يحبسها في بيتها كي لا تتعري أمام الناس، ليس له في الحياة إلا الكلاب وتلك الفتاة، إن بلغت رسالتك فلتصمت، أو ترحل، فالجيبتيون لا دية لهم في تلك المدينة.

نظر إليه كاي ولم يعقب.





أيها الكتب المقدسة التي كتبتها يداي، فلتبقي محفوظة من أثار الزمن ومن عبث العابثين، ولتبقى خفية عن أعين  
من لا يستحقك، ولتبقى بعيدة المنال، إلى أن يأتي الوقت الذي تظهر فيه أجيال جديدة بهذا العلم.

من كلمات المعظم ثلاث مرات

«إدريس»





في غرفة الخزين بالدور العلوي للحانة خلع كاي نعله فتدقق النبض، اغتسل من إناء ثم أشعل شمعة جثا أمامها، تأمل فتبيلتها حتى تلتشى الكون حوله، ثم رتل فتون الخلاص وسبح بأسماء الرب السبعة والخمسين قصفا ذهنه واستقرت عيناه ورعشه أصابعه قبل أن يستخرج الدواة واليوضة، بسط برديات معلمه وشرع في ترجمة ما قرأ ليلة أمس من الهيراطيقية إلى الخط الجيبتي المتداول، بدقة، إذا أراد لكلمات معلمه أن تصمد للزمن وللأعداء، فإن عليه أن يترجمها ويستنسخها بلغة مقروءة، فاللغة وعاء العلم، إن نخرتها النقوب تساقط منها تاريخ الأمم وأحلامها، درس كاي اليوضة في الحبر وأنهى أول صفحة من الترجمة قبل أن يبدأ في فك أحرف الصفحة الثانية.

«منذ ما يزيد على ألف سنة، وفي عهد الملك السابع والثلاثين من ملوك الأسرة الثالثة عشرة «توتيمايوس»، دبت في الشرق مجاعة كبيرة، تصحرت الأرض بسببها ونفقت البهائم فتسلل أصحابها إلينا في جماعات صغيرة، أقوام من البدو يطلقون على أنفسهم «العماليق»، «عامو» وتعني البدو، و«ليق» وتعني الجند؛ أي جنود البدو بلغتهم. قوم شرقيون يرفعون فوق أعناقهم إلها يدعونه رب الجنود، وهم نسل قبيلة من العرب البائدة تدعى «ثمود»، عاشوا بمدينة تدعى «الصخر» بوادي «فاران» قبائل متفرقة تهيم بحثا عن المياه وترعى الماشية، توغلت بمسكنة في جماعات قليلة العدد على مر السنين إلى أرض إيجيب التي لا ترفض ضعيفا، أكلوا من خيرها وشربوا من نهريها الكريم وامتلات بطوتهم فاستقروا، ثم قويت شوكتهم بسبب ضعف يد حكام المدن الشمالية وتصارعهم على النفوذ، لتنهزم جيوش البدو أحلافا عبر أرضنا، استولوا على مناجم الفيروز



والحاميات حتى بلغوا «يم سوف»؛ خليج واسع ضحل تجتمع فيه المياه المالحة الآتية من بحر البوص <sup>١١</sup> جنوباً، والمياه العذبة الآتية من فرع النيل البيلوزي الذي يمتد لأرض الفيروز. حصّنوا مدينة دعوها «هواره» أو «هواريس» بإضافة الياء والسين اليونانيتين، وتعني بلغتهم «المدينة».

ما إن استقر الأمر بالقبائل البدوية حتى نصّبوا «ساليبتيس» ملكاً عليهم، أقام الحاميات العسكرية وحصّن مدينته بخصون عالية عجيبية النيان من الطين المحروق. قبل أن يعبر غرباً مشعلاً المدن وهادماً للمعابد الجيبية ترويعاً وبطشاً. ساق الرجال إلى المذابح وقاد النساء والأطفال إلى الأسواق. نعمة من الإله أصابتنا وملك جيبتي ضعيف ما لبث أن قتل في أول نزال معهم، فأقواس الهكسوس ترمي بأسهم أبعد من أسهمنا، وأحصنتهم رشيقة البطن سريعة العدو. تمرق بين صفوفنا جارة وراءها عربات شيطانية مزقت جندنا وشنتتهم، لتنهال القلاع والتحصينات ثباً في قبضتهم الحشنة. هدّوا سلطانهم حتى شمال «واست» <sup>١٢</sup>، ثم فرضوا جزية على الأقاليم من سبائك وعلات، وخضوع في نسل الملوك الجيبتيين الذين كفّوا عن القتال لضعف قوتهم وخوار عزيمتهم، ثم بدأ جيران هؤلاء الرعاة يتوافدون حين اطمأنوا، قبائل تجمعها اللغة الكنعانية ذات اللكنة الآرامية، توغّلوا شمالاً تحت إمرة «ساليبتيس» الذي توفى ليخلفه «حيان» في عهد هذا الملك ضرب الهزال فرع النهر الواصل لمدينة هواره. كادت القبائل أن تموت جوعاً لولا صوامع القمح التي أقامها ثاني أهم رجل في هواره من بعد الملك؛ وزير الخزانة، يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم النبي. متبع الملة الحديفية الإدرسية. كدّس يوسف القمح لسبع سنين قبل الحذب ليخرج ما خزّنه وقت الشدة. حاز يوسف ثقة الملك فحلب قبيلة أبيه من الشرق، سبعون رجلاً استوطنوا «حاسان» أرض خصبة قريبة من هواره، بعدما أكرمهم الملك وأغدق عليهم من الخيرات كرامة ليوسف.

عاش بنو يعقوب في تلك الأرض الخصبة أعوام رغد ورخاء، تجاوزهم فيها قبيلة بني إسرائيل، الرعاة الذين احترفوا تجارة الحلي، يتقربون منهم ويصاهروهم حتى اختلطت الأنساب والأسماء، متبركين بنسل الأنبياء وحظوتهم في القصر. حتى اعتلى عرش المدينة سادس الملوك الرعاة وقائد أحلاف قبائل البدو، رجل غليظ القلب يدعى «فرعون»، أتى من برية «فاران» متبث العماليق وما لبث أن تصادم بيني «إسرائيل» دوناً عن القبائل التي يحكمها بسبب نفوذهم وحظوتهم لدى الملوك السابقين، وكثرة عددهم واستثنائهم بمقاليدهم التجارة،



ثم زاد الطين بلة حين أتته رؤيا في المنام، فقال العرافون من حوله: «إن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانتك، ويخرجك من أرضك ويبدل دينك». فغزع الملك فرعون وأمر بسجن ذوي الشأن من بني إسرائيل ليُبقي على أبنائهم ونسائهم عبيداً يُباعون في الأسواق، ثم قرر قتل كل رضيع وُلد في ليلة الحلم المشنومة بالمدينة، لينزل حُرَّاسه ومعهم قابلاً «هوّارة» إلى الشوارع، اقتحموا كل منزل وُلد فيه طفل، نزعوه من حضن أمّه وألقوا به إلى تماسيح النهر، في ذلك اليوم ولد لِعِمْران حفيد يوسف، وحاجب مجلس الملك «فرعون»، وُلد له طفل ذكر خمري اللون واسع العينين، أخفى عمران الخبر برشوة القابلة التي جذبتّه من بطن أمّه، ثم سقاها منقوع الينسون فخضع الوليد لسبّات عميق حتّى مَطْلَع الفجر، في الأيام التالية تحايّلت أم الوليد في إخفاء وليدها الذي لم تسمّه بعد عن الجيران والعابرين، فسّتعينة بالأعشاب المهدنة وخيمة مَحْكَمَة، تسجيه فيها داخل العرفة التي تطل على فرع النهر، فسّتعينة بصوت المياه وساقية قريبة تطغى على صراخه حين يتصوّر جوعاً، أما الأب، حاجب باب فرعون وصاحب الثقة، فيسترق السمع حين يجتمع الملا من رموس القبائل، علّه يلتقط خبر عفو عن مواليد ليلة الحلم المشنوم، أو يستقروا خطراً يتلافى وقوعه، فحاولا السّيطرة على خوفه بابتسامة ودود وطاعة ظاهرة.

مرّت ثلاثة أشهر كبر فيها الرضيع حتّى اشتدّت خنجرته وعلا صوته، ولم يطلق عليه أبواه اسماً بعد، تشاؤماً من أن يجده الجنود فيقتلوه، لكن كتمان أمره بات مسّتحبلاً وسط بيوت القلائل الذين يعيشون داخل أسوار قصر «فرعون» وينعمون بخدمته، ضاق صدر أبيه قلقاً وبس جسده، أما أمّه فتقصي أيامها شاردة ذاهلة ينقيض صدرها مع كلّ صيحة في الجوار، يحدوهما الأمل أن يصدر من الملك عفو تنتهي به اللعبة التي نزلت ببني إسرائيل وطالت مواليد باقي المستضعفين تحسّياً، أو يذوب الوليد بين أقرانه من الصبية فلا يُعرف له مولد.

حتّى أتى يوم وبوغت الحاجب عمران بثورة سيّده، أطاح بكل ما أمامه من أثاث وتمائيل وخدم، ثم أرسل في طلب قارون، صاحب مناجم أرض الفيروز ورئيس قبيلة بني إسرائيل، وجليسه المعين، هاج وماج وقصّ عليه أن الحلم المشنوم قد تكرر، طفل من قبيلة بني إسرائيل سيكون سبباً في نهايته، طمأنه قارون بكلمات ثم أرسل في طلب الجنود، أمرهم بتمشييط بيوت بني إسرائيل بيتاً بيتاً وقتل كل رضيع يجدونه، سمع عمران الأمر فحزب الدوار رأسه، قاوم رعيه وهو يتابع الجنود من شرفة القصر يبتعدون، تجاه بيته.





في أطراف أراضي القصر، عند بيوت العمال والخدم لمحت أم الوليد القابلة التي ولدتها من خصاص الشباك. تجري مضطربة بين أيدي الجنود، يسوقونها أمامهم لتدكهم على مواضع من خرجوا للحياة بين يديها. فسلت أم الوليد ثديها من فم الرضيع في هلع ونظرت حولها جزعة لا تدري ما تفعل، حتى وقع النداء في صدرها، ذلك الصوت الذي بات يغشى قلبها منذ ولد طفلها: «أرضعي صغيرك حتى الشبع وترقبني، أمر ما سيحدث». الآن نفس الصوت يأمرها «ضعيه في السبت». وقع الأقدام العنيف على الأرض لم يمهلها التفكير، وضعت رضيعها في السبت وغطته حين سمعت طرقاً بالباب، سقط قلبها فدخلت الغرفة التي تطل على النهر، «ألقيه في اليم». صرخ الصوت ففتحت النلثة التي يستسقي منها أهل البيت، قبّلت رضيعها بأنفاس تحترق ثم أسلمته للمياه الجارية وتركته عقلها وقلبها معه.

السبت مصنوع من البردي ومطلي بالزفت، عليه أن يطفو مثل السفن، لكنه لن يصمد أمام فكوك الثماسيح! كادت تولول لولا أن انفتح الباب، دخل الجنود ومن خلفهم عمران الخاحب يلهث، وقف أمامهم باسطاً ذراعيه:

. ماذا أنتم فاعلون؟

. بأمر من الملك نبحث عن رضيع عمره ثلاثة أعمار.

. هذا بيتي وأنا حاجب الملك.

. لا يستثنى بيت من بيوت بني إسرائيل.

. لسنا من بني إسرائيل، إنما نحن من بيت يعقوب، عشيرة يوسف.

. قارون هو سيد عشيرة يوسف الآن، وهو من أمر بتمشيط البيوت دون استثناء. أهؤلاء هم كل أبنائك؟

. أشار عمران لطفل لم يبلغ الرابعة وفتاة ناهدة.

. هذا هارون وتلك مريم.

. سنفتش الغرف.





جاس الجنود خلال الدار بحثاً، نظر عمران لزوجته التي زاعت عينها وابتهل أن تكون ميتة رضيعه سريعة رحمة،  
لحظات وزحل الجنود فهرع إلى غرفة الرضيع، قلب الخيمة ولم يجده.

. أين الولد؟

سأل أمه.

بأنفاس تقطعت وقلب انفطر أشارت للثلمة التي يستسقون منها:

. وضعته في سبت، وألقيته في النهر.

نظر إليها عمران غير مستوعب قبل أن يلقي بجسده على الأرض ويفتح الثلمة لينظر، النهر كان يجري ولا أثر  
للسبت فوقه.

. ماذا فعلت؟ أي جنون أصابك يا امرأة؟

قالها عمران وهم بضربها قبل أن يتطلق بوق القصر يستنفر العاملين للحضور، انطلقاً كشعلة طالعها الرأس  
ثم قام بحزن بحر سافيه وخرج بمسح دموعه فخرجت الأم ومن ورائها مريم، أبصرت السبت الصغير من ضفة  
النهر يمر خلف أكوام البوص، تتبعته يتمايل فوق المياه راحيتي الرب أن تتجنبه التماسيح قبل أن تحبس  
الأنفاس في صدرهما حين سحبه التيار تجاه البحر، مشى بحذاء الساحل حتى اقترب من المرفأ الملكي، كاد  
يمر من أمامه لولا اصطدامه بحزمة بوص بدلت اتجاهه ليدلف من البوابة، اقترب السبت يبطء من المرسي  
فلحظه حارس، مدّ عصا طويلة فالتقطه، سقطت أم الرضيع على ركبتيها حين رفع الحارس صغيرها من قدميه  
كصغير حيوان رأسه للأسفل، نجب المسكين فنادى الحارس زميلاً له، حاوره فكتمت أم الرضيع صرختها  
بأصابعها، لحظات وهز الحارس رأسه طاعة، ثم غمس رأس الرضيع في المياه فعضت أم موسى أناملها حتى  
أدمتها، قبل أن تخفي عيني مريم الملتاعيتين في صدرها كي لا ترى المياه المالحة تسلب روح أخيها، انكتمت  
صرخات الرضيع ووهنت ضربات يديه في الهواء حين التفت الحارس فجأة إثر نداء أتاه من خلفه، رفع الرضيع من  
الماء ووقف في إجلال، دقت أم الرضيع النظر فلمحت زوجة الملك تقترب، ومن ورائها ابنتها البرصاء «راحيل»



تحت الكتان الأبيض، تخفي جلدها عن الأعين. تحدثت الملكة مع الحارس بكلمات انحنى الحارس بعدها على الأرض باسماً راحتيه بالطفل الخمرى، التقطته المرأة وربتت على ظهره حتى بصقت رثاه المياه فانخرط في بكاء وارتجاف، نظرت لفتاتها مهقاء البشرة، حدثتها بكلمات، ثم عادت به إلى القصر مُسرعتين.

انكفات أم موسى على العُشب بكاء وكادت من الفرخ أن تصرخ، لولا أن تداركتها ابنتها فكتمت ضحكتها:

مريم، اذهبي إلى القصر فتقصي خبر أخيك.

ثم نظرت للقصر وأردفت:

لعل من نجاك من الماء أن يحبك يا ابن بطني.

دلفت مريم إلى القصر واخترقت الأبواب التي تعبرها يومياً، محاولة الحفاظ على هدونها المعتاد، وإخفاء أثر الطين الرطب الذي لوّث ساقها أثناء الركض قرب الساحل مع أمها، صعدت إلى جناح الملكة واقتربت من الباب الكبير، لم تجرؤ على استراق السمع لكنها ميرت تحب أخوها، ذهبت وجاءت مرات ومرات متصنعة تنظيف الأثاث حتى انفتح الباب وخرجت سيدتها الصغيرة، اقتربت ببشرتها المهقاء التي دشوبها بقايا بشرة داكنة كانت يوماً لونها الأصلي:

مريم! اجلسي مناشف ووعاء فيه ماء فاتر.

ركضت مريم فأتت بما طلب منها قبل أن تدلف إلى جناح الملكة، بصرت أختها منقطراً قلبه من البكاء، أمرتها الملكة بتنظيفه ثم دسّت سبابتها في فمه محاولة تهدئته بترنيمه، غسلت مريم جسد أخيها قبل أن يدخل الملك من الباب، بشعره الطويل المجعد ولحيته المصفرة يحلقات النحاس وذلك العقد الذي ينتهي بناهي خنزير بري كبيرين. انتصب شعر مريم وانحبست أنفاسها لكنها لم تملك ترف النظر إليه، فأجر خادمة نظرت في عينيه غرس الأوتاد في يديها ورجليها وتركها معلقة لثلاثة أيام تنكلاً، اقترب فرعون بهدوء، تأمل الرضيع للحظات ثم نظر لابنته ولزوجته التي اضطربت ملامحها:



أهذا هو الرضيع الذي جلبه البحر إلى مرسى القصر؟

ربما ماتت أمه أو أنقلتها معيشته.

نظر الملك إلى الرضيع ثم النقطة ورفع في الهواء يتأمل ملامحه العائسة ثم ابتسم.

حقيق على الأسماك أن تأتي التهامه.

اقتربت الملكة من زوجها:

جميل اليس كذلك؟

ابتسم الملك:

ماذا ستسمينه؟

تهلل وجه الملكة:

سأسميه... موسى.

موسى، اسم جميل، لولا أن البحر لا يطرح إلا السمك الفاسد.

لاح الاضطراب في وجه الملكة:

عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً.

حين أريد الإنجاب فلن يكون وجه وليدي كوجوه العبيد، انظري، إنه يشبه تلك الأمة الساجدة.

وأشار لمريم التي تقاوم رعشتها ثم أردف:

أراهنك أنه ابن بطن زانية من خرائب الإسرائيليين.



واتجه إلى النافذة ينوي إلقاءه فاستمسكت الملكة برسغه وحفرت مريم الأرض بجبهتها متضرعة حين صرخت راحيل:

.أبي...

ثم قالت مقاومة أنفاسها المتهدجة:

. أتوسل إليك أن لا تفعل، ليلة أمس رأيت في المنام أن شفاء بشرتي سيكون في لعاب رضيع، وها هو النهر يقذفه بين أيدينا، إنها علامة من السماء.

. السماء إلا تنفكين تتبعين النجوم!

تضرعت الملكة:

.أسترحمك أن تتركه حيًا.

نظر فرعون في عيني ابنته ثم للرضيع الذي سال لعابه بكاء:

. حسنًا، ليحي طريح البحر يوماً آخر، لكن لا تكيه حين أقتله إذا مرض مثل حصانك الذي يكيه شهوياً.

ثم تركه فرعون بين يدي زوجته وخرج، زفرت راحيل وقامت مريم من سجدتها بوجه هربت الدماء منه فنظرت الملكة إلى الرضيع:

. لا أعرف يا صغيري إن كان الرب قد ابتاع لك عمراً جديداً، أم كتب عليك العذاب بين يدي قاتل الأطفال مفرق القبائل، على أي حال ستعيش في كنفِي، أراك ما امتد بي العمر، وليتوالك الرب من بعدي.

ثم التفتت لراحيل:

. فوسى يبغني ثدياً.



بأمر الملكة جيء بثلاث مَرْضَعَات إلى القصر فلفظ الرضيع أذاءهن، اشتد صراخه حتى خشيت أن يملك الجنون من الملك ثانية فيقتله، كان ذلك حين تجرأت مريم وقالت:

«قد كان لي أخ، مات يوم ولد، وثدي أمي منتفخ، ألا أتى بها فترضعه؟»

وافقت الملكة فأتت أم موسى وجل ترتجف، التقطت رضيعها بيد مرتعشة محاولة إخفاء فرحتها، سكن بين يديها حين رآها، رضع حتى شبع ثم نام في يسر.

«كأأأأأأأ»

بصوت عال نادى صاحب الحانة، فبحارة الفجر الدين يشتهون الجعة اشتهاه النساء بدعوا في التهافت، رفع كاي بوضعه وسد فم المحبرة ثم أخفى بردياته ونزل إلى الحانة، حمل البراميل وغسل الأكواب ثم جلس في ركن يرى منه الواردين، مخفياً ملامحه في الظل، شاردًا في قصة موسى، رجل الرعاة المنتشل من الماء، قصة من تراث يرجع لألف وثلاثمائة عام مضت، «قصة لا تستحق أن يقتل معلمي بسببها، لا تستحق أن أطرد من جنة الإله بسببها، أي لعنة تحوي تلك البرديات؟ وأي مصير ينتظرنني؟»، سأل نفسه فتلقى إجابة بعثت في نفسه القشعريرة، أغمض عينيه محاولاً الهرب إلى عالمه المفضل، بين أعمدة المعبد، ظلالها التي تبت فيه الظمأينة بضامتها، وأسواره العالية التي تحجب عنه الصوواء والريح، لا يقطعه عن تحيلها سوى هواجسه تحاه كل عريب يدخل الحانة، وظيف ابنة الطبيب الهارب التي أشعلت في أسفل رنتيه كومة قش طالما حرص عمره على عدم اقترابها من النار، يبللها كل يوم بذكر الرأعي والتسبيح باسمه الذي نسي من أجله اسمه، فالجسد زاهد، والقلب خاشع، واللسان ساكن لا يحركه إلا ترتيل كلمات الإله، لا أمس، لا غد، لا كاهن، ولا كاي.

ليبتهل الكاهن الأعظم في برزخه حتى أجد ما أصلح به تمثال إدريس.

أو يلعنني فيبتلعني البحر.

هل ترجع كلمات عن رجل من الرعاة ولّى زمنه هيبة المعظم ثلاثاً إدريس؟



أو تأتي بفاتل الكاهن؟

وماذا بعد الترجمة؟

ذلك الفعل الإرادي، ذلك العجز واليأس.

تكلم أيها القاتل، زر أحلامي، أرشدني إلى معنى لمقتلك، معني لخروحي مذموماً مدحوراً من معبدي الأنيرا

أو مغزى للقائي تلك الأنثى في ذلك الوقت!

ما الذي تحرك بداخلي؟

لم تخترق صدري بلا مقاومة كرمح حاد يعرف طريقه؟

بحة صوتها أم رموش عينيها؟

أم رائحة تنظاير عن جلدها لتأسر عقلي فتسلبه التعقل؟

نار لا أستطيع العيش بجانبها، إما أطفئها، وإما أحترق بها.

لأقنع صاحبها بالخروج معنا، من أجل فضل أبيها.

ومن أجل يوم آخر بجوارها.

أو لتذهب إلى الجحيم وراءه.

فهي امرأة كاملة لا تنتظر من يهديها.

فلنت مله آخر الكلمات فالتفتت بعض الرؤوس، قام فاتجه إلى الساقبي:

كيف أجد آرام؟





ابتسم الرجل:

. لا أنصحك الاقتراب من الكلاب، قصده ضيق حرج ككلابه الهجينة.

. سأقول له قولاً ليناً لن يكرهه.

. اليوم يوم المصارعة، ستجده في ساحة ديونيسيوس قرب البحر.

---

(١) بحر البوص: هو البحر الأحمر حالياً. وقد حدث الخطأ في الترجمة حين ترجمت كلمة «Reed» وتعني البوص إلى

«Red».

(٢) «واست»: الاسم القديم لمدينة «طيبة» التي أصبحت الأقصر.





لم تكن ساحة «ديونيسيوس» بعيدة عن شاطئ البحر. ميدان يتسع لعشر حلبات مَسورةً بألواح الخشب ومغطاة بالشبك. تقام فيها مُصارعات الكلاب كل يوم أحد. يخطط المكان بمربيعها وسماسة الرهونات، والمُرايين الذين يتيحون القروض نظير نسبة عالية من الربح. يطوف بينهم الطبَّالون والزمارون. عازقين نغمات صاخبة تلهب حماس المتنافسين وتُهيِّج كلابهم التي تقام المزادات لبيعها وتبادل الفائز منها. أمَّا التي تنفق فتياع رءوسها للمُحَنطين وتُصنِّع من جلودها الأحذية والملابس.

خاض كاي في الجموع بحثًا عن آرام، مُتمنياً من قلبه ألا يجده معها. مسح بعينيه الحلبات المُشتعلة بالنِياح والتمزيق وصراخ المُشجَّعين حتى لمحها في رداء كُنائي. واقفة خلف عاشق مُتيم يتحدث إلى رجل. وفي قبضته كلبه الشرس يقاوم جنزيراً يحيط عنقه. تسمّر كاي في مكانه يتأملها. كعباً يضرب الأرض على نغمات الطبول، خصرًا ينثني في ميوعة. وكفًا رقيقة تربت على شعر مُموَّج تحجباً للورث. أمَّا عيناها فنحلمان نظرة شاهدها في أول لقاء بينهما. سحراً وشروداً. وغضباً مكبوتاً. ثم لمحته. التفت الأعين للحظات لم تطل قبل أن تُشبح بوجهها متصنعة الانشغال. وازداد كعبها ضرباً على الأرض. اقترب كاي خطوات فلم تُعره اهتماماً. ثم نفخ البوق إيداناً ببدء مُباراة. سحب آرام كلبه وسط تهليل المُشجَّعين والمُراهنين، أدخله الحلبة ثم انكفأ على عنقه يدلكه ويهمس في أذنه بكلمات زمجرت الكلب، ثم دخل مُنافس من نفس الفصيلة. فكَّ الطوق عنهما وبدأت المُباراة الدموية. صرخ آرام: «سيربيروس، سيربيروس». فردد المُراهنون وراءه الاسم ورفعوا عَمَلاتهم يزايدون فلمعت أعين المُرايين وبدعوا ينادون بالقروض. أمَّا



ناديا فوقفت على بُعد أذرع، مُشبكة يديها تشب على أطراف أصابعها لترى، كان ذلك حين اقترب كاي، وقف بجانبها لحظات تعمّدت فيها ألا تنبته إلى وجوده حتى تكلم:

. يقولون إنّ الإنسان إذا التفت لإرادياً ناحية من يرمقه، فهو يملك حالة نورانية من هالات الرب.

أجابت دون أن تنظر إليه:

. محاولة جيّدة لإصلاح ما أفسدت.

. صاحب الحانة رجل لا يكتُم سرّاً، وعاشقك غيور يقتل الرجال من أجلك.

. لا تقلق، فأنت لست من النوع الذي يروقني، كما أن كل من أحبّوني غاروا مثله.

. رأسك يستمتع بالفكرة!

. لم لا؟ الرجال يعشقون الصراع على الأنثى.

. لم تعشقي أحدهم؟

. ما فتئت تتكلم عن العشق أبها الكاهن!

. أتكلّم عما لا تعرفينه.

. التفتت إليه:

. ماذا تقول؟

. أقول أن لا أحد قد شغف قلبك، إن كنت عشقت لتعلّمت الرحمة.

. أهذا ما تفعله في المعبد؟ توهم الناس بأن الرب قد كشف لأجلك أسرار النفوس فيصدّقون كل ما تقول.

. الرب لا يكشف سر عبد، إنما هي فِراسة الجسد والملامح والأكف.



. فِرَاسَة!

أشاحت بوجهها وهزّت ساقها على نغمات الطبول، تريد أن يكمل دون أن تبدي اهتمامًا، فأذناها تهوى حديث  
العشق وإن جاء مع انتقاد، ثم نقد صبرها، بغتة:

. أكمل أيها الكاهن.

. عذيني إلا تغضبي.

زمت شفتيها،

. أعدك.

. وأن تعترفي إن أصبت.

زفرت في نفاذ صبر فمد راحته فأرخت يَمَنَّاها، تأملها لدقائق طالت حتى هزّت ساقها استعجالًا، ثم تكلم:

. لديك قلب ضعيف.

حاولت ناديا كتمان دهشتها:

. خفقان اعتدته، يُداهمني كلما تعكرت مياهي.

. احذري الإجهاد.

. إن مت فأفضل الموت وأنا أرقص.

ثم لاحظ في التل الأوسط بين السبابة والأوسطى خطين متقاطعين في شكل صليب. كتم انزعاجه فلاحظت:

. ماذا رأيت؟

. رأيت هواجس ثمليك أفكارًا ظالمة.



. الرجال ينغرون من الأنثى التي تفكر.

ابتسم كاي وهو يقلب كُفّها:

. روحك تحمل السكينة والجَنون معاً، نارية المزاج يسوقك الجَموح والعناد، أما عن خط القلب فينتهي عند السبابة،

عاطفتك جامحة لا يحدّها عقل.

. هراء، لم يُذبني العشق يوماً.

ضغط على أول عقلة في إبهامها وكانت كبيرة، لكنها انثنت في ليونة، أردف:

. لك إرادة لا يُستهان بها، لكنها تداري للعجب هشاشة وضعفاً.

تيبست خدقناها وانفرجت شفاتها قليلاً ثم انتبهت لنفسها فسحبت كُفّها ونظرت في عينيّه متخدية:

. تعتدّ بلفسك وتختال، وبينك وبين الحقيقة جبال.

أردف كاي:

. ساحكي لك قصة خطواتك في قلوب الرجال، عاشقت برى في عينيك عدم الرضا أو الاكتفاء، فيسأل، ما بال تلك الفتاة

تنفر رغم عنايتي وتديلي؟ لا يعرف أنه يعشق جميلة ملولة لا تكاد تنظر للشئ مرتين، تزداد نفسه اضطراباً فيسعى

جاهداً لإرضائك، حتى لا يتحول الشك في قدراته إلى يقين، يقترب فتبتعدين، يزداد إقبالاً وتكالباً عليك فتنفرين، يرتوي

غرورك ويسبغ عليك ثوباً من القسوة، يتوهّم عاشقك أن جذوة قلبك قد خبت فتشتعل الغيرة في صدره ويضطرم

النّك، كنار فوقها زيت، لعلها قابلت من أعجبتها. من هو أوسم مني وأقوى، ليستحيل كل رجل في محيطك منافساً

له، يثير العاصفة الساخنة في صدره، وأنت سيدة كريمة، لا تردين ابتسامة ولا تلفظين عاشقاً، كالزهرة الفواحة، لا

تتوقف عن جذب النحل إليها والاستمتاع بطوافه حولها.

باتت هزة ساقها أكثر عنفاً:



ثم؟

. ثم تتحولين إلى عبدة مملوكة بعد أن كنت أميرة متوجة، طائر ملون حبيس قفص، لا تقدرين على استنشاق الهواء إلا بإذنه، يقضي لك ما تأمرين طالما لا تنظرين إلا تجاهه، يمنحك الحياة، ويسلبها في آن واحد، فدون قصد، أو بقصد، كشفت ضعفه.

بطؤ هزة ساقها:

وبعد...؟

. ستغربين منه وتصدّين، لكنك لن تملكي منه فراراً بعد أن بات أعتى كوابيسه... أن يتحريك في أحضان رجل غيره، إنه خب التملك.

توقفت هزة ساقها وانتفخت فتحت أنفها في شهيق بطيء، نظرت في عينيه لحظات ثم ابتسمت:

. لا أنشد قتل أحلامك لكن لك أن تعرف، فالسنوات التي عشتها في إليوسيس علمتني قراء الرجال، فأنتم لا تختلفون كثيراً عن الأطفال، لولوج أنثى تفعلون الأفاعيل، إما تندفعون كالثيران في رغبة محمومة بلا عقل، وإما كالشعراء، تبثون السحر في الأذان حتى تسقط الألبى في حبالكم، تلك الطائفة يظنون فهمنا، ونجاريهم، حتى يستمتعوا بشهوة الصيد، وهم الصيّد.

نظر في عينيه ثم شفتيها ومنع نفسه عن الكلام، لاحظت فابتسمت:

. هل لفراستك المزعومة قول في شفتي؟

أجابها بعد صمت:

. امتلاؤها ذكاء وكرم، وشهوتها متدققة.

احمر وجهها:





. ليس شيئاً بالنسبة لكاهن.

. لا أعازلك، إنما سئلت فأجبت.

كزّت على أسنانها غيظاً حين انطلق بوق فصاح أرام وأغلب المراهنين فرحاً بالفوز. دخل الحلبة وجرّ كلبه الجائم فوق منافسه. وضع الطوق في العنق وخرج بعينين تبحثان عن ناديا حتى وجدها. بجانب كاي. انقلبت سعادته غضباً فاقترب:

. ماذا تريد؟

سأل ناديا.

أجاب كاي.

. صفقة رابحة.

لوى أرام شفطيه وهو يتأمل هيئة كاي.

. ما يتناوله كلبى على العشاء يفوق ما تأكله أنت في شهر.

. أحدثك عن الذهب.

ضاقت عينا أرام.

. ومن أين لك به؟

. أن تلتقي ناديا بأبيها هو ثمن المعرفة.

ابتسم أرام ثم نظر لناديا التي انحبست أنفاسها:

. كنت أظنك تثيرين البهارة فقط. ها أنت تجذبين لصوماً!



قالها آرام ثم استل من حزامه سكيناً فتراجع كاي خطوة، وضع النصل فوق كبده ثم همس:

. ربّ الثياب وتعدّني الذهب! أي مخبول تظنني؟

. لقد دقت مكر كاهن يجمع التبرعات للإله ويستأثر بها لنفسه، كنت أكذب عيني حتى اتهمني زوراً وكدت ألقى حتفي،

أعرف أين يخبئ الذهب وأريد أن ألقنه درساً.

. ولم لم تسرق الذهب لنفسك؟

. أقسمت ألا أمسّ ذلك الذهب ما حييت، ملعون من الرب إن فعلت، إنما قررت أن أهبه لفعل الخير، وحين أنقذني والد

ناديا رأيت أن أرد صنيعه في ابنته.

جذبت ناديا ذراع آرام وهمست في أذنه:

. الذهب نظير لقائي بأبي.

. أبوك لم يحفظك.

. دعني أقولها في وجهه.

وخز آرام جلد كاي بسكينه.

. لا أثق في لص.

أجابته ناديا:

. ستكون معي أينما حللت، وسأعود معك إلى الإسكندرية. فليس لي مكان إلا هنا.

نظر لناديا ثم لكاي، ودارت في عينيه شياطين البحر قبل أن يكبل عضد ناديا بأصابعه الغليظة:

. تتهافتين على كلمات أشعث ربّ الثياب رائحة كلبتي أزكى من رائحته. إن كان معه الذهب لأتى بأبيك إلى هنا يا خرقاء.



.أتوسل إليك يا آرام.

التفت آرام لكاي صارخا:

.إن اقتربت منها ثانية قسيثولي أمرك «سيربيروس».

قالها وأغمد سيكينة في الجراب ثم جذب طوق الكلب بيد، وباليه الأخرى ناديا، تابعها كاي تبتعد قبل أن يأخذ طريقه راجعا إلى الحانة.





قضى موسى طفولته في قصر الملك «فرعون» حتى صار فتى قويا له جسد أبيه وعينا أمه. صموت ثابت العينين، مخطوم النفس من جحود في رب بيته وتجاهل. فهو «طريح الماء» الذي عاش بفضل سيدة القصر، لا يعرف له أب أو أم. مراهونة راحته بانصراف عيني فرعون عنه. فرعون الملهي برغبته المستعرة في إنجاب ذكر يورثه الملك من بعده. يرسل في أقاصي المدن لياتوه بأكار القبائل عسى إحداهن أن تصبح أما لولي العهد. ولم تحبل واحدة، ومن أنجبت جاء وليدها مشوه الخلقة قبل أن يدركه الموت وهو ابن أيام.

تفاقم الغضب فيه واشتعل جنونه. فقبائل العماليق من تحته تتربص بعرشه. والحيثيون تقوى شوكتهم تحت إمرة «سقنن راعي» حاكم «واست» في الجنوب. يتحينون لحظة ضعف ليجتاحوا الشمال تحريرا لأراضيهم.

وفي يوم، أرسل فرعون رسالة إلى حاكم الجيبتيين تقول:

«إن أصوات أفراس النهر في بحيرات «واست» تصل إلى «هواره» فتزعج منامي. من الأفضل لك أن يتم إسكاتها. أما رب مدينتك، فـ «سوتخ» إلها المحبوب القوي لأولي من إلهك أن ترفع تماثيله ويمجد اسمه في معابدكم».

وفهم حاكم الجيبتيين الرسالة، الملك فرعون علم بأمر التحالف المقام بين مدن الجنوب للاحتياج «هواره». أسماهم أفراس النهر في بحيرات «واست»، وأما عن تخلي مدن الجنوب عن إلهها فاختبار خضوع وولاء. واستفزاز.



قبل أن يعود الرسول من «واست» إلى «هواره» كان فرعون قد جمع الملاً من زعوس العشائر والقبائل في قاعة العرش، خرج عليهم بقناع من الذهب على هيئة رأس عجل وصولجان، جلس فوق عرشه وساوى بأنامله لحيته المضفرة وحلقات النحاس المتدلّية منها ثم قال:

. سأخوض حرباً ضد الجيبتيين.

التزم الجميع صمّاً قطعاً أحد رؤساء القبائل:

. ألا ننتظر حتى يأتونا؟

. بل سنذهب إليهم لنجهض أحلامهم، وسأكون على رأس الجيش.

قال آخر:

. وإن قتلت؟ من سيرث جعبة سهامك؟

. منذ متى ورب الجنود في حاجة إلى وريث؟

نظر الملاً إلى بعضهم بعضاً محاولين استيعاب ما تفوه به الملك حين أردف:

. ما علمت لكم من إله غير رب الصحراء «سوتخ» العظيم، في جسدي تسكن روحه. ومن رأسي يخرج قرنانه، وعلى لساني يجري قوله. وقد أسبغ عليّ الخلود. وأمر يدي وقدمي باستعادة ملكه المنهوب من نسل حاكم الجيبتيين «سقنن راعي». حفيد «إدريس» الذي اغتصب عرش تلك الأرض قبل زمن العروش.

انطبق الصمّ حتّى كاد دبيب الحشرات أن يسمع. نظر رؤساء القبائل بعضهم إلى بعض في ذهول ثم تقدّم أحدهم:

. إن كانت روح الإله في جسدك فأتنا بأية؟

نظر إليه فرعون ثم ابتسم قبل أن يقوم من فوق عرشه ويتزلّ الدُرّجات:



. سأتيك بآية، ولكن، أتعرف مَصير من لا يَصْدُقُ بالآيات يا كبير «جَزَهُم»؟

. أتنا يواحدة وستجدني وقييلتي من المؤمنين.

. حسنا، استلق على بطنك.

تردد الرجل للحظات ثم استلقى على بطنه في قلق قبل أن يضع فرعون قدمه فوق ظهره فاستنكر:

. اثبت، فقد طلبت من الإله آية.

ثم نظر في وجوه رؤساء القبائل المترقيين وصاح في الراقد:

. لتكن أنت الآية.

قالها فرعون ثم استل خنجرًا ذا مقبض على هيئة رأس حصان وأعمده في كف الرجل الممدودة بحانب رأسه حتى اخترق أرض المجلس. صرخ الرجل صرخة مروعة فاضطرب الجمع واستنكرت الأنفس وتاهب الحراس المحيطون فأردف فرعون:

. لا تتعجل واثبت، فالآية لم تأت بعد.

قالها ثم استل فأسه الذهبية مردقا:

. إن من ينكر حلول الرب في هذا الجسد...

وبعزم قوته نزل على اليد الثانية فينثرها في ضربة فانفجرت الدماء. صرخ الرجل حتى تحشرج صوته فعلا صوت فرعون على صوته:

. تقطع يداه.

ثم رجع خطوة ورفع فأسه ثم نزل على الساق اليسرى فينثرها وسط هلع رؤساء القبائل الذين تراجعوا خطوات:





وورجلاه من خلاف، ويصُلب بالأوتاد في جذوع النخل.

ثم هوى على الساق اليمنى فبترها في ضربتين فتخضب وجهه بالدماء قبل أن يردف:

«أو أعلن الحرب على قبيلته فأبيد رجالها وأستحيي نساءها، واسألوا بني إسرائيل الذين ظنوا أنفسهم يوماً ملوك تلك الأرض.

قالها وهو يلهث من فرط الانفعال قبل أن يجثو على ركبتيه بجانب وجه رئيس القبيلة الذي زاغت عيناه وارتعشت روحه:

«أتمنى أن تكون تلك الآية كافية؟

ثم صرخ في الحراس:

«نظفوا الأرض وارفعوه على نخلة أراها من شرفتي حتى تأكل الطير رأسه.

فتقدم «هامان» رئيس قبيلة «يهودا» وجثا:

«الملك لفرعون، رب الجنود.

ثم تقدم «قارون» رئيس قبيلة بني إسرائيل، جثا بجانب هامان:

«الملك لفرعون، رب الجنود.

وتوالت البرعوس ركوعاً وسجوداً حتى لم يبق في القاعة رأس قائم، إلا رأس فرعون، وانطلقت الحملة، جند فرعون فوق عرباتهم في المقدمة، وجند قبيلة يهودا بقيادة هامان في الوسط، ومن ورائهم رجال قبيلة بني إسرائيل يحملون المؤن والحراب مترجلين، ثم باقي أحلاف القبائل في جماعات قتالية متفرقة، والتفت الجيوش، اجتاحت عربات الهكسوس عربات الجيبتيين البدائية قليلة العدد، هرسست الأجساد وشتتت الجموع، وانطلقت الأسهم المزدوجة طويلة المدى لتخترق الدروع والصدور، صمد الجيبتيون نهاراً كاملاً تحت وطأة موجات لا تنتهي من



الخيول والعربات الجافية، حتى غريت الشمس، قيل آخر ضوء شقّت الصفوف المتشابكة موجة من العربات في تشكيل مثلث رأسه ناحية حاكم الجبتيين الرابض على عريته. طوّح يديه في الأعناق والرعوس حتى تكتلوا حوله ونجحوا في فتح ثغرة بين خراسه، تلقى بلطة في خده الأيمن كسرت عظام وجنّته فسقط من فوق العربة لتهوي الغنوس والرماح على رأسه حتى خرج مَخْه من جبهته، توقف القتال للحظات قبل أن يصيح جند البدو في قورة جنون ويرفعون راية، ما إن رآها فرعون حتى ابتسم ظفراً ورفع سيفه عالياً ودار بعريته مبتعداً.

في الأيام الثلاثة التالية أقام قصر فرعون احتفالات لم يسبق لها مثيل، دُعي الملأ من رعوس القبائل والعشائر وسال النبيل أنهاراً فوق سلالم القصر إلى الأرض، احتفالات لم يحضرها الأمير المنبوذ موسى. كان يجلس بجانب سرير أمه التي ينهشها المرض منذ شهور، وبجانبه مَرْضَعَتُهُ التي صارت أمه الثانية، وأخته التي دائماً ما ذكرته بأن لعبه رضيعاً كان السبب في شفاء جلدّها من البرص، تابع موسى عيني أمه تخبوان حتى قارقها بريق الحياة، قبل يدها وجبينها وبكت أخته لهفاً فيما سجدت مَرْضَعَتُهُ العجوز في بثّ وكمد.

وسط مخون احتفالات النصر خرج موسى متحجاً إلى قاعة الملك، تخطى الحاضرين حتى وقف بين يديه:

. ماتت أمّي؟

نظر إليه الملك للحظات ثم قام من رقدته واقترب منه:

. ومن هي أمك؟

. أمي، الملكة.

. آسيا بنت مزاحم حفيدة الملك خيان هي أمك؟

ثم اقترب من موسى وهمس في أذنه:

. لا بد أنني أبوك إذن؟

لم ينبس موسى بكلمة، رمقه في صمت فوضع فرعون كأسه وخرج.



في الغرفة احتضن فرعون ابنته راحيل التي قطعها النحيب، ضمها وقبّل جبينها وهمس في أذنها بالصبر، ثم التفت لمربية موسى الساجدة على الأرض:

.خُذي راحيل إلى غرفتها لتستريح.

احتضنت المربية راحيل وساعدتها على الخروج، اقترب فرعون من جسد الملكة المُسجّى فوق الفراش، نظر إليه للحظات ثم اقترب من الشرقة، نظر للبيوت البعيدة المضأة بالشموع:

.ثري في أي بيت من تلك البيوت زنت أمك؟

كظم موسى غيظه وأحنى رأسه فأردف فرعون:

.في يوم من الأيام، أحبتك تلك المرأة، بعد أن خدّت الفيك من الشرقة، وها أنت اليوم تقف أمام جسد ها لتدعي أنها أمك!

.لو عرفت لي أمّا لذهبت إليها.

.ليس من العسير نسبك إلى خرائب المنبوذين، فملاحك تتطابق معهم.

.ألا يخرج نسب كل رعاة الشرق من أصل واحد؟

.بلى، ولكن القبائل درجات يا داكن البشرة، هناك آل فرعون، أسود بنية فاران وورثة ثمود، وهناك الكلاب، مثل بني إسرائيل.

.ثمود لعنها الربّ ودمرها.

.الضربة لم تهلكنها، وها نحن نستعيد قوتنا لنزدّ له الصّاع صاعين.

.ما منعك من قتلي حين استطعت؟



. كيف أقتلك وقد رأيت راحيل في المنام أنك سببت شفافتها، مثلما يشفي الروث بعض أنواع القمح.

. لماذا تكرهني لذلك الحد؟

. أنا لا أكرهك، ولا أحبك، أنا لا أراك، ليبق خبر وفاة الملكة تحت لسانك حتى تنتهي الاحتفالات، لا يقتل للجيبتيين ملك كل يوم.

قالها فرعون وخرج، فقبل موسى جبين الملكة ثم اتجه للخلاء.

دبت قدماه على الأرض حتى كاد يدميها؛ صحراء شاسعة تقع في الجانب الغربي خارج حدود المدينة، راغياً في بقعة تموت فيها الأصوات وتكف الأحزان عن الصراخ في قلبه، مشى حتى غلغ الصمت واحتصنته أحجار الجبال، ثم توقف فجأة، سقط جسده على الرمال وشخصت عيناه في النجوم، ساعات لم يحصها حتى استشعر خطوات تقترب. التفت فرأى بريق عيني ضيق يترقب، يسير وحيداً دون جماعته جلس موسى على ركبتيه حين اقترب الحيوان مكشراً عن أنيابه، نظر في عيني موسى للحظات ثم زمجر، رفقه موسى حتى تمنى أن ينهشه لينهي عذابه، ثم تمشت أنامله على الرمال حتى ميز صخرة، طوَّحها على غرة تجاه فك الحيوان فاصطدمت به فهشمة أسنانه، عوى الضيق في ألم وفرَّ هارباً فاتبعه موسى بصرخة مزقت الليل وحجرتته، ثم انكفأ على وجهه، بكى بحرقة ونحب ونشج حتى ابتلع الرمال، قبل أن يقوم لاهثاً وبحر قدميه من فرط الإجهاد عائداً للمدينة.

قرب سور القصر كانت واقفة في انتظاره تحت سدره. هزيلة محنياً ظهرها من الخدمة لسنتين لم يحصها، فمئذ وعى وتلك العجوز أمامه، تسعى لراحته وتتحمل نضجه، اقترب منها ينامل وجهها في وهج المشاعل، رفعت يدها اليابسة ولا مست خده قبل أن تحتضنه، بكى على كتفها في صمت قريبت على صدره وهمست:

. يا بني، الموت حق.

. لم اختارها الرب ولم يختره؟ لقد كان يصليها بكلماته في غدواته وروحاته.



. لم يتزوجها إلا لأنها سليلة بيت الملك خيان: الملك في عهد يوسف صاحب الخزائن.

. لا يؤلمني إلا عدم اختراعه، أبلغته الخبر فنظر إلى جسدها للحظة ثم رجع إلى مجونه غير آسف.

. لا تنتظر الرحمة من أعرابي جلف يقتل النساء والأطفال.

. أن أعيش بين أهل المدينة ابن زنى خير لي من أن يربيني هذا الجلف ويسبغ علي من فضله.

. لست ابن زنى ورب السماوات...

. تقسمين بغيب لا تدركينه.

سكت لسانها عن الجواب فضاقت عينا موسى ومال رأسه:

. أنت تعرفين... أنت تعرفين من أنا؟

غاصت عيناها ولم تحبه فأمسك كتفها برفق:

. عشت في القصر سنين قبل أن أدرك أنني غريب فنتشل من بحر ألقيت فيه، تحملت كراهية سفيه متكبر

وتجرعت شططه، وكابدت همس الخدم من ورائي، يقولون إني ابن زانية من بني إسرائيل، والآن، تقولين إنك

تعرفين! انطقي يا امرأة.

. سامحني، فالأمر لم يكن يوماً بيدي، لك أن تعرف يا بني أنك لست لفيطاً، ولا ابن زنى، ولست من بني إسرائيل.

أنت من أحفاد القتل.

. يوسف؟

. الصديق المبارك، صاحب خزائن القمح الذي قتله بنو إسرائيل غيلة وطمعاً.

تعرق وجه موسى وتلاحقت أنفاسه:



. من هو أبي؟

. عمران، حبيب إيوان الملك، وزوجي.

ووهنت فتيلة السراج حتى اكتسى الوهج بالزرقه.

اتسعت حدقتا كاي مقاومة الإعظام قبل أن يقوم من جلسته بساق وخزها التثميل، مد يده فرفع الفتيلة حين أنت  
أخشاب الأرضية عند باب الغرفة تحت ثقل. أصت حتى سمع الطرق، فتح الباب فوجدها، تبتس للحظات قبل أن يقطع  
الصمت:

. تفضلني.

دخلت فجلست على الكرسي الوحيد، على ضوء السراج لمخ احمرارا مختلطا بزرقه بين عينيها وشفتيها فاقترب،  
جلس على ركبتيه في خشوع.

. ماذا حدث؟

. كما ترى.

وسالت دموعها في صمت. اضطربت أنفاس كاي فالتقط رداءه الخثاني وعمسه في إباء ماء ثم وضعه على وجنتها  
وحاجبها.

. ماذا حدث؟

. ضرب رأسي فلم أشعر بنفسي، حتى تبولت في ثوبي.

. كلماتي هي السبب؟

. ربما، يظنني أرغيك.





. لا أبغي تعكير صفو أيامك.

. هي متعذرة كميّاه أسنة.

. وما يجبرك؟

. وماذا أملك؟

. تملكين الحرية.

. فتاة وحيدة في إليوسيس، مطيئة للرجال، أرام انثشلي من عاشقين استباحا جسدي بلا عاطفة، قطعا زهرتي واستمتعا برحقي قبل أن يهرعا خلف أحريات، الرجال يحبون التغيير، أما أرام، فعشقتني، وحماني، جعلني سيدته، قبل أن أصير خادمتها، قمره الذي يدور في فلكه، لا جزر ولا مدّ دوني، أنا فقط.

. وكلايه.

كسا الغضب ملامحها:

. لا أعرف لم أحكي لك! ففي عينيك شيء، لا يترك لي مجالاً للاختيار.

. نحتاج للحقيقة رغم قسوتها.

أردفت بعد صمت:

. روّعتني كلماتك عند حلبة المصارعة، معانيها تدق صدري منذ شهور.

. وما منعك أن توافقيني؟

. يقين في عينيك عزّ عليّ أن يكون في محله، وحديثك مع الساق، قلت إنني لا أروّك، تلك الكلمات كافية لإشعال جدائل النساء.



ابتسم كأي مُلطفًا:

. جمالكَ يشفع لك حماقتك.

. جمالي لعنتي.

. لا تكبرهي هبة الإله.

. هيته تُستعبد أمام عينيه ولا يفعل.

. بل ما أردت أنت هو ما سيكون.

. إنما نحن دُمى خشبية يلهو بها كيف يشاء، نُحطّمها إن شاء، ويرسلها إلى قمّ ثعبان إن شاء! يا له من عابث متكبر!

. معرفة المعلم بقدرات تلاميذه لا تعني أنه يكتب مصائرهم بيديه. من العيث أن يخط الراعي طريقك مُسبقًا ويتملك

زمام حياتك، ثم يُخاسبك على ما اقترفت. لم يربّي قلبك في ميزان العدل إن كنت دمية بلا إرادة؟ لم تراقب الملائكة

أفعالك وتكتبها وهو عالم بها مسبقًا؟ لم لا يُرسلنا إلى مصائرنا دون عناء الخلق والحياة والحروب والموت؟

. تقول إنني قد أفاجئ الرب بفعل لا يعلمه؟

. نعم.

. وإيه قد ترك زمام الحياة بين أيدينا؟

. تلك مشيئته، ولعلنا الآن نجلس في ساعة الحساب. نشاهد حيواتنا الماضية في انعكاس بحيرة صافية. ما اقترفنا

من ظلم، وما جنينا من خير، لنشهد على أنفسنا.

. ثم يلقي بنا إلى أفواه التماسيح!

. ليس للخطاة أن يلوموا إلا أنفسهم.



. الآن تلقني باللوم على من اختار الخطيئة! ألسنا أحرارًا كما قلت؟

. أصرار دون إفساد حياة الآخرين.

. تجيد اللعب بالكلمات.

. بل أنبهك أن بيدك الأمر كله، بيدك الخير والشر، وبيدك تغيير مصيرك، إنما تلقين باللوم على الراعي في سمائه حتى لا تحملي وزر خضوعك وضعفك، اقترعي بابي، لن يخذلك.

. أنت تقول ما ليس فيك، انظر إلى حالك قبل أن تتكلم، أقرعت يومًا بابي؟ أوجدت من يجيب؟

. طالما قرعت الباب، حتى أدركت أنني أقرعه من الداخل، الصبر...

قاطعته.

. الصبر شيمة الكهنة، وقد نفذ مني دخلت إليوسيس بين يدي أرملة المراهبي.

. وعوضك الرب بروح صافية وجسد سليم ناضج.

. ألم تقل إننا نصلح مستقبلنا بيدنا؟ ماذا لو كنت قبيحة؟ أليس ذلك من صنعه؟

. كلمة «لو» لا معنى لها، والجمال اختبار أصعب من اختبار القبح.

. وكيف ذلك؟

. الجمال يجذب الحشرات، أما القبح فقد يدفع عنك الأعداء.

. لدى الكهنة دائمًا إجابات جاهزة.

. تملكين التغيير إن أردت.

. بل هي عربة تندفع من فوق تل ولا أملك إيقافها، أشعر بالضيق حين يغيب عني آرام، فمن دونه تستحيل إليوسيس



صحراء متخمة بالأسود الجائعة، وحين يعود، أنقر منه كآته الداء، بغيرته المفرطة يَكِيلُ عُنْقِي، وبطنه وشكّه يحاصرني، حتى خبا الشغف.

نظر في عينيها للحظات، وزن ما فيهما من كلمات، لم تنطق قبل أن يهمس:

. لم تعشقيه يوماً، أرحلي معي.

رمقته للحظات:

. لا أستطيع.

. تخافين الحرية.

. ليس في الفرار حرية.

. أرض الرب واسعة.

. لدي آرام الوقت، وكلايه تنقصني رانحتي أينما كنت، ربّاهما لخي تحرسني، ستحدني ولو في حجر ثعلب.

. إن رحلت فسأتكفل بحمايتك.

ارتعشت أناملها وتهدّج صدرها بنفيس مضطرب، غاصت في سواد عينيهِ وكلماته.

. وما الذي يملكه كآتهن إزاء كَلَاب متمرّس؟

. علمني أبي كيف تختبئ الثعابين أمام أعيننا.

. ما تقوله قد يكلفك عنقك وعنقي.

. عنقي كان بين يدي أبيك فأنقذها.

. ترد الجميل؟



أنت روح تستحق الجهد.

ساد صمت طويل، ثم أردفت:

أخاف الآمال السعيدة خوفاً من قصص المستنقعات.

إذا كان السبيل الوحيد للخلاص مستنقعا، فليست تملكين إلا خوضه.

قامت فسألها:

ستعودين إلي آرام؟

أردفت بعد صمت:

لم أعد أعرف.

قالتها وخرجت. سارت في ممر الغرف المضي إلى السلم. ساقها ثقلاً حديد ورأسها باحة واسعة مزدحمة بـ كلاب تنبح. زفرت تبديداً لخوف قشعر جلدتها قبل أن تقابل الحسد المفتول. اقترب ولم تميز من الظلمة ملامحه. أبطأ. احتك بكتفها عن قصد. سمعت أنفه يستنشق رائحتها قبل أن يتعد. نظرت خلفها مرة فوجدته ينظر ناحيتها. في المرة الثانية التفتت فرأته ينقر باب كاي. ثم التفت رأسه ناحيتها فأسرعت بالنزول. في الغرفة وبعد لحظة فتح الباب كاي بابتسامة ما لبثت أن تبددت.

طال شعر الكاهن!

على الضوء الواهن ميز كاي جسداً ضخماً:

من أنت؟

تلقي كاي دفعة ألفته أرضاً:



. كان يجب أن أقابلك حين زرتَ قُدس الأقداس.

. أنت...!

. شاءول، جزار نوق بحي دلتا، ومُصارع بخليّة الباليسترا.

. أدركتُ حرفتك من ضربة سكينك في رقبته الكاهن.

رفع شاءول يده المربوطة.

. لقد تم تأنيبي على تلك الضربة من سمكة حادة الأسنان.

. كيف عرفت بمكاني؟

. فئران اليوسيس لا تستسيغ الأغراب بين يوم وليلة. ما إن تسال عاهرة بالطريق عن غريب توغل في زيارة ولم يخرج.

حتى تتبرع بالإجابة. خاصة أنني من الزبائن الكرماء.

. جئت لتقتلني كما قتلت الكاهن الأعظم؟

. أو تتفق، برديات الكاهن مقابل حياتك.

نظر كاي حوله بحثاً عما يدود به عن نفسه فلم يجد ما يكافئ خصمه. ابتسم شاءول.

. بحق الإله لا منفذ لك، إن حبيت فيمشيئتي.

. وكيف أتمكن؟

. علينا في بعض الأحيان أن نقامر.

قالها ثم نظر للبرديات.

. هل تلك هي كل البرديات؟





أجابه كاي

. عليك في بعض الأحيان أن تقامر.

ابتسم شاءول وسلت سكينًا من حزامه.

. كل النوق عاصية، لكنّها تبرّك في النهاية.

ولعب شاءول بالنصل بين كفيه في سرعة فتراجع كاي والتقط البرديات. قاست عيناه المسافة بينه وبين الباب. مرّ السُكين أمام رقبته فانتفض. تفادها في سرعة فارتطم ظهره بالسّراج وتبعثرت البرديات. التقطه رغم سخونته وقذفه يأسًا في وجه شاءول، صدّه فانفجر بصوت مكتوم وانشر الزيت الحارق على ذراعه وطار سكينه. وانقلبت الابتسامة غضبًا كزّ على أسنانه ثم انقض على كاي. رفعه فألقاه أرضًا. سمع الأخير عظامه تنقّ قبل أن ينقض شاءول عليه. أطبق على عنقه فقطع الهواء. تحشّج صوت كاي والحبس. تلوّى جسده بلا جدوى تحت الحمل الثقيل. ينظر للعينين اللتين تقتلانه وللبرديات التي تقترب منها النار. اعتصر صدره ألم رهيب ثم راع البصر وغامت الرؤية حين التفت أصابعه بصندوق كنوس نحاسية غسلها صباخًا. حاد بأنامله حتى أمال الصندوق فأسقطه والتقط واحدة. ضرب بها وجه شاءول فأصاب أسفل فكه. نرقت شفّته فلدّس دماءه واشتعل الجنون في عينيه فازداد انكفاءً على الرّقبة يسحقها. هوى كاي بالكأس النحاسية مرات على رأس المصارع فلم تهن القبضة. بل وهنت الأنفاس في رنة كاي. رفع يده بضربة هشة أخيرة حين ارتعشت عين شاءول اليسرى بغتة قبل أن يخرّ فوق صدر كاي كجدار من اللحم.

شهيق...

ثمّ أراح المصارع من فوقه. بصعوبة. ناديا كانت واقفة خلفه منقطعة الأنفاس من الانفعال وفي يدها إبريق نحاسي كبير اكتست حافته بالدماء. رمقها كاي للحظات ثم اندفع ليطفئ نارا أشعلها السّراج في أحد البراميل والتقط البرديات المبعثرة.

. ماذا تفعلين هنا؟



كنت أجيب عن سؤال أثار فضولي، ماذا يفعل شاءول هنا؟

أتعرفينه؟

مُصارع الباليسترا وحفيد راعوث كبيرة حي دلتا من ابنتها، وصديق آرام.

نطق اسمها فارتعشت:

هل؟ هل قتلته؟

التقط كاي من الأرض السكين التي كادت تذبحه، وضع يده على صدر غريمه يستشعر حياة فارتفعت وانخفضت في نفس واهن، التفت لناديا التي ملأها الهلع:

إنه حي، لن نستطيع البقاء هنا.

سأتي معك.

لم يملك إجابة، نظر لغريمه ثم دس السكين في إزاره وجمع البرديات في عجلة فخرجا.

الحانة كانت غارقة في صمت، براميل النبيذ فارغة والخراسي مرصوفة فوق بعضها، نرالا السلم فاضطربت أطراف الساقبي المستقر في ركن، لم ينبس بكلمة، نظر إليه كاي فقرا في ملامحه الرعب، ضم البرديات تحت جناحه ثم خرجا.

---

«(أ) جرهم» قبيلة قديمة تنتمي للعرب اليمنيين القحطانيين.





لم يكذب الليل ينحسر أمام زرقه الفجر حين ابتعد كاي وناديا بلا وجهة، تجلبا أجساداً ترنحت بعد سهر، نداءات قوادين يلفون شياكهم أملاً في صيد، ونظرات عاهرات استعربين رؤية ناديا دون آرام، أخفى كاي البرديات في ردائه ومد خطواته محاولاً السيطرة على روع يملأ صدره، رأسه يعمل بأقصى طاقته لإيجاد مخرج.

. أتلجأ إلى المعبد ونطلب الحماية من الكهنة، اليسوا بأصدقائك؟

استدعى وجه نائب الكاهن وهو يصرخ: «ها هو الملعون، ها هو قاتل معلمكم»، ثم همس:

. الكهنة خلف أسوارهم لا يرون سوى ما يرى صاحب العرش، لن تصدقوا كاهناً طويل الشعر يسير في حوارٍ اليوسيس ومعه فتاة.

ثم التقط صوت موج البحر:

. ماذا عن مركب يقلنا لنشاطي بعيد؟

. ما جدوى الاختيار والكلاب تتبعنا؟

مشيا دون أن ينظرا خلفهما حتى غاصت الأقدام في الرمال، بحث كاي بعينه عن سفينة حتى رأى واحدة على بعد فحاً الخطى تجاهها، يرسمان قصة تشفع لهما عند صاحب المركب كي يضمهما إلى ركبها، كان ذلك حين التقطت



أدنا كاي وقع خطوات تركض من خلفهما، خطوات ثقيلة غاضبة. لم يفكر، دفع ناديا جانباً والتفت ليستقبل جسد شاءول، طائرًا يثقله ساقطاً فوق كاي، دفنه في الرمال صارخاً صرخة نفرت طيور الباتروس الواقفة على الصخور، قبل أن يثقوس ظهره وتحتظ عيناه، أصدر خواراً أسال لعابه، نظر لكاي بغضب تحول للألم رهيب، ثم انفكت أعصابه دفعة واحدة.

لحظات مرت قبل أن يزيحه كاي جانباً، تأمل سكيناً انقلب على صاحبه فشق صدرًا واخترق قلباً، وجهًا لم يكد يعرفه حتى ودعه، تابع بقايا الروح ترتعش في الأنامل، لا تصدق أن صاحبها قد قرر الرحيل، ثم سكن كل شيء، كفت الرياح عن الصفير وتوقف الموج عن إلحاحه فارتمى كاي على ظهره، أفاقت ناديا من مفاجأتها فقامت تنظر حولها بحثًا عن شاهد وكانت الطيور وحدها شاهدة.

اقتربت من كاي فساعده على الجلوس:

اخلع رداءك، الدماء خضبت.

احتضن بردياته في شroud فساندته حتى قام، مشى وراءها فوق الرمال مقاوماً التعب، ينقل بصره بين قنيل سقط وسماء لم تعد تتكلم «لم اخترت ظهري ليحمل الأوزار ويدي لتلطخا بالدم؟ أي ذنب اقترفت كي أصير ملعوناً في الأرض؟ وأي إرث أوريثني؟ قصة رجل يدعى موسى في قوم من الأعداء البائدين؟»

. يا للعبث!

صرخ بها كاي ثم خر بركبتيه في المياه المالحة، رفع البرديات وسط ذهول ناديا:

. ماذا ستفعل إن مرقنتها؟ هل ستجيب عن سؤالي؟ أجيني.

رمقته ناديا في خوف:

. كاي، ماذا تفعل؟

لم ينبس بكلمة، فقط تأمل الموج يغسل الدماء عن فخذيه، أغمض عينيه واستعاذ من شر «ست» واستعاذ وجهه



مُعلِّمه فاستغفر، خَرَّت بجانبه ناديا، وضعت أناملها على كتفه، جذبته إلى حضنها، بكى فيه بكاءً حارًّا حتى تخللت السَّمَاءُ بوادِر النور فقاما، ضمَّ البرديات مُنظفًا الرمال عنها قبل أن ينظر وراءه متأملًا الخطوات التي خَلَّفَها:

. لننزل البحر، سيظن من يقصُّنا أننا ركبنا قاربًا.

لَفَّت ناديا رداءها والتقط كاي جذعًا القِته الرياح، ربط فوقه البرديات بحبل من اللحاء ثم مدَّ يده إليها، نظرت في عينيه بتردد فأردف:

. عليك أن تثقي بي.

القت أناملها في كُفِّه فنزلا المياه الباردة، سبحا غربًا وراء الجذع الطافي حتى أنهكت رنثاهما فخرجا عند بقعة قريبة من رصيف الميناء، ارتميا على الرمال يلهثان من فرط الإجهاد، استجمعا قوتهما ففكَّ كاي البرديات عن الجذع ثم سارا حتى بخارة يحملون جوانات من الحيش إلى باطن سفينة تستعد للمغادرة. بعد حديث قصير مع الربان وافق على ضمِّهما نظير الطَّعام ورحلة ثلاثة أشهر تقدِّفهما إلى بلد بعيد. ألقى لكاي قميصًا وأشار للجوانات، وقاد ناديا لمطبخ فيه ثلاث نسوة.

اندمج كاي في رفع الجوانات بكدمات مسحها بالملح حتى انتهى، ثم صعد إلى سطح المركب ونواري خلف صار، مراقبًا البقعة البعيدة التي ترك فيها جسد شاءول، تلك البقعة التي اردحت بالفضوليين من بعد الشروق، قبل أن يحضر مردخاي في موكيه، حثا لدقائق طالت أمام الفنى الصَّريع ثم قام يقرأ خطوات القتيلين التي أخفتها مياه البحر، ثم أشار بيده غربًا حيث التيار يجري، وفي سرعة لا تليق بعمره المتقدم اعتلى صهوة جواده ومن خلفه ركض الجند ناحية رصيف الميناء، تفقدوا السفن فأمرؤا ربانها بانزال البحارة فلم يعتز لكاي على أثر. وحين همَّ مردخاي بالرحيل سأل أحد البحارة عن السفن التي غادرت فأشار للبحر:

ثلاث سفن غادرت منذ الشروق.

هز مردخاي رأسه وضيَّق جفنيه مسحًا للآفق فلم تتعثَّر عيناه في صار.







بعد الظهيرة تجمع الناس أمام بيت السيِّدة «راعوث» في صمت مهيب، انظروا خروجها حتى برزت من الباب في رداء أسود تتسند ذراع مُردخاي، بدت مُتماسكة رغم فداحة الخير الذي أتاها. تقدّمت الجموع حتى المعبد، صعدت السلالم بصعوبة قبل أن تدلف إلى غرفة تمدّد فيها جسد حبيبها شاءول في نابوت، رفعت الكتان من فوق وجهه، مشيت بأنامل ترتعش على خده ثم لامست حبينه في أسى قبل أن تنحني على جرح صدره الغائر، حاول مُردخاي أن يمنعها فرمجت، ابتعدت للوراء خطوة حين سالت دموعها وتحشرج صوتهَا:

.لقد مر السكّين من بين الصلوع إلى القلب، مرّق أسفله، الصغير تالم الما رهيباً قبل أن يموت، يا شاءول... ماذا فعلوا بك يا صغيري؟

خرجت كلماتها بآلم قبل أن تلثم جبين الحفيد وتلتفت لمُردخاي.

.من يستطيع قتل مُصارع يا مُردخاي؟ أحد شباب الباليسترا؟

نظر في عينيها بصمت فأردفت:

. تخفي أمراً.

. لا يا أمي.





.والآن تكذب.

صفعت وجهه فأحسني رأسه في أدب وأغمض عيني، تماكنت نفسها:

. منذ شهور أدركت أن شاءول يدفئ فراش ولي العهد، هذا لم يحدث إلا تحت أنفك، لم أعترض، نحن في حاجة لدعم

الملك القادم أيًا كانت التضحية، لكن، يقتل شاءول؟ يسكينه؟ من نواجه؟ من نواجه يا مُردخاي؟

.الكاهن الجبتي.

.وما شأنه بشاءول؟

رمقها في صمت فأردفت:

.أرسلت شاءول في طلبه فقصي عليه؟

وخزتها الكلمة فقالت والاليم يعنصرها:

.لم يكن من المقرر أن يحدث هذا، رأس أفعي ينقطع فينمو لها رأس آخر

.لم أكن أعرف أن لمانيتون تلميذًا دنسًا.

صرخت فيه:

.لا تنعته بالتلميذ حتى تحز عنقه.

ثم نظرت راعوث لحفيدها ومدت يدها فالتقطت من صدرها كيسًا من القطيفة، فتحتة وأفرغت أوراقا معطرة مخلوطة

بحنوط الأجداد على صدره البارد ثم التفتت لمُردخاي:

.لا تطلع أختك على جسد ابنها.

.تكفلت بذلك، أخبرتها أنه سقط مرهقًا بعد مُصارعة.



ولیکن موت شاء ول کموت شمشون. هذم المعبد علی نفسه. وعلی أعدائه.





في اليوم الثالث والسبعين لموت الملكة وضع جسدها في تابوت مرصع بالأحجار، خرجت الجنازة فخمة مهيبه تليق بفرعون ملك هوارة، صاحب المضر وقائد أحلاف العماليق في شمال إيجيبت، تقدم الموكب عازقات الناي الحزين، حاملات الزهور، ثم جند أشداء يحترقون عربة تحمل التابوت ومن خلفهم «فرعون» على محفة ذهبية تحت مظلة، يجلس في جمود وقد خضب دقنه المجدول وارتدى حلته البرتقالية الزاهية وتاحه المرصع بالفيروز، من ورائه جلست وحيدته «راحيل»، ثم موسى، يسير مقاطعاً رأسه في خشوع بين الوفود من رؤساء العشائر، وبعض حكام الأقاليم الجبتيية الضعفاء الذين وافقوا على السجود لفرعون اتقاء لبطشه من بعد مقتل حاكم الجبتييين «سقنن راعي».

ما إن انتهت مراسم الجنازة وأغلقت المقبرة حتى عاد الملك إلى قصره وانفضت الجموع، كان شيئاً لم يكن، اتجه موسى إلى بيت مرضعته السابقة وأمه الحقيقية، استلقى في الغرفة التي ألقي منها يوماً إلى مجرى النهر، يجتر الحكاية التي أدلت بفكه السفلي إلى الأرض عن امرأة عاشت معه كمربيته حتى بلغ مبلغ الرجال، قيل أن تصوير أمه التي بحث عنها في كل يوم.

أغمض عينيه وأنصت للمياه الجارية قبل أن يدخل أخوه هارون، وضع يده على جبينه ففرع:

« عليك أن تفيق من سكرتك يا أخي.



. يهون النوم علي أخبار الأيام الماضية.

. وجودك في هذا البيت ليس فيه مصلحتك.

. لم أعد أعبأ.

. كيف لا تعبأ؟ أمير القصر ينام في خرائب بني إسرائيل! ستحذر علي نفسك وعلينا الشر.

قام موسى ينظر للنهر الجاري.

. لا تخادع نفسك يا هارون، ماتت من كانت تحميني، اليوم علي أن أواجه جنون المعتوه وشططه.

. ماذا بعد ادعائه الربوبية وتصديق المخابيل من رؤوس العشائر؟

. يكفي أنه السبب في رؤيتي أمي كخادمة لثلاثين سنة خلت.

. كان هذا أفضل من أن تصير طعاماً للتماسيح.

. أريدها أن ترحل عن القصر، فوراً، كفاهها ذلك.

. كل شيء بأوانه، ماذا تنوي؟

. ربّما أعيش هنا لأرعى ما تبقى من أياها.

. لن يقبل فرعون وجودك في خرائب بني إسرائيل، الملاً يترنص بك ليخبروه.

. لست وريثاً محتملاً للعرش.

. رأس العجل منقطع النسل من بعد راحيل، وهو لا يكف عن الفتك بكل من تفوه بكلمة عن ذلك أو جال به

خاطره، إن مات فجأة أو قتل...

قاطععه موسى.



لن أرت عرشاً مخضياً بالدماء، ولن يؤذيني وأنا على قرابة فارون.

حتى وإن أخبرته، ففارون لا رب له، خنزير لا يعبأ بقومه، سيدفن كل فرد من بني إسرائيل في مناجمه إن كان في الأمر رضا فرعون أو دراهم إضافية.

ضرب موسى الحائط براحتة في عصبية فأردف هارون:

تمالك نفسك، الغضب خلة لا تأتينا إلا بالسوء.

ضاق صدري، قلبي لا يرى نهاية لذلك الجنون.

لكل طاعة أجل.

سيقتضى على القبائل بالهلاك قبل أن يهلك، الجيبتيون في الجنوب يزدادون قوة، «خامس» ابن «سقنن راعي»

يتوعد فرعون بالهلاك منذ قتل أبوه في المعركة

يوماً ما سيسترد الجيبتيون ما نزع منهم.

احتد موسى:

وهل علينا أن ننتظر الهلاك تحت عرش رجل مجنون؟

أخض صوتك يا ابن أم، ما باليد حيلة، فقد أوتد في جذوع النخل كل من تولي واعترض.

يكاد قلبي يتفق مع الجيبتيين، فتلك أرضهم سلبت منهم غدرا، من يستطيع إنكار مذابح الرعاة عند

دخولهم؟ كل ما يحزنني أن بني إسرائيل سيكونون أول الهالكين، سيدفع بهم فرعون إلى المقدمة ليثبط

همم الجيبتيين ويُرهبهم، قبل أن يتدفع من ورائهم بجنده وجند هامان ومن ورائهم القبائل المغيبة.

بني إسرائيل يعبدون أصحاب العروش، حتى لو استحيوا نساءهم وأذلوا رجالهم، ثم إذا ذاقوا النعمة تمرّدوا،

سرقوا وفسدوا، تلك شيمتهم، لا تنس قتلهم جدنا يوسف طمعا بعد تحريض رعوس القبائل، والآن يتمسحون



في اسمه وينسبون أنفسهم إليه.

. لا أكاد أصدق أن قارون يساعد فرعون في سحق المستضعفين من بني إسرائيل.

. من لا يعرف الرب لا يحركه الضمير. وقد انقطعت رسل السماء من بعد يوسف غضباً عليهم بعد قتله.

. لا تنتظر من الجياع معرفة الرب.

. معيشتك في القصر ربت فيك عاطفة على الضعفاء. لكن تذكر. إن العقرب تبدو حشرة ضعيفة. حتى تهاجمك.

. هم في النهاية بشر قست عليهم الأيام.

. إن عشت فيهم ما قلت قولتك. بنو إسرائيل قوم يستحبون العمى على نور النهار. لقد قتلوا يوسف الذي أكرمهم.

. قتلوه لجهلهم.

. بل لطمع في نفوسهم وجقد. ورغبة في المزيد من القوة والنفوذ.

زفر موسى.

. كم أُرغب في الرحيل إلى مكان لا يعرفني فيه أحد.

شرد هارون للحظات ثم ربت على كتف أخيه.

. لم لا تذهب إلى الشرق. يقولون إن من زار معبد «أون» وجد السكينة. وامتلاً صدره بعلم وحكمة الجيبتيين.

فكهنتهم لم يغادروا المعبد منذ غارت القبائل على الأرض الجيبتية. يتوارثون الحكمة ويحفظون في صدورهم

أسرار السماء والأرض. اذهب إلى هناك وامتلاً قلبك وأعرض عن الجاهلين.





مَعْبِد «أُون»!

بعد أيام غادر مُوسَى هُوَارَةَ قاصداً المَعْبِد العتيق عملاً بنصيحة أخيه، عَبْرَ النهر قبل أن يقابل سور المَعْبِد،  
طرق باباً ففتح خادم، سقى موسى جرعة ماء قبل أن يُغلق الباب من ورائه.

في المَعْبِد قضى مُوسَى ثلاثة أشهر، فقد خلالها الشَّحْم وبرزت عظامه، خلق رأسه وذقنه على طريقة  
الجيبتيين، مارس الصَّوم عن الكلام، ثم بدأ التأمّل وتصفية النفس على صَوْت التَّسْبِيح باسم خالق الكون  
الأوحد قبل أن يتلقّى حكمة إدريس المدونة في كتاب «سر الملكوت»، طابت نفسه وسكنت روحه، وبدا له أن  
تلك البقعة من الأرض الساكنة، هي الملاذ، حتّى أتاه الخبر يوماً مع رسول من هُوَارَةَ: «ماتت أمك بعد مرض  
قصير»، بكى مُوسَى بكاءً حاراً على مربيته وأمه، ثم اشتعلت جذوة غضب في نفسه لم تغلخ أسوار المَعْبِد في  
احتوائها، ودّع الكهنة إلى ميعاد قريب ثم اتخذ طريقه إلى المدينة، دخل مُتَجَنِّباً النظرات يخفي رأسه تحت  
قلنسوة مُحاولاً ألا يثير الانتباه، اقترب من بيته فالتقط أصداء شجار بالجوار، ثم ميّز استغاثة:

ها هو مُوسَى، ها قد أتى من لا قبل لك به.

التفت مُوسَى فوجد رجلين يفتتلان ومن حولهما جمع يتخلل، اقترب مُحاولاً أن يتبيّن من يناديه فهرع إليه رجل  
أمسك بعضده في قوة:

أغثني من ذلك المَعْتَو.

من أنت؟

أنا رافال، من بني أعمامك، وهذا الرجل من قبيلة الحقة يريد أن يفتك بي، (ثم همس:) قبيلة يهودا.

كان ذلك حين اقترب الأخير:

لا حامى لك اليوم.

قف مكانك.



صاح موسى في الخصم:

. اغرب عن وجهي إن أردت السلامة.

اندفع الرجل ناحية موسى الذي تحفّر فاستجمع قبضته ودفعه في صدره. تلقى الأخير الضربة فترنّح قبل أن يسقط على الأرض، بلا حراك، سكنت الجموع بغثة. اقترب موسى من الراقد، انحنى على الصدر، وضع يده على الأنف فلم يستشعر الأنفاس. تعالت المهممات: «قتل الرجل، قضى عليه الأمير بضربة واحدة». تأمل موسى الوجوه التي تحملق فيه، قبل أن يصيح راقال في الجسد الهامد:

. حذرتك ولم تستمع فأرداك من لا قبل لك به.

قالها ثم اختفى بين الجموع التي رشقت موسى بنظرات صامتة قبل أن يتعبد.

في بيت أمه جلست مريم في حزن وبين يديها طفلتها الصغيرة، ما إن رآته حتى قامت واحتضنته:

. أكانت الميتة هيّنة؟

سأل موسى.

. سعال طويل أنهك قواها.

بكى موسى في حضنها وارتعش.

. هوّن عليك يا أخي، رحمها الرب من شقاء لا قبل لها به.

. عاشت سنين تخدمني في ذلك الشقاء..

ابتسمت مريم بأسى:

. عاشت سعيدة برؤياك في كل يوم تكبر في رغد من العيش. لقد فتحت لنا أبواب الخيرات بإقامتك في القصر.



خرج هارون من غرفته، احتضن موسى ثم نظر في وجهه:

. لم أكن أنوي إرسال الخبر إلى المعبد، لكنك لم تكن لتسامحني. آخر كلماتها كانت تذكرك، وآخر دعوها كانت لك.

. أين أبي؟

. منذ ماتت أمي أمرته راحيل بعدم مغادرة القصر شفقة على سئته.

هز موسى رأسه ولم يعقب، التقط جلبية في الجوار فأرشف السمع خلف شباك مغلق، أردف هارون:

. ما بك يا أخي؟

. لقد قتلت رجلاً.

جحظت عينا هارون وشهقت مريم:

. يا إلهي.

. ماذا حدث يا موسى؟

قصّ موسى الأمر فرمقه هارون والناعت مريم وهي تتابع الناس ينظرون من خلف خصاص الشباك.

. ويلك يا موسى! أقتلت رجلاً من قوم يهودا؟

. لا تلمني يا هارون، إن ما بي من غضب يكفيني لهدم جبل بيدي العاريتين.

. حسبت يوماً أن المعبد سيهذب قلّة صبرك.

. إنما هي مشاجرة دافعت فيها عن رجل يستغيث. سأذهب إلى أهل القتل، وسأدفع الدية.

نظر هارون لأخته ثم لموسى:



. اقض ليلتك بيننا، وفي الصباح نتباحث الأمر.

في اليوم التالي لزم موسى بيته ولم يبرحه، ينظر من بين خصاص الشباك إلى الطريق الذي خلا من الغرباء المتربصين، حتى توسطت الشمس السماء وإذا بجلبة تتصاعد وصدى عراك، ثم نودي اسمه ثانية، من نفس الحنجرة التي نادته أمس، خرج موسى رغم تحذيرات مريم وصد هارون:

. لا تخرج يا ابن أم، ما حدث بالأمس لم يمت.

. إن كان الأمر قد عُرِف فلم لم يفرغ أحد باب البيت؟

. لا تجعل غضبك يسوقك.

. لن أبقى في البيت كالقُط الخائف، أتريد أن أوسم بالجبن وهناك رجل يستغيث؟

قالها موسى ودفع الباب، اقترب من الحلية فإذا برافال ابن العم المزعوم يصرخ وقد أمسك بئلابيب رجل:

. يا ابن العم، ها هو آخر يريد ليفتك بي، يريدون ليكسروا شوكتنا. إن لم تعنني لن تقوم لبني إسرائيل قائمة بعد اليوم.

اقترب موسى فأزاح الخصم من فوق رافال ثم همس بحدة:

. ماذا دهاك؟ أنخلق في كل يوم صراعا؟ أما كفاك الأمس؟

قام الخصم من الأرض واقترب فتحفز موسى ورفع قبضته:

. ويلك، أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلا بالأمس؟

شحب وجه موسى:

. أنا، لا.



. ارتعش يا ربيب القصر، فالخبر يملأ السَّمْع في المدينة.

نظر موسى في الوجوه المحيطة به ثم رجع لخصمه:

. قد كنت أدافع عن رافال.

. لقد سمعنا عنك كثيراً، إثارك للمستضعفين وكرمك فيهم، لكن الآن، انكشف قناعك، أنت لا تريد الإصلاح كما

زعمت، أنت تريد أن تكون فرعون الجديد.

رجع موسى للوراء خطوة وانحنى هامته فصاح رافال:

. هذا الرجل يريد أن يفتك بي، اقتله يا موسى.

التفت إليه موسى:

. يا لك من غوي لا تنوي إلا الفتنة.

. بل أنت الجبان تتراجع عن نصره لحملك.

حدده موسى بغضب ثم انسحب.

بعد ساعات انهار الطريق على الباب حتى فزع أهل البيت. فتح هارون فوجد «حزقيل» قريباً ذا شأن يعمل في

قصر الملك:

. أين موسى؟

قالها بهمس فجذبه هارون وأغلق الباب قبل أن يخرج موسى من غرفته، نظر إلى حزقيل:

. أقتلت رجلاً يا موسى؟

قال موسى:



إنما هي دفعة أفضت إلى موت.

أردف حزقيل:

القتيل هو حاران؛ أحد أبناء عم هامان من قبيلة يهودا.

امتقع وجه هارون:

رحمّتك يا إلهي.

يجب أن ترحل عن المدينة.

قال حزقيل.

بل سأواجه ما اقترفت يداي.

أمسك حزقيل بتلابيب موسى:

اسمعني جيدا، للثو أثبت من قصر فرعون، كان الملا مجتمعين وخبث موضع الحديث، يذكرونك، ياتمرون بك.

توغرون صدر الملك وبطلبيون النار للقتيل، الخلاص منك بات أمرا محتوما وقد قدمته لهم على طبق من ذهب.

يريدون أن يستأثروا بصاحب العرش، فكلما طال الأمد بنساء لا تنتفخ بطونهن توحشوا كالضباع.

همس هارون:

يقتلون الأمير حتى وإن دفع دية؟

أجاب حزقيل:

التخلص منك أسهل في غياب الملكة، كما أن زيارتك لمساكن بني إسرائيل استفزاز لصدورهم.

ساد الصمت لحظات قطعها حزقيل:





.الوقت يمر.

قالت مريم التي وقفت قرب الباب:

. ارحل يا أخي، ارحل، لا أشتُمُ خيراً حين أسمع اسم هامان، ذلك المَداهن الخبيث، سيقُتلُك كما يقتل سيده  
الضعفاء، بلا قلب.

.إلى أين يا مريم فالأرض تضيق من حولي؟

.عُدْ إلى معبد «أون».

صاح حزقييل:

.لن يكون «أون» أمناً، لنرحل شرقاً حيث تضعف قبضة فرعون.

.إلى متى؟

قال هارون:

.حتّى ينكشف الغم أو يأتي الفرّج من الرّب.

نظر موسى لأخيه ولمريم:

.سارحل.

.اغتمم البدر، سر في ضوئه قبل أن يخرجوا في طلبك.

دخلت مريم إلى غرفتها ثم عادت بثمرات في صرة. قبّلت جبين أخيها الذي تندي عرقاً فقبّل يدها بدمع  
محبوس ثم شكر حزقييل واحتضن هارون بحرارة. قبل أن يرحل. شرقاً.

.حسبتك خصياً.



- زفرت ناديا وهي شاردة في انعكاس القمر على سطح المياه فتوقف كاي عن الترجمة، التفت إليها فندهشاً فأردفت:
- . حين نزلت البحر رأيت جسدك دون قصد.
- . ليس كل الكهنة خيانتاً.
- . ولیم لم تردّ كلماتي في الحانة؟
- . ليس بك حاجة أن تعرفني.
- . لم أكن أعرف أن الكهنة ينتقمون بالكلمات!
- . الانتقام شهوة لا تروقني.
- . ما بال قتيل الشاطئ؟
- . هو من اعتدي، قد رأيت بعينيك.
- . اقتربت فجلست بقربه، تأملت ملامحه.
- . أنت هالك لا محالة.
- . ما قل ودل.
- . شاءول هو ابن أخت رئيس الخاصة الملكية.
- . ابن أخت... مردخاي؟
- . خبرة شباب حي دلتا، ما شأنه بك؟
- . سحب كاي شهيقه بصعوبة.



. هذا الشخص قتل معلّمي، الكاهن الأكبر لمعبد الأسوار السبعة بسمثود.

. حين رأيته أول مرة عرفت أن وراءك أمراً مريباً، هذا ما يحملك إذن على ترجمة تلك البرديات؟

. آخر ما ترك معلّمي وسبب مقتله.

. أتحوي سحراً أم مؤامرة؟

. قصة رجل عاش منذ ألف وثلثمائة سنة بين قبائل الغزاة الشرقيين، رجل يدعى موسى.

. موسى؟ ولم يقتل رئيس القصر كاهناً من أجله؟

. ذلك ما دفعني للترجمة، أن أعلم السبب.

. تعلم السبب! أنت في قلب مناهة كمناهة الملك، تنقصي أثر قاتل عن طريق ترجمة إضمامة برديات تحوي قصصاً

بائدة! ذلك عين النجون، لقد لبت انتقامك وشفقت صدر من قتله. الآن عليك أن تنجو بما تبقى من حياتك.

. ليس للانتقام مكان في قلبي. إنما الرغبة في إتمام وصية معلّمي وكشف ما كانوا يسترون، لقد أوصاني بذلك. في

الحلم.

تقلصت جبهة ناديا:

. حلم! أتتبع حثفك بسبب أضغاث أحلام. أنت ذاهب العقل.

. ما أتاني لم يكن حلماً، بل رؤيا تتحقق في كل يوم.

. دجل الكهنة ومريدي الإله. كنت أظنني هاربة إلى مصير أفضل.

لملم البرديات واستلقي على ظهره المليء بالكدمات فأردف:

. نويت مساعدتك حتى تلتقي والدك، لكنك أتيت في لحظة فارقة. أنا مدين لك بحياتي.



أنهت تجديد شعريها في ضفيريّين واستلقت بجانبه تنظر للنجوم ثم قالت بيحّتها المميّزة:

. كيف كانت حياتك وراء أسوار المعبد؟

. أن نخدم الإله ونساعد الناس هي غاية الغايات.

. ألا تراودكم الأحلام بالفتيات؟

نزل عليه صمت الكهوف، لحظات، ثم أردفت:

. أم إنكم في المعبد تفعلونها...

قاطعها:

. لا، لسنا كذلك، وبعضنا يتزوج.

. وأنت، ألم تتبع هواك يوماً؟

. الهوى ضعف، عصارة نخالط الدم فيعمى العقل

. ذلك ظني، هو مرض يزول بزوال العاشق، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب

ثم ساد الصمت حتّى أردفت:

. هل...؟

قاطعها كاي:

. في المعبد الوقت كله للرب.

. وكيف عرفت أنه ضعف؟



. ليس عليك أن تضعي يدك في فم التمساح لتعرفي أنه سيقضمها.

. تشبه الهوى بغم تمساح!

. ربّما خائني التعبير.

. الهوى كالجوع والعطش.

. عشت أياماً دون ماء أو طعام.

. قلت أياماً، لا أتصور حياة دون هوى.

. أنت أدري منّي.

. كلماتك تحمل ازدياء.

. لا أقصد شراً.

. لا ألومك، فأنت ذكر، ولا تراني إلا متاعاً للرجل.

. نحن سواسية أمام الرب.

. الربّ ذكر، لم يختَر رُسُلُه إلا من الرجال.

. لأنّ عَصَاة العاطفة لا تغادر أجسادكن كما تغادرنا حين، تنتهي، منكن.

. ما نحن إلا حاويات للأطفال.

. الربّ أزلي، لا يحتاج لولد.

. الرجال لا يعاشرّون النّساء من أجل الإنجاب فقط.



. أنت مشوشة.

. وأنت خائف مما قلت.

. راودتني الأسئلة من قبل أن أعيش في المعبد ولم تزل.

. أتحد إجاباتك مقنعة؟

. أحسبها كذلك، حتى تنجلي الحقيقة، الروح دون الإيمان، كالغريق في قلب مياه متلاطمة.

. لا أنكر أن أيام الإيمان كانت مريحة.

سكت الكلام فرفع كاي عينيه إلى السماء الساخنة. تذكر ليالي سمنود حين كان يتسلق سور المعبد ليستلقي فوق سطحه، يتأمل النجوم والخطوط الخفية التي تمتد بينها. تتصل ثم تنبض. ترسم نهراً وحيوانات وجنوداً وساحات معارك ورماحاً. الآن، باتت ترسم فتاة. خميرة. وحشية. كالفرس الحرون. تتثنى أفلاكها بلا لحام. الهلال ضحكها والشهب ضلالتها. تبفت النار في العروق ثم تصفرها بأناملها الصغيرة في براءة. فتصنع عقدة تستعصي على بخار. «لقد وهبتني يوماً آخر في الحياة بعدما تركت عشيقاً شهيقه زفيرها. وصدرة أرضها. كي تشاركني رحلة موت في بحر مظلم! أما كان لها أن تأتيني المعبد في سلام لتقدم النذر والصلوات فتلتقي أرواحنا بعيداً عن برك الدماء؟ وراء النخيل الباسق. خلف السواقي الضخمة وعلى صفاق النحيرات. استلقي بجانبها. ثم أسير على فوهة العشق ثم... ثم أهوي في عينيها بعد أن يمزقني رمش من زموشها. أغرق. أنلاشي. بلذة. وبطولة يسردها العشاق. وتلعنها جدران المعابد. قصة عجيبة عن كاهن تتبع نور الراعي حتى كاد يحترق. ثم غشيت جنة. في أهدابها عطر. يصرع غيلان الصّاري.

تلامست الأصابع فلم تتناهر. نظر إليها فالتفتت. ابتلع ريقه فابتسمت. استندت على صدره بجراة لبؤة. اقتربت. نظرت في عينيه فأغمضت. ثم تركت شفيتها فهوت بثقلها على شفتيه في قبلة أنسته أسوار المعبد والبرديات والبحر والنجوم والظلام. وكاي منذ ولد حتى لحظات فانت. أضيت السماء بشهب لها وهج وفارت المياه فشقت قاع البحر عن سمك له العجب. ثم ابتعدت. راقبت عينيه اللتين فتحهما باسترخاء. حدقتيه اللتين اتسعتا. ثم ابتسمت بدلال. ودون





أن تلتقط أنفاسها، ودون أن ترحم همّست:

. هل تريد واحدة أخرى؟

كان ذلك قبل أن تلتقط أذناه صوت مجاديف تُصَفَع المياه وجلبة بين البحّارة، قام فلمح سفينة كبيرة تشقّ البحر الهادئ، متّجهة نحوه، استيقظ بعض النائمين فتوّاري كاي وناديا خلف بكرات الحبال الضخمة وعلا السطح ربّان السفينة، نظر في عدسته ثم التفت لمُساعدته:

. ألق المرساة واحصر الرّجال، إنهم جند الملك.

اندفع الدم إلى رأس كاي، نظر لناديا التي تملكها الهلع.

. لا مفر، سيُدركوننا.

بكفيه أحاط وجهها:

. أيّ ما كان، لا يجب أن يحصلوا على البرديات.

. ستهلكنا أحلام كاهنك، ألقها في الماء إن كان فيها مماتنا.

. بل سأتركها معك، إن لم يعثروا عليّ فسيظنونني قد هلكت وبردياتي، هم لا يعرفونك، أخفيها في مكان لا تفصحني لي عنه حتى لا أضطر لإفشائه إن عذبوني.

. لا تتركني.

. أنت وحدك خير من وجودي معك.

ترك البرديات بين يديها ثم شدّد على كلماته:

. إن لم أتج، أودعي البرديات معبد «أون».



. وكيف سأجدك؟

. أنا من سيجدك.

قالها ثم التفت للسفينة التي ميز وجوه بخارثها على ضوء المشاعل التي يحملونها:

. سامحيني، فالأمر أكبر مني وأعظم.

. كاي!

ارتعشت ابتسامته فشدد على أناملها:

. علي أن أذهب.

نزل من السطح بين زحام البخارة المتراكمين أمام السور. يتابعون سفينة بانت على بعد أربعين ذراعاً. التف في سرعة مخفياً وجهه حتى بلغ الجانب الآخر. نظر حوله ليتأكد من خلو الممر في اللحظة التي انقبت فيها الحبال بين السفينتين، تسلق السور وخرج مستمسكاً بحداره. اختبر بعينه المسافة بين ساقيه والمركب الصغير المربوط إلى السفينة، حين التقطت أذناه صوت عارضة خشبية ترتطم بالمتن وأحذية رجال الملك تعبر فوقها، قفز. سقط على حافة المركب فتأذت ضلوعه، تمالك نفسه فتدلى برفق إلى البحر مستمسكاً بالحافة، ما هي إلا لحظات والتقط الجلبة، بخارة الملك يفتشون، يفرزون وجوه الرجال وأمتعتهم، ثم ساد السكون. تمنى أن تكون ناديا قد أخفت البرديات، تمنى ألا يرى جسدها طافياً بجانبه. تمنى لو كان الراعي قد أمهله الوقت لينهي الترجمة، ثم اقتربت خطوات فردد كاي متن الاستغاثة ونزل في الماء حتى قمه. قفز شخص إلى متن المركب الصغير فسحب نفساً وغاص كلية في المياه، ميز شبحاً يقف فوقه ناظراً إلى المياه الساكنة، لحظات طالت حتى ثارت رثاه. ألم ضرب صدره في نبضات، خنق عنقه، وفجأة امتدت يد غليظة فأمسكت برذائه، قاوم كاي حتى انقبضت رثاه فرفع رأسه طلباً للهواء:

. أين البرديات؟

سأل صاحب اليد الغليظة.



. وقعت مني في البحر حين قفزت.

أجاب كاي.

. أتريد أن يصير جسدك طعاماً للأسماك؟

لم يجبه كاي فرفعه الخليظ رغم المقاومة صائحاً بأعلى صوته.

. لقد وجدت الكاهن.

بعد دقائق غادر كاي السفينة، مربوطاً إلى سارية محكم الفم، يتابع بعينيه فتاة خمرية يأكلها القلق.





فَنتَصِفُ اللَّيْلَ.

القاعة الخضراء بقصر الملك فيلادلفيوس.

رغم غلظة الباب المذهب تسرّب الصّخب إلى جوانب القصر. أربعون ضيفاً جمعهم حسن الخط تحت ضيافة الملك في حفل توديع الأميرة برنيكي قبل سفرها إلى أرض السلوقيين بسورية، للزواج من ملكهم أنطيوخوس الثاني، غريم الملك سابقاً ونسيبه حالياً. حضرت الأميرة في ثوب أزرق مزركش وعلى رأسها تاج اللآلئ الموروث عن جدتها. جلست فوق كرسيها بأنفة، يحمن حولها الصديقات والقربيات كالبحل حول وردة فواحة، متنزهة عن اللّهُو تقابل المجاملات والدعوات بوجه متجهم وابتسامة قاترة. انتظرت حتّى أغدق الجمع هداياه تحت قدميها ثم انسحبت بغثة أثناء رقصة بليستيش عشيقة أبيها، بعد أن رمتها بنظرة احتقار. نظر الملك للحاضرين وابتسم:

..صغيرتي خائفة من الحياة الجديدة، تفتقد أمها كثيراً.

ثم سكب كأسه على الأرضية المرمرية وترجم على أيام الملكة الراحلة، قبل أن يتدمج بين الناس.

بعد فَنَتَصِفُ اللَّيْلَ لم يتبقّ إلا جمع قليل من المقرّبين، ضربتهم الجعة حتّى تدلّت الفكوك ضحكاً وفاضت الكلمات، يتمايلون على أنغام الناي السّاحر حول مائدة مُستطيلة أضاءتها الشمعدانات، تحمل فوق أطباقها كل كائن حي عدا القتران والحشرات، يأكلون ويضحكون في صخب ويطيحون بالكؤوس مزحاً، مُستنشقين عبير الجنون من أوراق



اللوتس الأزرق في آنية النبيذ المذهبة، يَتموّن بأخبار الرعية ويلوكون سيرة الملوك وأنبياءهم، حتى أعيانهم الصخب وهبط عليهم الصمت كشباك الصيادين فوق الحيتان، تلك اللحظة التي يستغلها مُردخاي ليعلن عن مفاجآته الخاصة التي تُرضي مزاج الملك وضيقه. صفق فالتفت الرعوس المترنحة وانسحبت فتيات الضيافة خلف الستائر.

.اسمحوا لي أن أحكي قصة.

.لتكن قصة تستحق أذاننا.

قالتها بليستيش فضحك الجمع، كز مُردخاي أسنانه وتهرها الملك بنظرة، لملمت ثدييها ورفعت كأساً إلى فمها مقاومة الضحك حين أردف مُردخاي:

.إنها كذلك.

سكت الجمع كالتماسيح أمام شعلة نار، استطرده مُردخاي:

. حين أتيت إيجيبت، كان عمري عشر سنوات، ترعرعت في حي دلتا أمام ساحل البحر، أعمل في دكان والدي صياحاً، وأحصل العلم ليلاً تحت ضياء الشموع، وأنقص حقيفة ذلك البلد الذي عاش فيه أجدادي قرونًا طويلة، وساهموا في بناء حضارته تحت نير القدماء، رغم ذلك لم أنكر انبهارى برجالانهم، فأكثر ما كنت أصبو إليه كان دراسة كتبهم، واكتشاف خباياهم المليئة بالأسرار، حتى تعرّفت بكبير لهم علمهم الطب والعمارة والنحت وعلم الأفلاك، إيمحوتب، وإذا بي ألق أمام رجل ليس في دمانه همجية أهل ذلك البلد، رجل يعني اسمه «الذي جاء في سلام»، تاريخ حافل بالمعجزات ونبوغ يفوق الوصف، أتني ورجل دون أن يترك ألماً أو صخناً، أو برديات أو قبراً، فقط اختفى بغموض كما ظهر، وترك من ورائه تعاليم نهل منها علماء المعمورة، وآلاف التماثيل التي تُخلد ذكراه، وبقي السؤال: أين قبر ذلك الرجل؟

أجاب أحد المدعوين:

.كيف لإله أن يكون له قبر؟

أشار مُردخاي للحارس ففتح الباب أمام أربعة عبيد يحملون تابوتاً من توابيت القدماء، وضعوا حملهم على مائدة كبيرة



فقام الحاضرون مقاومين الترتُّح حين أشار مُردخاي بيده:

. تلك أرض السَّحَر، ما تخفيه بباطنها أكثر بكثير مما تُظهر، أقدم لكم، إيمحوتب العظيم.

رفع العبيد غطاء التابوت عن جسد ملفوف بالكتان على الطريقة الجيبّية، تفوح منه العطور كأنه أغلق على صاحبه بالأمس، طار النبيذ من العقول وتحفّزت الأعين فتلاحقت الأنفاس، اقترب الملك يتأمل الجسد الملفوف بالكتان:

. مُردخاي! أهو هو؟

. أعين رجالنا لم تتوان يوماً عن تتبع أثار القدماء.

قال ديميتريوس فاليريوس أمين المكتبة:

. ولكن، إيمحوتب، بين النجوم إله؟

أجاب مُردخاي:

. إله مشى في الأرض بجسد من لحم، ثم تركه كما نترك ملابسنا ليصعد بين النجوم.

بعد تردد لامس الملك الوجه الساكن خلف لفائف الكتان:

. لكننا لم نر قبراً لإدريس أو حورس أو إيزيس!

. ما زالت في الأرض أسرار لم نُكتشف.

وقال إقليدس:

. نعبث بجسد إله! هذا عين الجنون!

أجاب الملك:

. لا تنس يا صديقي أن عبثك في جدران القدماء هو الذي أفضى بك إلى كتابك الشهير في الهندسة.





ضحك الجمع فضحك إقليدس ثم رفع كأسه تحية لدعاية الملك حين أردف مُردخاي:

. إن أراد الإله طمّس جسده في أعماق الأرض أو في قمم الأوليمب لما وجدناه، بل تركه لمن يستحقه.

. يستحقه؟

قال مُردخاي وهو ينظر للملك:

. إله مثله.

قالت بليستيش:

. لأجساد القدماء حرمة لا يجب أن تنتهك.

عقب الملك:

. يستثنى من ذلك ظلال الآلهة على الأرض.

أردفت:

. كم من بحارة غرقت سفنهم حين حملوا الأجساد المَحْنُطة إلى بلادهم

ابنسم مُردخاي:

. ما قُلتَه صحيح يا... سيدتي، لكن من قال إننا سنحمل ذلك الجسد إلى بلد آخر؟

ساد الصمت فأخرج مُردخاي سكيناً رقيقاً من حزامه:

. ذلك الجسد سيستقر في وطنه.

قبل أن يستوعبوا ما قال اقترب من الجسد فشق اللفائف من فوق الصدر، بث الكتان عبقه في الأنوف فابتعد البعض خطوات واشتعل فضول البعض وعلى رأسهم الملك، تحرّك السكين فوق العنق صُعوداً ثم الذقن فالأنف فالجبهة.



أزيع الكتان ليظهر وجه إيمحوتب. تدلت الفكوك وتمشيت الهمهمات بينهم فقال الملك:

.إله وسيم.

قالت بليستيش من خلف كثف الملك:

.كأنه مات بالأمس.

اقترب إقليدس ففحص الوجه والصدر:

.أظنه مات في العقد السادس.

سأل الملك:

.أين وجدت المقبرة يا مردخاي؟

.شرق مدينة هليوبوليس. مطموسة تحت الرمال. تتبععت أثره في حداية حفر عليها ما يفيد بأن إيمحوتب العظيم

سار بجسده شرقاً ليقابل قرص الشمس.

ففر إقليدس:

.هل انتهك القبر؟

أجاب مردخاي:

.أختام الأبواب في أماكنها، والكلوز جار حصرها.

قال ديميتريوس في لهفة:

.ماذا عن البرديات؟

.طالتها المياه الجوفية فتهرأت.



لامس الملك أصابع إيمحوتب:

. إذن لم يبق من ذلك الجسد سوى أحلام؟

دس فردخاي سكينه قشق عظام الصدر الهشة فحضر الذهول الحاضرين، صرخت بليستيش وأخفت المحظيات أعينهن خلف الستائر.

. ماذا تفعل؟

استنكر ديميتريوس.

بلا كلمة أزال فردخاي الضلوع، أصدرت طفطقة خافله بنت القشعريرة في النفوس، ثم مد يده وأخرج كتلة متحجرة شاحبة في حجم قبضة طفل، التقط كأس النبيذ الذهبي من يد الملك:

. اسمح لي يا مولاي.

قبل أن يستوعب الملك ما قال أسقط الكتلة في كأسه، عكزت السائل فمال للسواد قبل أن يرفعه.

. لا يرث قلب الإله إلا إله.

نظر الجمع للملك فقال إقليدس في توتر:

. للقدماء لعنات لم يعرف كنهها، لا أحد أن يتجرع مليكي تلك الكأس.

نظر إليه الملك ثم لأعين المقرئين، لمس فيهم الترقب والاختيار فابتسم في استخفاف مضطجع، ثم رفع الكأس ودس سيابته المزينة بخاتم ذهبي وفقت الكتلة المتحجرة قبل أن يتجرعها دفعة واحدة، ساد صمت قطعته بليستيش:

. إن مرض الملك فعليك وزره.

أجاب فردخاي دون أن ينظر لها:



. فطر التحنيط يمنع الجسد من الفناء، الملك للتو اكتسب قوة إله.

قال الملك:

. ستكونين أول من يشعر بقوة الإله يا عزيزتي، لا تخبري المحظيات حتى لا يحسدنك.

ضحك الجميع عدا بليستيش التي رمقت مردخاي بتقزز ثم انسحبت حين أَرَدَفَ الملك:

. للملك قلب الإله. وللأصدقاء باقي الجسد.

ثم التفت إقليدس مداعباً:

. أنا أعرف عما ستبحث يا صديقي، لكنه للأسف أول ما يتأكل.

ضحكوا ثم اقتربوا من المائدة. فكهوا الكتان الملفوف وأعملوا سخاكينهم في الجسد المستسلم، قُطِّعُوا اللحم الجاف المتخشب، غمسوه في النبيذ وشربوا، وانتشيت الوجوه إبقاءً بالقوة المكتسبة، ثم علت الضحكات، وخرجت المحظيات من خلف الستائر ونفخت النايات. ساد الضَّخْبُ حتى ضحك الملك وريت على كتف مردخاي.

. وأنت، ألن تأكل؟ أم إن لحم القدماء يحمل ذكرى طردكم من ذلك البلد؟

. بل في عروقي تجري دماء حرت يوماً في ذلك الجسد.

. ماذا تقصد؟

ملا الأسى وجه مردخاي:

. إيمحوتب، لم يكن سوى أحد أجدادي.

. أجدادك!

. كان اسمه «يوسف»، وكان يفسر الأحلام. عمل تحت ملك باند يدعى «خبان» كأمين على خزانة القمح. قبل أن يأتي



بقيبلته إلى أرض الفيروز حيث عشنا وتكاثرنا وبنينا المدن.

. لكن! قوائم مانيتون عن ملوك الجيبتيين بكتاب «الجيتيكا» أقرت بأن إيمحوتب جيبتي، عاش في الأسرة الثالثة!

. كان ذلك قبل أن نعثر على «لوحة المجاعة» التي أعدنا تدوينها باليونانية، قرأنا فيها عن انحسار النهر واقتراح إيمحوتب وزير الملك حينئذ ببناء معبد قرب الشلال الأول، مما أعاد للنهر ارتفاعه.

. وما كان مصير إيمحوتب قبل أن يصبح إلها؟

. اغتاله الجيبتيون غدراً...

. انتظروا هل تقصد أن مانيتون...؟

قاطعهُ مُردخاي:

. نعم يا سيدي، تلاعب بالنواريخ والأسماء ليظلمس آثارنا، الحق منعه من نقل أن إيمحوتب اليهودي هو أول من بنى هرمًا في تلك الأرض.

. أدناي لا تكادان تصدّقان أن مانيتون قد يتلاعب بالكلمات!

. الشكر للرب أننا أيقنا الحقيقة قبل قوات الأوان، فللخاهن مصداقية كمصداقية الملائكة عند الجيبتيين.

أطرق الملك إلى الأرض لحظات ثم رفع رأسه:

. البوح بمثل ذلك السر سيثير غضبة الدهماء، اتركهم في إيمانهم، فالإيمان مريح.

. إنها كلمات الحكمة يا سيدي.

. لكن يا مُردخاي! أنت للتو قدّمت لنا جسد أحد أجدادك؟

. يسري الجسد في جسد آخر فيحيا بعد موت، ذلك تكريمه، وصدر مليكي خير من تربة ذلك البلد الذي استعبد قومي



قروناً.

ابتسم الملك:

. أنت شيطاني المفضل.

انحنى مُردخاي في تواضع حين اقترب منه أحد الحراس، أسرّ في أذنه بكلمات فهِز رأسه وانسحب بعدما انحنى للملك  
احتراماً.







وحيدة في سفينة تترنح بعرض البحر جلست. ضامّة ساقها إلى صدرها على أرض خشبية بمطبخ منها لك، تضرب رأسها في جدار متشقّق الأخشاب خلفها. قلبها يضطرب من قرط الضعف والضياغ. وعيناها تتأملان حروف البرديات العتيقة التي لا تفقه منها شيئاً. أغمضت عينيها للحظة فالتفتت أدناها خفيف الأقدام. اللعنة! ها هي قد جاءت، نرمقها من خلف الجوالات بابتسامتها الساحرة، تلك العاهرة المستفزة! لا تأتي بي إلا في أوقات وجب فيها أن تختفي، نبرة صوتها المنفرة. نظراتها الساحرة، حكمتها السليطة. «ارحلي عني» صرخت ناديا فلم تستجب. ولن تستجيب يوماً. «اقتربت منّي على أطراف أصابعها، بخطوات راقصة. ترفع يديها في الهواء وتميل برأسها فيسري الخدر في جسدي أنا، تضحك بصوت يزلزل أعضائي. ثم تمسك برفعتي وتقرّب قمها الذي يشبه فمي. يطابقه. تلحس شحمة أذني في استمتاع ثم تنفث همساً ساخناً يجري في الأوردة حتى يصل القلب فيتخلله، يقبضه».

. كاهن غريب الأطوار. يمشي قلبك بسلاسة. يريح آرام. ماذا نحنأ نسميه؟ أم. ثقل الظل. تلبثين في صدر تاجر الكلاب سنين حتى تظني نفسك ذراعاً في كنفه. أو أصابع في كفيه. ثم تسلمي شفّيتك بلا مقاومة لساحر تربّي في معبد. ثم تستائي حين يسمونك بالعاهرة! الشكر للرب. فعلى كل حال هو ليس بخصي.

صرخت ناديا:

. يا لك من عاهرة.



. ترمين من حولك بما فيك.

. لم أهو يوماً آرام، أنت من دفعتني نحوه.

. لست أنا من أذقته أعز ما نملك فأدمن رحيقنا، لا تنفكين تلقين باللوم على من حولك وتثسين أنك الداء.

. وهل كنت أملك إلا الرضوخ والإذعان؟

. كم تجيدين التملص! وما بال الكاهن؟

. ربما هو خب صادق.

. بعد ثلاثة لقاءات؟

. القلب تضطرب دقاته في لحظات.

. قلت ذلك الكلام لأرام يوماً، كنت تعنيه أم تصيغين نفسك بالعشق الزائف رغبة في الحماية؟

. لم أكن ما أنا الآن، كنت غصة عريضة، يعويني معسول الكلام ولو من فم كلب، ولم يكن لي كفيل ولا ضامن. وقد

بالني سبين حتى بعدت الأحلام ونفر جسدي.

. السام أفتك، وقبله كاهن منبع من سجناء الإله، انتصار جديد لغرور أنوثتك.

. أنوثتي لعنتي.

. أنوثتك هي ما أيقنتك حية، ستسأمين منه وتلفظينه ثم تبحثين عن آخر يروي أرضك التي لا ترتوي.

. لم يعد بي رغبة في البحث، أنا أريد رجلاً صالحاً.

. الصالحون لا يتحملون توباتك العاتية.

. وعدني أن يتقصّى أخباري.



. من سمع يوماً عمّن ذهب مع رجال الملك ثم عاد؟

. اصمتني.

. تُخرجين من حفرة لتقعي في بئر.

. شيء أكبر منّي يحركني.

. إن كنت تقصدين تدابير الإله فأنا أول الكافرين.

. أنت أحلامي السوداء.

. أنا من ينحيك في كل كبوة.

. أكرهك.

. تكرهين ناديا؟

. أغربي عليّ.

صرخت بها ناديا فاخلفت كما جاءت. ضربت رأسها في الجدار وكزت أسنانها فانفردت الدموع ساخنة تحرق خديها. تنكي نفسها وكأي. تستعيد قبيلته. لمعة عينيه وهو يوصيها بالبرديات. نظراته إليها وهم يربطونه بالساري الخشبي. ثم ابتلاع الأفق أثره. إلى مصير مجهول. كما قالت العاهرة التي تفتحم رأسي كلما انفردت بنفسي.





يتحاكى كل من رآها عن جفونهم التي عجزت عن الرف، صدورهم التي أبت التنفس، وقلوبهم التي نسيت النبض، عن نعومة جسدها، تلويه بالنسيابية، عن الإعجاب الذي يمتزج بالفرح، ثم عن السحر الأزرق الذي تبيته حولها فتنتطفئ الأعين في ظلام سرمدى، الأم لا حدود لها، رعيشة ترلزل الكواكب، تخلخل العقول، لحظات كأنها سنوات، ثم يأتي العفو فتكف، الخدر يتغلغل في الأوصال، سلام وسكون، موت مقيم لا ينفضه أكثر من شاهد قبر... ثم تتسلل الحياة ثانية، كحبة تسعى، وتعود الأصوات، يخفوت، يتسرب الضوء للعينين، الشمس تبدو شمعة، الشخوص الواقفة لا ملامح فيها، ثم تستجيب الأذان لهمسات تستحيل كلمات، مبهمة ثم تتضح، وبعد لحظة، تتركب الحروف على بعضها لتصنع كلمة:

«كاي».

في القبو الخائق حاول كاي استيعاب اسمه، مستلقياً في الحوض الحجري مكبل اليدين، ومن حوله ثلاثة أشخاص، أحدهم يحمل هراوة غليظة، وآخر يمسك بشبكة تتدلى في وعاء زجاجي كبير، أما الثالث فوجه لا ينسى، يجلس القرفصاء في إعجاب ليتأمل ذلك الكيان الأسود الذي يتلوى في الوعاء، التفت حين أدرك استفاقة كاي فاقترب، حك الأنف يهدوء ثم همس:

. أين البرديات؟

نظر إليه كاي محاولاً منع عقله من تسريب الكلمات، ثم لاحظ من خلف الغشاوة إبهام فردخاي الغليظة مدكوكة



الظفر، يسمونها في علم الكف إيهامًا «بجاء»، صاحبها شديد التطرف، إما ملاك من ملائكة الراعي، وإما شيطان مريد من أعوان «سبت». رمقه مردخاي مبتسمًا:

. يحكى أن أفلاطون منذ ما يزيد على مائة عام دأب على الجلوس وقت الفجر في حوض مثل ذلك الحوض، يملؤه بالمياه، ثم يأمر خادمه بإدلاء الرغادة في شبكتها قرب رأسه، تتلوى قليلًا ثم تبت صاعقة الإله، للحظات قصيرة، قبل أن يرفعها الخادم بشبكتها، يفيق أفلاطون من الصاعقة بعد دقائق، لتندفق الحكمة من فمه كالنهر الهادئ إلى أذان تلاميذه، أتعرف أشهر مقولاته؟

نظر كاي إلى حامل الوعاء وسمكة الرغادة التي تتحرك فيه بثقة، أردف مردخاي:

. من يأتي اليوم قبول نصيحة لا تكلف شيئًا، سوف يضطر في الغد إلى شراء الأسف بأعلى الأثمان.

قاوم كاي تشنجا في فكه:

. قلت لك إنني فقدت البرديات أثناء هروبي من الخانة.

. أتحب أن نسال أمك عنها؟

. هي لا تعرف أختياري منذ غادرت سمنود.

. لم لا تقص عليها قصتك المثيرة؟

قالها مردخاي فأشار لحامل الهراوة فخرج للحظات قبل أن يدخل وفي يده أم كاي، مكبله اليدين كمومة الفم، انتفض كاي حين رآها وقرأ الألم في ملامحها فانشرخ صدره، دفعها الحارس فسقطت على ركبتيها الهشتين، نظرت لابنها فبكت، قاوم كاي الحبال في يأس:

. أمي، انظري إليّ، انظري إليّ، اهدئي، سيكون كل شيء على ما يرام.

ثم التفت لمردخاي متضرعا:



. وحق الرأعي لا ذنب لها.

. شاءول أيضًا لم يكن مذنبًا.

. كان يسعى لقتلي وكنت أدافع عن نفسي.

. لو أدركت قدر من قتلت لرضيت بالموت على يديه.

. إذن اقتلني وأتركها.

صرخت أم كاي صرخة مكتومة من خلف اللثام فهمس مردخاي.

. أراف بأمك، فرحلتها لم تكن مريحة من سمنود إلى هنا.

ثم التفت إليها:

. لتهدئي يا سيدتي، فقد أنجبت فخر الرجال، إنما وجودك هنا لتذكري صغيرك بطفولته السعيدة.

نظر كاي لأمه:

. أتركها، وسأبحث عن البرديات حتى أجدها.

أردف مردخاي همسًا في أذنيه:

. تستطيع أن تذهب إلى الفناء وحدك، أو تذهب بصحبتها، وأعدك ألا تكون آخر لحظاتها سعيدة.

أجاب كاي بعد صمت:

. إنها قصة ذلك المدعو موسى، تحمل غارًا تريد أن تمحوه.

. آه... قد قرأت إذن، حسنًا، لا بد أنك تعرف أن الكذبة هم من يحملون العار، كاهنك الأعظم أراد تشويه ماضينا.





. لم يكن الكاهن ليفتري على الراعي كذبا.

. لا ألوم عجزك عن رؤية النهار، فقد تربيت خلف الجدران الحجرية، نعمة أخرى تسير خلف القطيع، لا تعلم أن معلمك قد أكله الحقد بعد ما بادت دولتكم وغربت شمسها، لم يعد في يديه سوى الدس والتحريف ليسترجع مجدا اندثر، ومكانة كهنة تدفنهم رمال الزمن، كتب الرسائل السرية وأرسلها للملك، حرض العامة بالأباطيل والأكاذيب، وأخيرا، خط في كتابه ما يمس نبينا المرسل.

. نبيكم؟

. نعم، إن موسى نبينا، وكاتب توراتنا التي يشكك معلمك في أصلها، أنت تحارب الرب دون أن تدري.

. أي رب تقصد؟

. رب إسرائيل.

. الرب رب الناس أجمعين، فهو الراعي، ونحن نجل رسله أينما بعثوا.

. نعم نجلونهم، حتى يقتل أحدا ملكا منكم.

. رسولكم قتل ملكنا؟ عن أي زمن تتحدث؟

. أرايت؟ هذا ما أراد معلمك فعله، تحريف الحقيقة الحالية وطمسها. لقد كتب قوائم الملوك، الجيتيكا، دون ذكر فرعون، طاغيتم، الكاهن المعلم، مدعي الاتصال الإلهي، يطمس عاركهم، ويتعمد إيقاظ نار قديم يزيد على ألف وثلاثمائة سنة...

. قاطعه كاي.

. لم أسمع من قبل عن ملك جيتي يدعي فرعون!

. مسح مردخاي ذقته بأنامله.



لتنسأل مانيتون حين تقابله.

نظر كاي لأمه:

أتركها وسأدلك على البرديات.

ها أنت تتذكر أين تركتها.

لن أتكلم حتى ترحل هي في سلام، أتوسل إليك، إنها أم.

وشاءول كانت له أم.

إن لم تتركها فلن تنال البرديات.

اتجه مُردخاي إلى الحارس الواقف خلف أم كاي، النقط العراوة. وقبل أن يصرخ كاي رفعها فهوى بها على رأسها، سجدت قهراً، هوى ثانية فشج رأسها، فهوى الثالثة، كسر الرأس فجرت الدماء على الأرض...

يوماً ما كانت تنزل البحيرة الساكنة حتى تغمر المياه خصرها. ثملل شعرها الأسود الحالك وصفحه وجهها الخمري فيتلألأ تحت نور الراعي. تحكي قصة الملاح النانه بنعمة مميّزة. تقلّد أصوات البحارة الغرقى، والزمّت الخشبي الصغير بين يديها، يجلس فوقه كاي، تهره مقلدة عاصفة هوجاء، ثم تنهي أصابعها مقلدة ثعباناً كبيراً يخرج من تحت المياه وتقول:

حين هبت العاصفة غرقت سفينة البحار الطيب ولم ينج سواهم. تشيت برمت خشبي حتى ألقت الأمواج على جزيرة غريبة، وجد فيها المأوى والطعام. وخيل إليه أن فيها كل ما يتمناه. وبينما كان يصلي للراعي شكراً، اهتزت الأرض، وفجأة، برز من المياه ثعبان عملاق، تقدم نحوه فسأله: من جاء بك إلى الجزيرة أيها الملاح؟ فأنا ألتهم الجبناء، ارتعد الفتى، ثم تشجّع ورفع صوته: أنا ملاح واسمي كاي، أحمل هدايا للملك، وقد غرقت سفينتي وليست أخافك. ضحك الثعبان: أيها الملاح، أنت في مأمن، سأتركك تعيش لأنك شجاع لم تخفني رغم ضخامتي. وحكي له الثعبان أنه واحد من مائة ثعبان عاشت على الجزيرة، وأن نجماً سقط فأحرق إخوته ولم يبق إلا هذا الثعبان وحده. ثم صاح في الهواء:



أيها البحر، أرسل إلينا سفينة. ولما رست أهدى الثعبان لكاي هدايا من العاج والكحل والعطور والتوابل والأخشاب ليأخذها معه إلى بلده، جزاء شجاعته.

ثم يحتضنه الثعبان فيدغدغه تحت إبطه ليفتح كاي فمه على اتساعه في صرخة عجزت حنجرتة الآن أن تخرجها، انقطعت أنفاسه وخفق قلبه قبل أن ترتخي أعضاؤه كقنديل بحر نافق ويغرق في الحوض. اقترب منه مُردخاي ملامسا جبهته في حنو:

.أرجو أن يكون ذلك قد أقنعك بعدم جدوى تهديد مُردخاي، أه! دائما ما أنسى استكمال القصة. في الثمانين من عمره مات أفلاطون في هدوء، ظنّ بعد ما وصل إليه من الحكمة أن صاعقة الرّعادة لم تعد كافية. وأن عناقا طويلا معها سيوصله لروح الإله فيستسقي الحكمة من منابعها. وفي يوم، وجدوه في الحوض متخشباً وعلى وجهه ابتسامة لم يستطيعوا إزالتها، ابتسامة من أدرك أكثر من اللازم، سأتركك معها عليها تذكرك، أو تُفنعك بأن أرواح من تبقى من أهلك، باتت بين يديك.

أشار مُردخاي إلى حامل الإناء فاقترب، همس في أذنه.

.لا أريده أن يموت، ولا ترفعوا جثة السيّدة من أمام عيني.

انصرف مُردخاي فرقع الحارس شبيخته، تلوث الرّعادة أو بنت زيوس صاحب الصواعق كما يسمونها. أنزلها في الحوض فتحرّرت وحامت بنّاء وحمول، حول رأس كاي، قبل أن تثب سحرها في المياه.





كل ما أعرفه أنني أنحدر من سلالة نقية، ومن سلالة ملك الإسكندر العظيم ومعلمه أرسطو كلبين. أفهم صاحبي كما تفهم الآلهة ما في قلوب مخلوقاتها. أستطيع أن أحرس أو أضنأ، لكنني أكلت اللحم النيء منذ نبتت أنيابي فصرت وحشاً تهابه الرجال. أرام لم يخل يوماً عليّ بالتربية أو التحقير، فأنا كئيب الأثير. حققت سجلاً حافلاً بالبطولات في ساحات المصارعة، قنلت اثني عشر كلباً وجرحت خمسة عشر على مدار سنة ونصف، أرام هو إلهي، أرام هو الثواب والعقاب، أرام هو الحياة. أما باقي الخائنات فقابلون للنهش أو القتل رهن إشارة منه، بلا استثناء. إلا نادياً، أنثاه، قفزت عليها يوماً لأختبرها فتلقّيت من أرام ضربات بالسوط مرقّت ظهري، وخسيت في بيتي الخشبي يوماً كاملاً حتى نهشت يدي حزناً وتدماً عليه يغفر لي. منذ ذلك اليوم عرفت أنا؛ «سيريريوس» العظيم، أن نادياً شيء آخر، شيء يجب أن أهابه. أحرسه، أقدسّه كما يقدسّه صاحبي أرام. صاحبي الذي دأبت على متابعته منذ وعيت، من وراء قضبان بيتي الخشبي المريح. أتابعه وهو يعتلي تلك الناديا. كما اعتلي إناث قصيلتي لتخصيها، يلحس جلدّها كما ألحس، ويصرخ عاليّاً في عواء بشري حين ينتهي منها كما أعوي. قبل أن تخمد بجانبها فأشتم من صاحبتة رائحة لا تمت للرضا أو اللذة بصلة، رائحة ندم واستياء، رائحة كراهية. لقد اعتدت أن أستنشق البشر لتحديد الفعل تجاهها. أعرف جيداً كيف أفرّق بين رائحة الهجوم والدفاع. اللذة والألم، الخوف والغضب. كما أعرف أن ما أشتمه من أرام الآن والحرارة المنبعثة من صدره أعراض لم أختبرها فيه من قبل. حتّى حين رحلت عنه الفتاة الإفريقية أو صاحبة الشعر الأحمر، تلك الخمرية الجيبية كانت شيئاً آخر، سحر يسلب صاحبه الحياة حين تبتعد، ويمنحه إياها حين تحضر. لقد استيقظ أرام ولم يجد نادياً بجواره، بحث عنها في أنحاء المزرعة ولم يعثر لها على أثر. نادى اسمها بأعلى صوته، ثم مدّ ثوبها لتشتمه كلاب



المزرعة وعلى رأسها أنا: «سيربيروس» العظيم. جرينا مهتدين بأنوفنا الخبيرة حتى البحر. ذلك الكائن الأزرق الذي يطفئ منحة الإله فينا، لا يقترب منه إلا غريق هلك أو هارب يعرف جيداً أننا لن نستطيع له اتباعاً. انقطعت الرائحة فهزنا ذيولنا في عجز ودرنا حول آرام والرجال الذين وقفوا حول جيفة ذلك الشاب الذي رمقه آرام في قزع. تهافتت الكلاب عليه وثوابت. فزجرها آرام بصرخة أرعبتها فابتعدت. لم يجرؤ على الاقتراب سواي. نظرت في عينيه ووسعت أنفي. صمته كان بركاناً يثور. ولأن بعضنا نحن عفاريت الأرض قد علمنا منطق الإنسان الثقطت أذني الأصوات ففهمتها. كما أن عيني لا تزالان في إمكانهما رؤية أطياف ما حدث منذ قليل. الأنثى ناديا بطيفها البنفسجي بصحبة ذكر له طيف برتقالي شاف. قتل ذلك الصخم الذي تسرب دمه إلى الرمال وبدأ العفن يدب في جيفته. ثم ركضا إلى البحر. وتولى الملح إخفاء آثارهما. ربت على بعد أذرع أنامل صاحبي. أسهر ما يدور في رأسه المشتعل كجمرة. كان يجتر آخر لحظات معها. يجتر تلويها من تحته. شعرها الطويل يجلد ظهرها. التهاب جلدتها تحت سياط أصابعه. صرخاتها المصطنعة. ثم العزوف. النفور والابتعاد. تمسح آثاره من فوق جلدتها وشفتيها. كأنها تتخلص من طين لونها. ثم تبكي بلا سبب... آرام حزين. كما لم يحزن من قبل. هالته تنغير. تصير حمراء. غاضبة. يتأمل آثار قدمي أنثاه على الرمال. ينظر للبحر. ثم يبتعد عن صخب الرجال. ونحن من خلفه. غير قادرين على النباح أو مطاردة الفئران. عينا آرام تبكيان. رننا آرام نتشتجان. ركضت حتى اقتربت. تمسحت في ساقيه فأمسك الطوق حول عنقي وجذيني جذبة أعرفها. يفعلها حين يحتاجني. يبت عن طريقها رغبتة التي لا ينطقها لسانه. ناديا المقدسة. لم نجد مقدسة. إن رأيتها افقر عليها. انهشها من أجلي. مزقها يا «سيربيروس» العظيم. هذه رغبتني. يا كلبتي الأثير.







الرَّعَادَة كانت تعرف عملها جيداً، تعرف متى تبت سحرها ومتى تمنعه، تستشعر نبضات ضحيّتها ملتزمة تسارعها، وقبل لحظات من انقباض القلب انقباضاته الأخيرة توقف بثّها حتى ترتخي الأعضاء ويذهب التخشب فيسهل ابتلاعها وهي حيّة ساخنة، غائبة عن الوعي، يستخدم الأطباء خدرها في الولادة بقدر، والجراحون في بتر الأطراف، كما يستخدمها رجال مُردّحاي في حوارهم مع المَكابرين، تسبح بجانب الرءوس، تقدّر حجم ضحيّتها ثم تبت سحرًا يفتحها بعدم حدوى العناد، تُطفئ هوية البشر المفصّلة في اختلاق الأكاذيب، ليضع دقائق تخفي استجواباً صادقاً، وإن لم تأت الاستجابة، تشدّ الرّعَادَة سحرها وتنزل إلى الحوض ثانية، وثالثة، ورابعة، لا تكلّ ولا تملّ، حتّى إذا ضعفت وبخلت بسحرها، استبدلت بواحدة أكثر نشاطاً...

ارتعد كاي في الحوض حتى صرخ جسده وتفتّحت أوصاله، اختلط واقعه بأحلامه، نهارة بليله، وجه الكاهن الأعظم بوجه أبيه، وجه ناديا بوجه أمه، بين راحات الرّعَادَة يسألونه عن البرديات حتّى عجز عن ابتلاع ريقه، تركوه ليستعيد وعيه قبل أن يُدلي الحارس برّعَادَة جديدة إلى الحوض، كان لونها أرجوانياً وحجمها أكبر من سابقتها، لامس جلدها الناعم الرخو خصر كاي، ثم جاءت اللحظة التي تحصيها عقله منذ وضع في الحوض، ذلك التيار الخفيف الذي يستمر لثوان معدودات قبل أن ترتفع شدّته بغتة ليزلزل كيانه، هنا سحب كاي نفسه استعداداً، ثم ضرب برجله أرض الحوض فارتفع صدره وبرز عضده فمد ذراعه وقبض على معصم الحارس.

وارتعدا معاً...





لزمان غير معلوم، مُتَشَبِّهة أصابعه للإرادية، ينتفض والحارس كجسد واحد ما ليث أن ثقل وزنه من ناحية الأخير فتهاولي، رافعاً كاي من المياه ليسقطاً معاً على الأرض بجانب الحوض.

وتوقفت الرعدة.

لدقيقة كانت كافية ليصارعا التخشب، ثم قاما يستندان الأرض وينظران لبعضهما، حتى أدرك الحارس ما حدث فانقض على كاي، هوى يديه على الجسد المبتل فانزلقتا قبل أن يستغل كاي ثقل جسده ليمسك بتلابيبه ويضرب برأسه الحوض الحجري، مرات ومرات، بعزم قوته، حتى شجت جبهة الحارس وبرر المخ منها، تهاولي كحجر بين قدمي كاي في اللحظة التي التفت شبكة الرعدة على رأسه من الحارس الآخر الذي ترك القبو مند برهة، سقط كاي على زكيته فستمسكاً بطرف الحبل العاصر لحلقه، يقاوم خنقا بدأ يملك منه، ثم بصعوبة قام على ساقيه، ضرب بطن الحارس بكوعه عدة مرات قبل أن يطبق على خصيته، فأرحى الأخير شبخته ألماً حين التف كاي ودفعه لمسافة استطاع فيها أن يرفع قدمه فيدفع صدر الحارس قبل أن يلجمه بعزم ما أوتي فيسقطه في الحوض الذي ضج برعدة عنيفة.

ثم نظر لأمه...

كان يدرّب نفسه على اليوم الذي سيمسك فيه بيدها في فراش الموت حتى تبرد، تمنى لو وهبها حفيداً تُعْثِي له قصة الملاح التائه، لكنه لم يتخيل في أبشع كوابيسه أن يأتيها الموت بذب اقتربه، اقتربه من جسدها اتخذ سنوات، انحنى فجمع رأسها، ثم وضعها على ظهرها ولثم جبينها المخضب بدمائها ودموعه، قبل أن يخلع إزاره المبتل ويغطي وجهها، هامساً:

. يا رب الأبدية، الجلال لك في هيمنتك، لم أنطق بالكاذب أو ارتكب الخداع، لتضمن لأمي طريقاً تعبر عليه إلى فردوسك في سلام، ولتسامحني على ما سأرتكب.

خلع ملابس الحارس مشجوج الرأس، ارتداها ثم ألقى نظرة أخيرة على أمّه قبل أن يخرج من القبو، مشى في سرداب لا أول له ولا آخر، حتى التقط صوت فردخاي، تيبس مكانه مشلول الفكر حين ظهر في نهاية الطريق، وضع كاي يده على سلاح الحارس في حزامه قبل أن يلتقط صوت آخرين يمشون خلف سيدهم، أعمد رغبته وأحنى رأسه ثم وقف في وضع



الحراسة حتى مرّ مَرْدَخاي ورجاله ولم يَعيروه اهتماماً، اِبتعد بعدها كاي مَتَّخِذاً طريقهم الذي اتوا منه، حتى فتح باباً وجد الشمس خلفه، انتظر حتى تهيأت عيناه فاستوعب باحة خلفية للقصر، ضرب الفلنسة فوق رأسه وخرج من البوابة في هدوء، بعد دقائق التقط صدى أبواق حادة تضرب الأفق، ومن بعدها جلبه فتح البوابات الكبيرة وخرج الحراس، نظر إلى آثار قدميه فوجدتها جلية لا تحتاج إلى قاصٍ أثر ليلتها، ركض بأقصى ما أوتي حتى تخلل زحام الباعة، بدلّ جذاءه بأخر سرقه من بضائع مفروشة، ومشى بعرجة مصطنعة سيقراً من يتبعه أنها لرجل يحمل متاعاً ثقيلاً على كاهله.





معبد «أون»، بعد نصف دورة قمر.

سار كاي في نفس الطريق التي قرأ عنها ببرديات معلمه. الطريق التي مشاها موسى يومًا. غربت الشمس، بدأت الصخور في جرح قدميه. وراقبته الأعين المضيئة لأصحاب الليل. حتى بلغ طريقًا ممهدًا أضائها المشاعل. في نهايتها بوابة على جانبيها تمثالان خبيران لإدريس وشجرة صفاف باسقة. اقترب من الباب المنقوش فطرقه. التقط وقع خطوات خفيفة ثم الفتحت ثلثة أطل منها كهل ضعيف البصر.

. المعبد لا يستقبل عابري السبيل.

. بل أنا كاهن، جئت من معبد الأسوار السبعة بسمنود.

ضيق عينيه واقترب:

. هينئك لا توحى بالكهانة.

. رحلت عن معبدي منذ زمن ليس بقصير.

كسا الشك ملامحه:



. عاود الزيارة في الصُّباح.

. لن تتركني في الخلاء أقضي ليلتي.

. إن كنت كاهنا بحق، فأنت تعرف أن قُطَاع الطريق بها جمون المعابد.

. أعرف، كما أعرف أن ذلك المعبد قد أوى رجلاً مباركاً منذ ما يزيد على ألف وثلاثمائة عام، رجلاً اسمه موسى.

نظر الكاهن في عينيه للحظات:

. أنت كاي.

أوما برأسه إيجاباً ففتح الباب وأشار إليه الكاهن أن يتبعه. فرش له حصيرة في ركن باليهو، وأطعمه الخبز وعنقود عنب دون أن يرهقه بسؤال. ثم وضع بين يديه شجرة مشحودة. خلق كاي شعر جسده ورأسه ثم نزل إلى البحيرة المقدسة. في ضوء القمر، اغتسل ثم جلس على الحافة. أغمض عينيه وأرخى أطرافه ثم ردّد الربيع. ذبذبة تتصاعد من رنتيه لحنجرته. تسليخ عنه التوتر وتفرغ الخوف من كبده كنقاط الحبر في الماء. ظلّ في ثباته حتى تغيرت نبضات قلبه فهمس:

. يا ملتهم الظلام، يا من جمعت السماوات في قبضتك ونشرت النجوم الزاهية. يا من ملأت البحار بالمياه. يا من أرسلت إدريس بالهداية من فوق الجبل ليحارب نسل الخطاة في السفح. انظر إلى يدي وقلبي. لم أرتكب الشر يوماً في موضع الخير، بل أولئك الذين ملكوا أرضك صاروا ذئاباً. والأمراء في عليانهم أصبحوا ضياعاً، وإن ما أكلته ملعون عند سادة الأرض الجدد: سادة إيجيبب التي وهنت قشرتها وضعفت بذرتها. لا تضعني في عبودية هؤلاء الذين قطعوا جسد إدريس يوماً، لتجعلني ثابت القدمين. أسرع من كلب صيد. وأشف من ضوء قرصك الملهب، لا تغلغل روحي، ومجد اسمي في سلام حتى ألقاك.

ثم استشعرت أذناه حفيف زحفها على الرمال. فتح عينيه بهدوء فراها. سوداء منتصبه. تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراوان كالعين. ضم كاي راحتيه ثم انحنى أمامها في إجلال.



.السلام عليك يا سيدة الرمال، يا حارسة الملوك يا ساكنة التيجان، الجلال على من زرع الحركة في أطرافك وحقق الموت في أنيابك، لتعضّدينني في محنتي، ولتنصرينني على من عادى تلك الأرض التي تحرسينها، اذهبي، باسم الذي سخرك، اذهبي إلى الإسكندرية، ولا تعودني إلا ظافرة.

زحفت بهدوء حتى ساقيه، صعدتها، تسلقت صدره في نعومة، كتفه، ثم التفت حول رقبته، أغمض عينيه وردد الرنين في حنجرتة فاهتزت رقبته مع نبضات قلبه، حتى نفخ البوق إيذاناً بصلاة النهار، فتح كاي عينيه وكانت قد رحلت، ارتدى إزاره ثم جثا بين الكهنة الذين رفعوه باستعراب، متابعاً عارفي المزامير مُصعِياً للمنشدین يرفعون الأدعية من كتاب «الحمد الإدريسي» أمام الحائط المقدس، ثم توجه بينهم لقبلة نجم الشمال فأدى صلاته وسجد للراعي حتى لاحظ كاهن المعبد بكاءه فوضع يده المعروقة على كتفه فانتفض.

.دعاء طويل، كرب عظيم.

مسح كاي وجهه بيديه:

.مر زمن لم أسجد فيه للراعي.

.كان جسّدك منهكاً فأبيت أن أعرفك بنفسي حتى تسليخ أنا مختار، كبير كهنة معبد أون، أعيش هنا منذ أربعة وستين عاماً.

قام كاي فالتحنى في إجلال فأردف مختار:

.ذكرت أنك تركت سمنود منذ زمن ليس بقصير؟

.رحلة طويلة، كان علي زيارة معبد السيرابيوم بالإسكندرية بعد وصية أوصاني بها الكاهن الأعظم.

.وردتنا الأخبار الحزينة، هل عرف قاتله؟

.لم يعرف حتى رحلت.



. منذ عام تترتب النجوم في هيئة مُربّع فأدركت أن أمراً جليلاً سيحدث. قطعاً طرق مجهولون يهاجمون المعابد بلا رادع. رجال الشرطة لا يظهرون في الأفق. والآن يُقتل الكاهن الأعظم ولا يُعثر على قاتله! أسوار معابدنا تفقد هيبتها. بل فقدنا الإيمان بأنفسنا.

ساد السكون للحظات قطعها الكاهن:

. لم اخترت معبد «أون» لتودع فيه برديات الكاهن الأعظم؟

. قرأت في برديات مُعلّمي عن وقائع حدثت في ذلك المعبد. فأمن قلبي أنه المأوى المناسب.

. ولم أرسلتها مع زوجك؟

. زوجي؟

. ناديا، ليست...؟

استدرك كاي:

. آه، نعم. تعرّضت لمتاعب في الرحلة وخشيت أن أفقدها فتركتها بين يديها. هل هي بخير؟

. تجلني الأعناب بالمزرعة، وترقص تمجيداً للشمس مع الفتيات في الشروق. وتبيت ليلها في بيت قريب محروس بكلاب الرعي.

. وماذا عن البرديات؟

. أودعناها خزانة المعبد.

. هل لي أن أراها؟

. البرديات أم ناديا؟





قرب.

يُبع أن ترى زوجك حتى أستخرج لك البرديات من قُدس الأقداس.

www.facebook.com





مشى كأي تحت عرائش العنب حتى لمحها، جاثية على ركبتها في رداء أبيض تجمع العناقيد في سبت، رآته فوقفت،  
قبل أن تركض ناحيته، احتضنته حتى سال عرقها على خده وعصير العنب من أمامها على ظهره، نظرت في عينيها،  
ظننت أنني لن أراك ثانية.

كادت روحي في لحظات أن تياس من جسدي.

لاحظت رعشة في يديه فجلست وجلس.

كيف تركك رجال الملك؟

لم يتركوني، لقد قررت منهم.

اتسعت عيناها فhez رأسه بوجوم.

شجوا رأس أمي أمام عيني ليجهروني على البوح بمكان البرديات.

كل ذلك الموت من أجل إضمامة برديات؟

الآن باتت تستحق.



. بعد موت أمك؟

. قد مات الكاهن قبلها، وكانت البرديات بحوزتك فكيف أبوح؟ الموت عندي أهون من رؤية الظفر في عيني مُردّخاي أو رؤيتك تُؤذِن.

تأملت عينيّه اللتين غارتا قبل أن يسألها مُبتدأ الصمت:

. كيف كانت رحلتك على متن السفينة؟

. بعيداً عن حماقات البحارة أخبات البرديات حتى رست السفينة في ميناء قريب، تسَلَّلت منها وقضيت ليلتين في سقيفة للبدو حتّى مرّت قافلة أفلتني عبر طريق وعر، تركتني عند المعبد فطرقت الباب، طلّبت رؤية كبير الكهنة فأسلمت إليه البرديات والتمست الجوار فأكرموني بالمبيت بين عرائش العنب. أجمع العناقيد وأعصرها مع الفتيات نظير طعامي وشرابي. وأرقص للشمس حين تشرق وأنفخ نايات الابتهاال والنجيل للملائكة، هنا شعرت بسكون لم المسه منذ وطلت إليوسيس، فقد زهد جسدي الرقص والعرف، ليالي أرام وصخب البخارة، رائحة العاهرات والسكراري... قلت لهم إني زوجك.

ابتسمت:

. وأحببت وقع الكلمة حين نطقتها.

التمست البهجة في عينيّه، لكنها رأت الشرود وقد غلّقه. عيسيت كما تعيس الأنثى. ثم أشاحت بوجهها فلامس ذقنها في حلو حتّى التفتت:

. لا تُسيئي فهمي، فكل من قابلت في الأيام السابقة طالته لعنتي.

. أو ربّما ما حدث بيننا على ظهر السفينة هو سنّة الرجال في النساء.

. عشت في حوارٍ إليوسيس الملأ بالنساء ولم أر سواك.



الليل والخوف والخلوة يهينان الأجواء لمغامرة غابرة.

لم يحركني سوى قلبي.

يتحرك قلب كاهن لفتاة رواها عرق الرجال؟

ليس بيننا من هو بلا خطيئة.

أنت كاهن معصوم.

كاهن أزهر ثلاث أرواح.

أما زلت مؤمناً بأن تلك ليست تدابير إلهك؟

الزاعي لا يزرع الشر في النفوس بل نحن من نفعل.

بدهشني وفاؤك لصاحب السماء رغم ما أصابك.

إنما أنسب الإثم لمن يستحق.

فرطت من العنقود حبات ووضعتها في فمه، نظر في عينيها ثم أردف:

إلى متى كنت ستنتظرين عودتي؟

ربما لعام أو عامين، حتى تياس كلاب أرام من العثوز علي، ثم أتجه جنوباً للبحث عن أبي.

حالما أتمم ترجمة البرديات سأرافقك حتى تلتقيه.

تالله تفتأ تذكر أمر البرديات!

كنت أظن ما فيها سيرة رجل عادي، ثم علمت أنه رسول السماء لملك من الرعاة جبار غريب الأطوار، العجيب أن رئيس

القصر يحكي قصة مغامرة، يقول إن الملك الذي هزمه ذلك الرسول جيتي، في حين أن معلّمي يذكر أن الملك بدوي



من قبائل الرعاة!

. وماذا سيحدث إن كان هذا الملك من سكان النجوم حتى؟

. سأعرف حين أنتهي.

. أنت تُضحّي بحياتك ركضاً وراء أوهام.

. لم يخب حدسي يوماً.

. وحين تنتهي من ترجمة تلك البرديات، ماذا ستفعل بها؟

. سأنتظر علامة من معلّمي.

. القتل؟

. الموت لا يعني الفناء.

. أنت بلا عقل.. وهذا يثيرني.

. ابتسمت فتأملت تعاريف العنب من حولها ثم استطردت:

. أتعدي وعداً؟

. إن كان بإمكانني تحقيقه.

. عدي إن متّ قبلك أن تدفني هنا.

. وأشارت بإصبعها إلى مقابر بعيدة تمت فوق شهودها الأشجار. أردفت:

. لم أختبر الموت في من حولي من قبل ولم أزر القبور. والعجيب، أشعر بسكينة غير مفهومة حين أشرّد في تلك

البقعة الساكنة، أتخيل أرواح الأموات تخرج من الأرض في جذوع الأشجار.



. أنت لا تعرفين لم تنمو الأشجار في القبور.

. لم أتعلم قراءة نقوش الجدران أو أزر المعابد، وكلما سألت فتاة من فتيات الجنّي أجابتنني بأن تلك هي بركات إدريس.

. «إدريس» و«ست»: كانا أخوين لملك عادل يحكم مملكة الجبل، امتلك إدريس الحكمة والعلم، وملك أخوه القوة والعنفوان، والبكورية. مرّت السنين وهزم أبوهما فأورث مملكته لابنه الأصغر، إدريس، لحكمته وخبرته، ولصبر لا يمتلكه أخوه ست الذي نزل من الجبل ثائراً مُشتعلًا بالحقْد والحسَد. بيت الانتقام في أتباعه ويثير الفوضى، اضطر إدريس إلى النزول بجيشه من الجبل لمواجهة أخيه الذي يحشد النفوس. تخضّب النهر بدماء القتلى من الجانبين، إدريس الأصالح، وست المتمسك بالبكورية. ثم مالت الكفة لإدريس فانتصر، ليقدّم أخوه عهداً بالسلام ويقيم حفلًا يعلن فيه الوفاء لأخيه والإدعان. وإذا به يغدر بأخيه إدريس فيقتله في الحقل شر قتله، ويقطع جسده ليلقيه بتابوت في سفينة متجهة إلى بيبيلوس بسورية. قرب الساحل جنحت السفينة فطرحوا التابوت في البحر تشاؤماً، انجرف جسد إدريس حتى الشاطئ فأبنت الراعي فوقه شجرة أخرجت ثماراً من الذهب والأحجار الملونة إشارة لأمراته «إيزيس» التي خرجت للبحث عن جثمانه، جمعت الأشياء في صندوق واحتفت مع ابنه الصغير خورس على جزيرة حتى اشتد ساعده فتولى الانتقام من عمه «ست».

. وهل ظفّر؟

. ولقّب بالمنتقم لأبيه، منذ ذلك اليوم يزّين الكهنة الشجر في بداية كل عام، أسوة بشجرة إدريس التي نبتت فوق جسده.

. يا لها من قصة! فلتعدني أن أدفن هنا وننظر لثماري حين أثمر. طالما قلت إن الرب لا يتدخل في مصائرنا، سأنحت نهايتي كما أحلم.

. ما دمت هنا، سالمة، فلتفعلي ما شئت.

قالها وقام فاستدركته:





. سؤال أخير، إن لم تكن فعلي البرديات هل...؟

ضم أصابعها في كفيه فسكتت:

. كنت سأتى من أجلك.

ابتسمت فهرز رأسه:

. علي أن أعود للكاهن مختار.

مشى تحت عرائش العنب فتابعته بعينها، وقيل أن ينحرف تجاه سور المعبد برزت العاهرة من وراء الأعصان، اضطدمت بكتفه فلم يشعر، التفت لناديا وفتحت قمها فدلته لسانها في سخرية، ثم ففرت فالتقطت عنقود عنب وقلدت مشيته الهادئة حتى اقتربت منها فهمست:

. سمعت أن للكهنه في الفراش باعاً طويلاً.

ضربت ناديا جيبتها بباطن كفها عدة مرات كان في رأسها نحلة تطن:

. ارحلي علي أيتها العاهرة.

استشعرت التفات الفتيات من حولها فابتعدت، لاحقتها كظلاً

. لم تبخلين علي بمشاركتك الفرحة؟

. أي فرحة؟

. فرحة أن تصيري عروساً للرب، هنا ستحددين المأوى، بيتاً في العراء، بجانب المقابر، تعصرين العنب بقدميك وتأكلين البتاو وجبن الماعز، من بعد ولائم حانات الإسكندرية المليئة باللحوم والأسماك، وليالي آرام الراقصة، بل وتحلمين بالدفن تحت الأشجار.



دَخَلْتُ نَادِيَا غُرْفَتَهَا وَأَوْصَدْتُ الْبَابَ فَوَجَدْتُهَا فَوْقَ الْأَرِيكَةِ تَبْتَسِمُ.

. سَقِيفَةُ تَلِيْقُ بِكَ يَا جَوْهَرَةُ الْيُوسَيْسِ.

. كُنْتُ جَوْهَرَةً فِي يَدِ كَلَابِ.

. ذَلِكَ الْكَلَابُ كَانَ يَقْبِلُ أَصَابِعَ قَدَمِيكَ.

. وَكَانَ يَطْوُنِي دُونَ رَغَبَتِي وَيُضْرِبُنِي وَقْتُمَا شَاءَ.

. التَّمَسَّ عِزُّوْفُكَ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَكَ، وَفَاحَتْ أَنْوُثُكَ حَتَّى جَذِبَتْ أَنْوُفَ الرِّجَالِ، مَاذَا تَتَوَقَّعِينَ مِنْ عَاشِقٍ غَيُورٍ؟

. أَنْ يَفْهَمَ أَنَّ الشَّهْرَ قَدْ يَتَغَيَّرُ مَجْرَاهُ، وَأَنَّ نَادِيَا الْأَمْسِ لَمْ تَعُدْ هِيَ نَادِيَا الْيَوْمِ.

. الْآنَ سَتَنْزِلِينَ تَحْتَ الْكَاهِنِ كَمَا نَزَلْتَ تَحْتَ أَرَامَ يَوْمًا، سَتَقْضِينَ وَقْتُنَا لَا بِأَسْ بِهِ، ثُمَّ تَتْرَكِينِي وَتَرْحَلِينَ، أَوْ يَتْرُكُكَ، فَمَنْ ذَا

الَّذِي يَتَحَمَّلُ غَضَبَ نَادِيَا وَيَتَغَيَّرُ مَزَاجُهَا، وَكَرَاهِيَتَهَا لِنَفْسِهَا؟

. مَزَاجِي يَتَغَيَّرُ فَقَطْ حِينَ أَرَاكَ.

. بَلْ طَمَاعَةُ نَفْسِكَ تَهْوِي إِدْلَالَ الرِّجَالِ.

. أَذِلَّ مِنْ أَرَادَ الذَّلَّ، مِنْ اقْتَرَبَ مِنِّي مِنْ أَجْلِ صَدْرِي وَخَصْرِي، لَكِنْ كَأَيَّ أَشْعَرٍ مَعَهُ بِيَهْجَةٍ وَرَاحَةٍ لَمْ أَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلِ، لَا

يَتَسَلَّطُ وَلَا يَفْعَلُ أَفَاعِيلَ الرِّجَالِ.

. الرِّجَالُ لَا تَعْرِفُ إِلَّا الْأُنْثَى الَّتِي تَخْضَعُ، أَنْتَظِرِي حَتَّى يَلْجُكَ.

. هَذَا كَاهِنٌ يَتَكَلَّمُ بِقَوْلِ الرَّبِّ.

. هَا أَنْتِ تَصْطَبِغِينَ بِلَوْنٍ مِنْ تَحِبِّينَ أَيْتَهَا الْحَرِيَاءُ! الْآنَ كَلَامُ الرَّبِّ وَكَهْنَةُ الرَّبِّ فَسْتَسَاغَانِ بَعْدَ أَنْ كَانَ الرَّبُّ عَابِثًا

مَغْرُورًا!



أنا لم أعد صغيرة.

أفريقي قبل أن تتحول لي لعجوز وحيدة، سيدفئك هنا.

للتو طلبت منه دفني بإرادتي.

ذلك الكاهن يسعى لحثفه، ألا ترين عينيه؟ تنطقان بالجنون والانتقام.

نظرت إليها ناديا:

ماذا تقولين؟

أقول إنه سيطوك كما وطاك من قبله، ثم يختفي أو يُقتل فتتركين خائفة مترقبة خلف سور المعبد، أو في المقابر، وإن لم يفعل، ستتولى طبيعتك النارية بث الجنون في رأسه الساكن المخلوق، فلو أشعل النار في القمر لتستدفي ناديا، لن تشيع، وستطلب المزيد، ثم تهمينه بالتقصير، حتى ينقر، ويرحل، فتلعنيه بأقذع الألفاظ، ويصير عدوك الأول والأخير، كأنك لم تحبيه يوما، ولم يكن شمسك وقمرك يوما، لتبحثي من فورك عن بديل.

أشاحت ناديا بوجهها نحو المقابر فاقتربت منها وفككت شعرها، بشروود سألت:

ماذا أفعل؟

شرعت العاهرة في جدل صغيرة:

عودي إلى آرام، عودي قبل أن تفقدي رحيقك وتذهب ربحك، ستسامحك لأنه رجل ولأنك أنثى، ستسامحك فور ما تتعزين، في اللحظة التي يرى فيها فخذك وئديك حين يدفن رأسه بين خصلات شعرك، سيلهث مثل كلابه فينسى الكون من حوله ثم ينحني على قدميك ليقبلهما، هؤلاء هم الرجال.

لكني، أحببت، لأول مرة.

الحب يتجدد على صدور الرجال.



أنهت جذل الضفيرة فأرختها على كتف ناديا ثم انسحبت في هدوء.





في المعبد جثا كاي بين يدي الكاهن مختار، باركه ومسح بالزيت رأسه ثم سألته عن مقتل الكاهن الأعظم، حكى ما حدث دون أن يدخر أمر اتهامه، وأدرك بعد قليل أن الخبر لم ينتشر، فكما توقع، حاف متري نائب الكاهن من التشهير برجال المعبد فأثر الكتمان.

قال الكاهن مختار:

. على قدر ضعف بصري رأيت خط الكاهن الأعظم، هيراطيفيته مميزة، لكنني لا أدري سببا لاستخدامها

. اعتاد أن يكتب مدونات الخاصة بها حيننا للماضي.

. هل يعرف كهنة معبدك أمر تلك البرديات؟

. نعم؛ لذلك أبذل كل الجهد لترجمتها.

. ولِمَ تترجمها خارج المعبد؟

. كان عليّ تجميعها من عدة أماكن.

. إذا نشرت ستحدث بلبلة، هل تعني ذلك؟



. برديات الكهنة لم تعد توضع إلا في رفوف المعابد أو في مقابر الأموات.

. نعم، ولكن، برديات الكاهن الأعظم: القليل، ستخلق التهاافت بين الناس، إلى أنها تتناول تاريخ ثعابين العرش، هكذا

قرأت في السطور الأولى قدر ما سمحت به عيناى. أثق في أنك تعي ما أقول.

. بالطبع يا سيدي، ولكن، منذ متى لا تنفذ وصية الكهنة الراحلين؟

هز مختار رأسه وابتسم:

. علمك الكاهن الأعظم حسن الخطاب، لتكمل مسيرته يا بني، فوصية الكهان أخره أن تترك، ثم للتباحث أمر العرش

ومن حوله بعد قراءة ترجمتك.

أنهى الكاهن كلماته ثم ناول كاي البرديات وورق البردي ودواة حبر أسود وبوصات جديدة.

. هل لي في غرفة صغيرة أحتلي فيها بنفسى فأنترجم؟

. اعتقدت أن وجود زوجتك سيساعدك على ذلك!

. لم أعتد العمل خارج المعبد، فالنساء لا يترخن الثرثرة. كما أنني أخاف على البرديات من الضياع أو العيث.

. سيكون لك غرفة قرب البحيرة المقدسة، وسيكون عليك أعباء الكهنة وواجباتهم طالما عشت بينهم.

. ذلك أكثر مما أربى. أمر أخير، سيكون من المفيد كتمان أمر وجودي هنا حتى أنهي، فكما قلت يا سيدي، ثعابين

العرش لا يسرها تنفيذ وصية الكهنة.

هز الكاهن رأسه ولم يعقب.







خرج موسى من هواره خائفاً يتربص، كلما مرّ بقافلة أو ركباً غطى وجهه وانحرف خشية أن يكونوا من أجناد فرعون أو هامان يحملون الموت بين أيديهم. اتجه شرقاً لخمسة أيام ثم انحدر جنوباً، يسير ليله وينام نهاره في المغارات والكهوف ليراقب حركة القوافل، حتى ورد مدين. مدينة صغيرة تقع حيث تضعف قبضة فرعون الذي استغل في الآونة الأخيرة بالسيطرة على ثورة الجبتيين المتمثلة في ملكهم العبيد «خامس» ابن «سقين راعي».

تمشى موسى حتى أشرف على بئر واسعة الفوهة يتراحم حولها الرعاة بهائمهم. وحشيون تفتقر وجوههم الرحمة، يدفع بعضهم بعضاً ويثيرون التراب ويصبحون بصخب. بالقرب منهم تابع فتاتين تمنعان ماشيتهن عن الاختلاط بدواب الرعاة. استوقفه ظلف الرجال من حولهن وعدم الاختراث فنزل واقترب حتى التفتت إحداهما، تخفي نصف وجهها من التراب الضاعد، بعد تردد رفع صوته.

. ما خطبكما؟

نظرت إليه للحظات ثم أردفت:

. لا نسقي ماشيتنا حتى يرحل الرعاة.

. ألا يكفلكما رجل؟



. أبونا شيخ كبير.

. ائذنا لي بالمُساعدة.

نظرت لأختها ثم هزّت رأسها موافقة فمدّ موسى يده وسحب حبال الماشية، شمر ساعديه وغطّى وجهه وزاحم حتى لامس أحجار البئر وسط حدة الرعاة وخشونتهم. التفت إليه أحدهم:

. غريب يدفع الظهور ويلوح بعصاه! من أي أرض أنت؟

نظر إليه موسى من فوق نقابه ولم يجبه فكز الراعي أسنانه ورفع صوته:

. ما لك لا توقّر الرعاة؟ اكشف وجهك.

ارتفع صوت من بعيد:

. ما باله؟

صاح الراعي بصوت أنزل الرعب في نفس الفتاتين:

. غريب يزاحم ماشيتكما ويدفع الرعاة.

ارتفع صوت من جهة أخرى:

. إذن ليرينا كيف سيرفع الدلو وحده.

نظر موسى للراعي الذي تحدّاه ثم للدلو الكبير المربوط بحبل غليظ إلى رافعة يشدها ثلاثة رجال أشداء، ثم نظر للفتاتين اللتين اشترأبت عنقاهما. ساد الصمت قبل أن يربط الماشية في خصره ويسحب الحبل الغليظ من الرجال، تارّجح الدلو فهو إلى البئر في سرعة فضحك الرعاة. ترك موسى الدلو حتى غطس وامتلأ ثم دفع الأرض بساقيه وأمال ظهره فجذب الحبل بقوة إلى الوراء، كلما ارتفع الدلو لفّ موسى الحبل مرّة حول مرفقه وسط ترقب الرجال ودهشتهم. حتى وصل إلى حافة الحوض الخشبي فأوثق الحبل إلى دعامة قريبة ورفع مؤخرة الدلو



فاندلق بعنف في مجراه. ساد السكون بين الرعاة وندت نظرة جقد من الراعي الذي استغفر موسى ثم ضحك الجميع بغتة، وزنت البعض على كتف موسى الذي جذب ماشية الفتاتين وقربها من الماء لتشرب، ثم ذهب إلى الفتاة التي حدثته. شكرته بنظرة ود وانحناءة ثم رحلت وأختها فاستند حائطا جلس في ظله ساعة، حتى لاحت الفتاة ثانية. رآها فقام ونفض التراب عن ملابسه فقالت باستحياء:

إن أبي يدعوك إلى الغداء.

مشى موسى وراءها، لم يتبادلا كلمة أو نظرة، دلف من باب البيت وكان أبوها في انتظاره، أجلسه وقدم إليه الشراب والطعام قبل أن يسأله عن نفسه. باطمئنان لا يعرفه، وربما برغبة في التخلص من حمل ثقيل حكى موسى ما كان من أمر ولادته حتى رحيله عن المدينة هربا، أرفق الشيخ:

إن الأنبياء المزمعة تأتينا على ظهور العير، لا أصدق أن المصر التي أطعمت أمم الشرق زمن المجاعة، يأتيها يوم ليتزعمها جلف غليظ! لكن لم العجب؟ هل مررت بقربلته بوادي عربية بيرية فاران عند خرائب ثمود الملعونة؟ إنها قبيلة يسودها الجشع والطمع والغلبة. لا يعرفون إلها غير الذهب، يغيرون على القبائل المجاورة حين يشتد بهم الجوع، جدير ببطون نسانهم أن تخب قتلة خبارين، لكن أن يملكوا زمام المصرا ذلك هو الخزن! الكنوز التي يستخرجها قارون من محاجر الفيروز، الأنهار الثلاثة التي تجري لهواره من أرض إيجيت، وريوس العشائر الذين صدقوا ادعاءه الألوهية، كل ذلك لا يزيده إلا شرها وتوحشا.

أيصدق المخبول حقا أنه إله؟

يترك الرجل فيقول أحبيته، ويوتده في جذع نخلة فيقول أمته. شيء ما في عقله يجعل من ضلالاته يقينا، أكاد أجزم رغم كراهيته أن لديه إيمانا بشيء ما.

يا له من أحمق! وما باله وبني إسرائيل؟

يسخر النساء في الفرش، ويثقي على الأقوياء من الرجال من أجل الخدمة الدنيا.



. كل ذلك من أجل نبوءة مَثلُومَة؟

. ولعوار أصيل في بني إسرائيل، قهَم قوم جَبَناء لا يخلصون لإله واحد، لا كرامة لهم ولا مَلَّة. تجولوا بين الأمم ثم دخلوا المِصر مع من دخل بعد اجتياح الرِّعاة. عاشوا بين القبائل مُحترفين الرعي حتَّى جاء زمن يُوسُف صاحب الخزائن، تكتلوا بالقرب من بيت أبيه يعقوب في أرض جاسان الخصبة فأكرم ضعفهم وأغدق عليهم من خيرات الأرض حتَّى فسدت نفوسهم وتمكنوا. توغلوا في الصُّروح، تقلدوا المناصب وامتلكوا أسواق الحلي والذهب، ثم تمسَّحوا في نسل يعقوب وأحفاده وصاهروهم، متَّخذين من بركات النبوءة هالة مجد تفتح لهم الأبواب، حتَّى أقرضوا القبائل بالربا فتنبَّه يوسف لطغيانهم، نهاهم فتمردوا عليه وكانوا السَّبب في هلاكه، لا أحد يعرف له قُبراً حتَّى الآن. حتَّى إذا جاء فرعون وكانت قبيلته أكثر القبائل افتراضاً منهم، أدرك أنهم السُّوس في قدم الدَّابة، يكتزون الذهب فيكتلون التجارة وينتزون الرجال، وإذا هاجم الجيبتيون مصر فسيكونون أول المتحالفين معهم.

. فنكُل بهم ليسحق شوكتهم.

. وظلم أهل بيت عمران حفيد يوسف مع من ظلم، لعنة التصققت بنسلنا كما تلتصق الحشرات بالجرح، نعيش بين بيوتهم، ويقع علينا ما يقع عليهم.

. وماذا عن الجيبتيين؟

. الجيبتيون تحت ملكهم «كامس» ابن «سقنن راعي» أفقدوا فرعون الكثير من الأراضي، نزلوا من «واست» في معارك خاطفة سيطروا بها على مدن غرب النهر، حتَّى إن الناس تقول إن النساء لن تلد من هول المعارك برأً وبحراً، لولا القلاع المنيعَة وخشود العربات لاجتاحوا هواره.

. تخاف ذلك اليوم كخوفنا من وحوش الصَّحاري، فرعون استأثر بالخيرات لنفسه، ولم تغد مصر تحتة تُغني عنّا مجاعة أو شحّ مياه، وإذا استرجع الجيبتيون المِصر إلى أرضهم فسيجتاحون أرضنا.

. من الصعب التنبؤ بما ينتويه الجيبتيون، وأخوف ما يراودني هو سحق المستضعفين في أتون المعركة.



رغم ما حكيت أرى فيك العطف على بني إسرائيل!

لا أملك إلا الشفقة على قوم ظلمتهم أحلامهم فظلمهم جبار لا يرحم.

يا بني لا تخف، فقد نجوت من القوم الظالمين.

قضى موسى ليلتين في بيت الشيخ «يثرون» قبل أن يقبل الأخير عليه فجراً. أيقظه فابتسم:

أرهقتك يا شيخ «يثرون».

إن كان في الأمر إرهاق فسيكون في أعين الناس.

ضرب الحرج وجه موسى وتعرق جبينه فاستدركه الشيخ:

يا بني، أنت رجل غريب في ذلك البلد. مثل نحلة في إناء لبن. وأخاف أن يترصدك القوم فيؤذوك أو يفضحوك. لم

لا تتزوج إحدى ابنتي وتعيش معي. ابنا لم أنجيه؟

تلعنم موسى فابتلع ريقه.

هذا شرف لي، لكنك لا تكاد تعرفني يا شيخ «يثرون»، وأنا لا أملك

قاطعة:

السمات على وجهك جلية. رجل ظاهر من بيت طاهر. وأنا شيخ كبير ماتت زوجته. وأيامي في الحياة باتت

معدودة وليس لي إلا ابنتاي أعطني بهما. وقد قالت لي إحداهن أمس: «يا أبت استأجره. إن خير من استأجرت

القوي الأمين».

تصبب العرق على جبين موسى فضحك الشيخ:

يا لك من خجول!





.إني لا أملك مهرًا.

. كن في خدمتي ثمانية مواسم، ترعى بيتي وتجارتي خلال رحلتي لبيت الرب، فإن أتممت عشرًا فذلك تفضل منك، هذا هو مهر إحداهن.

انفرج وجه موسى:

. ذلك بيني وبينك، أيما الأجلين قضيت فلا غدوان عليّ، واللّه عليّ ما نقول وكيل.

وتزوج موسى من بكريّة الشيخ «يثرون»، ساعده في تجارته وراعى بيته، عشر سنوات كما عاهده، أنجب ذكرين يشبهانه وأنثى تشبه أمها، يعنني بأسرته الصغيرة وماشيته طوال النهار، وفي الليل، يصعد إلى جبل يطل على مدين، يختلي بنفسه فيسترجع كلمات الحكمة التي تلقاها في معبد «أون» ويحلم بوطنه الذي غادره، وإخوته الذين يفتقدهم.

ومرّت عشرة أعوام، بلغ خلالها موسى العقد الخامس، قضى حجج حميه، وربى ابنيه عليّ حب راعي السماوات والأرض، قبل أن تناديه المدينة التي تركها خائفًا، صوت في صدره لا يخف عن ترديد اسمها، وحلم يتكرر كل ليلة، يرى فيه أمه تحثّه على العودة إلى هوأرة، وقرس نهر يتوارد ضيقًا.

لمّا تيقن موسى أن ما رآه في المنام رسالة شاوور حماه ونوّه إلى أن عشر سنين قادرة على تبديل الناس وطمس الوجوه، ارتبك الشيخ «يثرون» وضربه القلق، ثم لمس التصميم في وجه موسى فتقبل على مضض وبارك الرّجال التي اتخذت طريقها غربًا.

سار موسى بأهله وخادمه لأيام على هدي النجوم، حتى استتريت السّماء خلف سحاب داكن فأناخ النوق بجانب صخرة بوادي طوى قبل أن يصمّ هزيم الرّعد الأذان، بكى أطفاله خوفًا فنظر في الظلام حوله يلتمس قافلة تؤازره، ثم صعد إلى هضبة فلمح شعلة بعيدة بجانب بركة ماء فقال لزوجته:

. لقد رأيت نارا سأتيكم منها بخبر أو شعلة لعلكم تستدفتون.





اتكأ موسى على عصاه ذراً لكائنات الليل، اتجه صوب النار محاولاً تمييز أصحابها أو دوابهم. نادى بالسَّلام فلم يتحرك ساكن، إلا النار، خيل إليه أنها قد تبدلت من صفرة إلى زرقة فيروزية، مشتعلة في أغصان شجرة صفاف غزيرة الأوراق تنبثق من بحيرة ماء تحتها، أبطأ خطواته ودقق النظر فميز نوراً يتوهج في نعومة لم ير لها مثيلاً، يصعد من الجذع ثم ينحني نزولاً مع الأغصان إلى الأرض. نظر موسى حوله ثم نادى ثانية ولم يجبه أحد، قال له الفؤاد إن البرق قد ضرب الأرض فأشعل صفافة لها خواص السحر. لمّا بات على بُعد أذرع من الشجرة أدرك أن توهجها ليس ناراً، بل وميض فسفوري مشع يسير بداخل أفرعها سير الدماء في الشرايين. قاوم الفضول ورعشة في صدره ومدّ يده بتردد فلامساً الفرع فانتقل الوميض إلى أصابعه فكفيه وزسعه، بلا ألم، خفق قلبه وهو يتابع يده التي سار النور بداخلها في سلسلة، ثم أراح ستائر الفروع واقترب من الجذع، من القلب الذي تنصب فيه الومضات، لامسه بكفه، وهنا فقط، سمع موسى الصوت، الصوت الذي سمعته أمه منذ أربعين سنة، يوم القته في اليوم:

. بورك من في النار ومن حولها.

تلقت موسى حوله مضطرباً، شدّد على عصاه وابتعد عن الشجرة صائحاً،

. من هناك؟

لم يتلق إلا صمتاً، سكنت الرياح قبل أن يرن الصوت في رأسه ثانية:

. يا موسى، إنه أنا الله رب العالمين.

سقط موسى على ظهره وتهدّجت أنفاسه. نظر للوادي من حوله مقاوماً الظلام والهلل حين أُرْدِف الصوت من وسط النار:

. اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى.

قاوم موسى رعشته واعتدل في وجل، سلّت نعليه من قدميه وجثا على ركبتيه محيناً رأسه رافعاً ذراعيه مردداً:



. الجلال لك في هيمتك، أنا لم أرتكب الشر يوماً في موضع العدل والحق ولم أدنس نفسي.

. يا موسى اهدأ ولا تخف، لقد اخترتك من بين عبادي فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري، إن ساعة العدل والحساب آتية، وستجزي كل نفس بما تسعى، فلا يصدك من لا يؤمن بها واتبع هواه.

قال موسى دون أن يرفع عينيه عن التراب:

. الجلال لك يا من تستقر فوق ميزان العدل، لم أتبِع الهوى يوماً ولم أغضب بمشيئتي، لتضمن لي طريقاً عسى أن أعبر عليه في سلام.

. ما تلك بيمينك يا موسى؟

ارتعش موسى ورفع عصاه فوق رأسه متلعثماً:

. هي عصاي، أتوخأ عليها وأهش بها على غنمي، ولي فيها مارب أخرى، و...

. أليها يا موسى.

وقف موسى مقاوماً تهدج أنفاسه ثم ألقى عصاه، ما إن لامست الأرض حتى اهتزت ثم تلوت كتعايبين المستلقعات، سوداء، تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراوان كالعين، نفثت فحيحاً ففرغ موسى وهم بالهرب حين أمره الصوت:

. لا تخف يا موسى، إنك من الأمنين.

توقف موسى والتفت لعصاه التي تتلوى على الأرض ببطء حين قال الصوت:

. خذها ولا تخف، سنعيدها كما كانت.

بعد تردد اتجه موسى لعصاه، وقف أمامها لحظات قبل أن يتحنن بحذر ويقبض على ذيلها الذي يتلوى فإذا بها



تتبيس وتتصلب فتعود كما كانت. قام مذهولاً ففحصها، ثم ضرب الأرض بها ونظر للشجرة التي تنوهج ضياء حين قال الصوت:

. أدخل يدك إلى جيبك، ستخرج بيضاء من غير سوء. إنها آية أخرى يا موسى.

نظر موسى ليده ثم وضعها في جيبه للحظات فلم يشعر بشيء، ثم أخرجها فإذا هي ناصعة مضيئة كأحجار مرمر في ضوء الشمس. تبدد فكره وثقل لسانه، قاوم ذهوله:

. أحقاً! أنت، إلهي؟

. صنعتك أمام عيني يوماً بيوم في بيت الدميم، وألقيت عليك محبتي وعنايتي منذ ألفتك أمك بوحي مني في اليم لتنجو، والآن جئتك بالآيات لتصدق.

سجد موسى على الأرض مقاوماً التلعثم والرعشة، ثم رفع وجهه برهبة ونظر للشجرة التي ازدادت خضرة وخسناً، شرد فيها فسحر الوميض المتلالي عينية حتى سكن وهدأت روعته، همس:

. ما قد يرغب الرب من عبد فقير؟

. ستكون رسولي كما كان أجدادك: يوسف ومن قبله يعقوب وإسحاق وإبراهيم

. رسولك إلى من؟

. إلى فرعون وملئه الفاسقين. ستندبرهم بالعذاب إن لم يتركوا بني إسرائيل يخرجون من حلف القبائل إلى الشرق.

. فرعون جاد غليظ القلب، ما كان ليصدقني. وقد قتلت رجلاً من قبيلة يهودا التي يحكمها هامان، سيقتلونني إن عرفوا وجهي.

. ستحميك آياتي وتبرهن على صدقك.



شرد موسى للحظات قبل أن يردف:

. ربي، إنني رجل سريع الغضب، حين أثور يضيق صدري فيثقل لساني، وقد انفلت غضبي فأعدي، أرسل معي أخي، هارون، فهو حليم حكيم وأفصح مني لسانا، سيعينني على لقاء فرعون ويؤازر قولتي.

. سنشد عضدك بأخيك، وسيكون لكما سلطان ورهبة بآياتنا فلا يصلون إليكما أو يؤذونكما، أنثما الغالبون ومن اتبعكما من المؤمنين.

سجد موسى هامسا:

. المجد والظفر والسلام لك يا ملئهم الظلام.

لم يعرف موسى كم لبث في سجوده. شعور السلام دغدغ أطرافه فذهب في سبات مريح، حتى دأبت الرياح وجهه فرفع رأسه ونظر للشجرة التي انطأ وميضها واشتعلت النار في فرع منها. نظر للقمر في سماء صفت، ولعصاه الملقاة بجانبه قبل أن يقوم فيلتقطها ثم يتجه إلى الشجرة. اقتطع الفرع المشتعل ورجع إلى زوجته وأبنائه. أشعل لهم نارا ليستدفنوا ثم اختلى بزوجته.

. عليك أن تعودى مع الأبناء إلى أبيك «يثرون» بمدن.

اضطربت ملامحها:

. ماذا تقول؟

. أمر جلل سيحدث وأخاف أن يطولكم الأذى.

. لن أبرح حتى أفهم.

أجلسها موسى على صخرة وحكى لها ما كان من أمر النار والشجرة. نظرت إليه باستنكار ثم اتهمته بالجنون قبل أن تقول له إن ما رآه أضغاث أحلام وأوهام صحراء. هز رأسه نفيا وأكد وعيه فاقشعر جلدتها وهلعت روحها.



خافت ثم بكت، ثم أنكرت وقاومت، قبل أن تستسلم وقد همد جسدها وارتعش. احتضنها فجرت ساقها تجاه أبنائها مع بواذر الفجر، أسرّت لهم بأن على أيهم أن يكمل طريقه وحده. بكوا واحتضنوه ثم ركبوا الناقة مع الخادم واتخذوا طريق العودة إلى مدين. أبصرهم موسى حتى تلاشى أثرهم، مقاوماً دموعاً في عينيه ورهبة تدق صدره، قبل أن يتخذ طريقه إلى هواره.

قرب الغروب وضع كاي البوصة وأغلق دواة الحبر. أطفأ بيديه الشمعة ثم خرج للبحيرة المقدسة، تمشي على أطرافها ثم جلس وأدلى قدميه في المياه الدافئة. شارباً في قصة نبي الرعاة، فمن هرب من حتفه يوماً يستطيع أن يدرك شعوره، الخوف الدائم المحيط بكل من يقترب، قد يكون قاتلك، أو راصداً لك مراقباً، ستخفي وتغير اسمك، وستخلق القصص وتصدقها. ورغم ذلك، تظل أجفانك أثناء النوم مغبوحة، وأنفاسك مقطوعة، لا تستسبح طعاماً ولا شراباً، ولا تنهأ بلحظة سلام خالصة.

رفع كاي رأسه إلى السماء مبتهاً فرأى النجمين المتجاورين، يسمونهما التوأم، همس لنفسه:

. سأطلق على الأول موسى، وعلى الآخر كاي، فإن كان بينهما ألف وثلاثمائة عام، فهما في أعين البشر متجاوران.

ثم أغمض عينيه وانخرط في ابتها.

«يا رب الأبدية، يا أزلي، لتعضدني ضد فاعلي الشر، حتى لا يراني أحد مطروحاً عاجزاً، سأترجم برديات الكاهن في معبدك، الثور الذي يثير الرعب في الرجال لن يدفعني للوراء خطوة، والتمساح الذي يجر ضحاياه للمستنقع لن يقف في طريقي، ادفع الشر عني وسأهبك قلبي، عسى أن أظفر بنار أمي، والكاهن، عسى أن يكون مستقري جنتك».

قالها كاي ثم سجد لوقت لم يحصه حتى استشعر خطوات الكاهن مختار فجثا احتراماً:

. سيدي.

أمره الكاهن بالوقوف:

. لديك حماس لم أر مثله في كهنة هذا الزمان.





. الوصية في رقبتي، والتساؤلات تنهشني.

. من لا تتخبطه التساؤلات، يسير إلى الموت كما تسير الخراف إلى الذبح، هات ما عندك.

. هل هناك ذكر لذلك الرجل الذي زار المعبد: موسى؟

. كانت هناك برديات اطلع عليها الكاهن الأعظم، ثم أتى الحريق الكبير الذي شب منذ أعوام على أكثرها.

. هل احتفظت الصدور ببعض منها؟

. نعم، بعض الراحلين كانوا يتلونها.

. هل عاش النبي حقًا في ذلك المعبد؟

. درس العلوم في الجامعة، وتلقى الهداية في ذلك المعبد، وأقام قرب البحيرة، مثلك.

أقشعر جلد كاي وهو يتأمل البحيرة، ثم التفت لكاهن المعبد:

. وهل عرف الكهنة وقتها أنه رسول الراعي؟

. ليرسل البشر علامات كعلامات الملائكة، لا تراها إلا العين الثالثة في الجبهة. لقد أدرك كهنة المعبد أن بينهم رسولاً.

أكرموا وفادته ولقنوه تعاليم المعظم إدريس وأطلعوه على الكتب المقدسة.

. هو إذن علي دين إدريس المعظم؟

. صابئ خاشع يوحد الرب ويخشاه، ابتلاه الراعي يقوم خشني الأيدي والطباع.

. هل قرأت سيدي ما حل به؟

. لم يمهلني الحريق قديماً قراءة البرديات، ولا يمهلني ضعف بصري الآن قراءتها، ولا أظن أحداً غير الكاهن الأعظم قد

ألم بتفاصيل تلك القصة البائدة خاصة أنها لم تنحت على الجدران. لتكمل ما بدأت ولتقرأها علي فور ما تنتهي.





انحنى كاي في إجلال قبل أن يخرج من المعبد، تجاه عرائش العنب، تجاه ناديا.





حين اقترب كاي من العرائش ارتفع النباح. ركضت الخلاب نحوه فجثا على الأرض مُدنياً قامته حتى اقتربوا وتشمموه فاطمأنوا. ربت على الأعناق والظهور فألفوه ثم بحث عنها بعينية فلم يلمحها. نادى فلم يثلق إجابة. دلف إلى الخص الخشبي الذي تسكنه فلم يجدها. انزلت عيناه تلقائياً إلى خطواتها على الرمال. ميز قدميها الحافيتين من بين الأقدام. تسير على قلبه باتجاه النهر. تقصاها حتى الضفاف. وجد ثوبها على صخرة والتقط من الماء حركة. ثم رآها. تذيب القمر لينساب على شعرها والأكتاف لينزل إلى النهر محملاً بعيقها. افعل كخة فأدركت وجوده. التفتت. نظرت إليه ولم تتحرك أو تصهل. لا تريد أن ترعخ السمك الطائف حولها فدهولاً بما يرى. تجمد الزمن للحظات حتى غاصت في المياه. بللت النهر بشعرها ثم رفعت ذراعيها لتروضة فانكشفت منابع ثديها.

.ظننتك ستنام في المعبد.

.أنت قلت للكهنة إنك زوجي.

ابتسمت فزاد عمر كاي عاماً. استطرد:

.ألا تخافين التماسيح؟

.قال الكهنة إن التماسيح لا تقرب المعبد.



.مُنذ متى تؤمنين بالكهنة؟

.عليّ أن أثق في كائن ما يومًا.

.إن كنتِ تثقين بي فأخرجي..

.لِمَ لا تنزل أنتِ إلى النهر؟ الماء دافئٌ والتيار يحمّش الروح قبل الجلد، أم إنكِ تخاف، مُني؟

.لقد سبحت مع التماسيح يومًا في البحيرة...

قبل أن يكمل جملته غاصت وابتعدت كسمكة سكندرية، اشتعلت الجذوة في صدر كاي، ثم امتدت النيران إلى أنفه فعقله، عيناه تلاحقانها وساقاه تقاومان جدوره المتشعبة في الأرض منذ ولد، نظر للفراغ بين القمر وظهرها ثم همس لنفسه:

كيف فعلتها؟

كيف خلقت تلك الأنثى؟ كيف دورتها؟

كم قضيت في بحثها؟

باي خمر وأي ورود وأي لآلئ ملأتها؟

كيف الفكك من خصلات شعرها؟

من ثغر كثرها؟

ثغر يستهزئ بالثيران، بالشמוש، بالنجوم الغلا.

أنت تعلم.

تعلم أنني لم أعبد صنمًا، ولم أشرك بك يومًا.



تعلم أني عبدك المطيع الذي عاش أيامه يبتهل ندمًا.

عبد سبّح باسمك عدد النجوم.

وسجد لك في ألف صلاة.

لكني لم أسجد في محراب مثل محرابها.

ولم أحرق البخور والقربان فوق مذبح مثل مذبحها.

إلهي، كيف أقاوم أنثى اشتتهتها الرمال والصّخر وأسماك النهر؟

كيف أقاوم تلكما العينين وذلك الخصر؟

كيف أشكو صنعتك إليك، والأسنان أسنانك، والشفتان شفّتك؟

سأخوض النهر خلفها ولن أبتل.

حتى أصل إليها فأغرق أو أنهل.

لتغفر لي أو لتلعنني فقد هُدمت أسوار معبدي واجتاحت العاصفة صدري.

ونقوض قدس أقداسي.

بين أناملها..

خاض النهر حتى خصره فخلع الإزار الذي يرتديه، التفتت إليه ثم انغمست في الماء لتصبغه، وابتعدت، اقترب منها

متوانيًا، مسحورًا بالكثفين والخدين، تدفعه ضربات قلب تسمعها الأسماك في منبع النهر، توقفت نادية عند حزمة

بوص، تابعتة حتى بات على بُعد ذراع منها، ابتسمت بأسنان لمعت في ضوء القمر.

كنت أفكر في حالي، وفيما لو ظللت على الشاطئ ولم تأت.



رمقها بصمت ثم أجاب:

. من ذا الذي يقاوم القرب منك؟

. ربما كاهن لا يؤمن بالحُب؟

. لم أؤمن حتى رأيت الآيات.

ضحكت:

. هل اقنعتك؟

. أجبرتني على السجود.

. لم لا تقدم النذور على المذبح إذن؟

. ستحرقين النهر.

. لتلك الدرجة تخافني؟

. أخاف العشق أن يتمكن مني فيهزمني.

. اقتربت منه، لم يتحرك، نفثت هواءها في صدره:

. وما لذة الحياة إن عشت مُنتصرا لا تنهزم؟

. الناس يأتون المعبد بحثا عن الشفاء من العشق. وأنا الآن أخطو خطوهم!

. بماذا كنت تدأويهم؟

. بالصلوات والتسابيح.



. هل اختبرتها معي؟

. منذ رأيتك أول مرة، ويجب أن أعترف، لم تجد معك حتى تلك اللحظة.

. هل تنوي تكرار المحاولة؟

. شفتاك في السفينة، أسقطت آخر حصوني.

قالها ثم لف ذراعيها خلف ظهرها ولثم الشفتين، أغمضت عينيها وغاصت فيه كما لم تغص في رجل قبله. عصرت أصابع قدميها طمعي النهر وأثار ثديها موجة فتحرك القمر من الشمال للجنوب، لم يكن يقبلها، كان يأكل، ينهل، يبارك بلسانه الأسنان والضروس، يستبح في قمها ويصلي فوق لسانها، ثم يمتص الدماء من عروق رقبته، أصغت الكائنات لصوت اللثم واللهثان حتى عضت شحمة أذنيه فسرت الرعشة فيه، أحاطت حصره بساقيها ونظرت في عينية أمرة، دون أن يناقش سحبيها من شفتيها كسمكة خمرية أنهكها الموج، استلقيا على العشب فاعتلى سماءها، فرخت جناحيها فاعتصر سحابها حتى برقت ورعدت، ثم أمطرت فأغرقت أسماك النهر، وسال نور القمر على قمم الجبال، ثم ساد السكون، إلا من رعشتها وتهدج أنفاسه لساعتين، شعرا حين استيقظا بعدهما أنهما ستنان.

نظر إليها فمال رأسها بابتسامة كسولة.

. لم أنت صامت؟

. الصمت في معبدك عبادة.

. احك لي عني.

. تنشدين المديح ولا أجيده.

. قل ما بخلدك دون فواراة.

. منذ رأيتك أتساءل عن ذلك النور السابح حولك، وعن الجنون الذي أراه في عيتيك، أما جسدي...





أكمل...

سحر، كسحر اللوتس الأزرق على العقول، وعطر كعطر الغزلان.

ثجيد الشعرا

نظر للنجوم:

الإنشاد في المعبد يعودُ اللسان على التبحيل.

لكنك تخاف العشق.

أضاف إلا استطيع العيش دونك.

لم تفترض السوء ؟

طريقي ليس مفروشاً بالورود.

لا تفسد اللحظة.

من متعتي أتخيل ضياعها.

تعود أن تستمتع بلا أرق التفكير، فإن كانت تلك أحر أيفاسك فالأفضل لها أن تكون مُحملة بعيق أنلي.

ألا تشناقين لحياتك السابقة، ففيها ألوان لا توجد في المعابد ؟

لم تجبه. كانت شاردة في العاهرة التي خرجت من الماء فمسكة في يدها بحبل من الطحالب، تفجرت اللعنات بداخل

ناديا فاعتلت صدر كاي مولية ظهرها للنهر ولمن خرجت منه.

إن كنت أشتاق ما تركت الإسكندرية.

صوت حبل الطحالب بدا كالجنازير في أذني ناديا، أغمضت عينيها ودقنت نفسها في خضن كاي.



. ألا تقارنين بيني وبين آرام؟

. مالت إليك كفة الميزان منذ رأتك عيناى.

. لكنه فتى ثرى وأنا...

همست العاهرة في أذنها مكملة جملة كاي.

. ساحر سينسمم أذنيك بمعسول الكلمات.

لم تُعرها ناديا اهتماما. أدارت وجهها للجهة المقابلة فرأتها. تنسخ من حبل الطحالب مشنقة. أردفت:

. كاهن ألقى كلماته في أرض لم يطأها غيره، كأنها أول مرة لي. لم أخط بتلك المتعة من قبل.

ابتسم كاي ولم يعقب فاقتربت العاهرة ومسحت بحبل الطحالب ظهرها وهمست في أذنها:

. انظري إلى عينية، إنهما تكدبانك. تحاول أدناء كلماتك. تحاولان تصديق أنك لم تقولي نفس الكلمات لغيره  
وغيره.

اضطربت ملامح ناديا:

. أنا لم أعشق قبلك وإن تظاهرت.

. أصدقك يا ناديا.

. حقا؟

. ولم لا أفعل؟

. لأنني امرأة لها ماض.

. كيف أحاسبك على ماض لم أشهده؟



. لو كنت مكانك ما وثقتُ فيّ.

. علينا أن نثق في شخص ما يوماً.

ضحكت ناديا فهمست العاهرة.

. الرجل يفعل أي شيء ليحتفظ بالأنثى أطول وقت. اسأليه. هل يقبل أن يعيش معك أبداً؟ هل يقبلك زوجة أمام الناس وأمام الكهنة؟

زفرت ناديا ثم سألت كاي:

. لننزوج، ما رأيك؟

نظر كاي في عينيها وتأخرت الإجابة فلقت العاهرة حول رقبتة حبل الطحالب المجدول:

. هؤلاء هم الرجال. تبين من أحلمهم قصور الرمال وتخيّلين بسذاجتك أنهم سيسكنون معك فيها. إنهم يا صغيرتي لا يرونك إلا جسداً. ومن أراد تذوق اللحم فليس عليه أن يشتري بقرة كاملة.

. ترددت أيها الكاهن؟

قالت ناديا وهي شاردة في المياه الجارية.

. لست خراً، فحمل ظهري ثقيل.

أردقت العاهرة.

. الفاكهة التي سقطت من الشجرة يعاقها الرجال وإن تذوقوها.

قامت ناديا فالتقطت العاهرة رداءها ووضعت على كتفيها حين وقف كاي:

. أين ستذهبين؟



زمت شفيتها بابتسامه:

. لا أريد لتلك الليلة أن يشوبها ذكرى سيئة.

. لتتفهمي مأساتي.

. فهمتها، أنت كاهن، لديك رسالة يجب أن تنجزها، ربك في السماء...

قاطعتها:

. وأنت في الأرض.

. في الحانة، سمعت تلك الكلمات ألف مرة.

. أنا صادق.

. وأنا أستحق الاحترام أيضا.

. حالما أنهى ترجمتي سوف ..

قاطعته:

. سوف تسعى لنشرها، وسيتعقبونك، وسيقتلونك.

. عليك أن تثقي بي؟

. أعطني سببا.

. لم أعتد خيانة العهود.

. لذلك لا تريد أن تعاهدني، لأنك ستنتهي ترجمتك ثم تسعى للانتقام ممن قتل أمك.



نجاحي في الترجمة هو انتقامي، أن يعرف الجيبتيون حقيقة المرض المتوغل فيهم.

همست الغاهرة:

.. حالما ينهي ترجمته ويعرف الجيبتيون... سيتزوجك ليهيك الاحترام والقداسة، بعد عشر سنوات.

رمقتها ببغض ثم أردفت:

أشعر بالبرد، سأذهب إلى الخص.

ناديا.

أحتاج أنا أكون وحدي.

تركته ورحلت. ظل كاي في مكانه دقائق قبل أن يرتدي إزاره ويتجه إلى المعبد.





في المعبد.

يختلط البخور بالذكر.

الفكر بالشروع.

والزهد بالرضا.

إلا إذا كنت تجلس على حافة مياه بحيرة مقدسة. هارياً من الدنيا، مُحدقاً في انعكاس قمر دون أن يرمش لك جفن،  
مُجتراً لحظاتك مع أنثى تعجز الكلمات عن وصفها. مُستعيداً وقع كلماتها في صدرك، وأثار قدميها على قلبك.

الأنثى تسعى لحياة، وأسعى لحذف. تتكلم بقلب بيض، وأتكلم بعقل. واثق. أو هكذا أتخيل. فخل ثابت تحرك وكل  
متحرك دار حول نفسه ثم تفجر وتناثر. فالندي كُفر بالأرض التي استقبلته، والمراكب فقدت الإيمان بالرياح الشمالية، أما  
أنا، من أنا؟ لا أكاد أعرف. كاهن يخدم الراعي وفريديه؟ أم رجل. تحرّكت روحه التي اعتادت الطيران بجانب الملائكة. وراء  
غزال بري متوثب يفوح منه عبق المسك؟

«سيدي الكاهن، لقد مسّني العشق».

سمعت تلك الكلمات وراء الجدران السميكة التي لا تبوح بالأسرار. تنساب من أفواه العشاق إلى أذني، يشكون الوله.





المرض، هكذا كنت أسمىه. أريت على الأكتاف وأمسخ الرؤوس بالزيوت ثم أتلو متون الصبر عليهم وأمرهم بالتسبيح مراراً وتكراراً حتى يزول العشق، كانوا يبتسمون بضعف وأعين زائغة تتلفت، ثم يذهبون، ظننت فيهم الشفاء لما لم يَعد منهم أحد إلى المعبد ليقدم الشكر والندور.

لم أكن أعلم.

أنهم كفروا بالمعبد.

وكهنة المعبد.

ورب المعبد.

لم يعد من سبيل لقطع الفكر وتخليص القلب من الكدر سوى العودة إلى البوص والبرديات، العودة إلى الكلمات التي كتبت نهاية كاهن أكبر، وتخط الآن، نهاية تلميذ لا ذكر له.

فالترجمة سهم انطلق؛ ومن الأفضل له أن يصيب.





ودخل موسى أرض الفيروز، أرض الحجر الأزرق الذي ضمن لقبائل هواره العلو منذ اجتاحتوا شبه جزيرة مصر بأرض إيجيبت، دخلها بلحية تنائر الشيب فيها ووجه تخفي تحت قلنسوة وسنوت من النسيان.

تعبرت هواره، عشرة أعوام كثرت فيها صروح رؤساء القبائل وشيد فيها الكبر من الحصون المخاطة بالخنادق درأ لهجمات الجيتيين من غرب وجنوب النهر بقيادة «خامس» ابن «سقين راعي» ذلك الملك الذي يطلق عليه الناس في هواره لقب «التعبان» يحفرون صورته على الأواني الفخارية ثم يكسرونها بعجل وحقد، أو يدفنونها في الطين الفاسد لتتعفن، ورفع فرعون سبعر رأسه حتى بلغ ألف كيلة من الذهب.

في طريقه لحى الإسرائيليون مر موسى بالأسواق، طريق طويل مظلل بالأقمشة، يتراص على جوانبه باعة الخروم والتمور والشعير وجزارو اللحوم، قبل أن يمر بساحة الأسلحة الممتلئة بحدادي البلط والخنوس وصانعي السيوف، لتنتهي الساحة عند هضبة قارون التي تطل على فرع النهر، ربوة مرتفعة تحمل قصراً جديداً كانت قواعده ترفع حين فر موسى هارباً، بناء بديع من الطين المتقوش، مرصعة شبائيكه وأبوابه بالأحجار، بجانبه ساقية عملاقة ترفع المياه من النهر بقوة تياره وعضلات الثيران، لتصب في مجرى صخري مائل يدفعها جارية متجددة إلى أحواض القصر، تأمله موسى للحظات ثم كبس قلنسوته فوق رأسه وانحرف تجاه خرائب بني إسرائيل، سار حتى كثر الذباب وفاحت الروائح الكريهة قبل أن يمر تحت بوابة خشبية متسخة كتب عليها بالدماء وبآرمية رديئة «الأراذل»، دلف موسى إلى الحي الذي تردت حالته من سيئ إلى أسوأ بعدما انعزل عن



أراضي القصر بسور عال رشقت فوقه رماح مسنونة. تحلت الوجوه وهزلت الأجساد. غلقت المتاجر وتناثر المربوبون والعاشرات، كثر الذباب وفاح العرق والمرض والشقاء من كل ركن، لمح رجلاً مصلوباً معلقة على صدره لوحة كتب عليها «ذلك جزاء الخائن»، وآخر وثق رأسه المقطوع بين قدميه وكتب عليه «قلب إسرائيلي»، قاوم موسى تقيؤاً قبل أن يسرع الخطى صوب بيته.

اتخذ الأمر من هارون لحظات حتى تعرف وجه أخيه، احتضنه بفرحة حتى بكيا قبل أن يحكم إغلاق الباب بالمزلاج، جلسا في غرفة النهر فحكى موسى ما كان من أمر سنواته العشر في مدين ليثشيع فضول هارون، قبل أن يبتتر حديثه عند رحلة العودة وما حدث عند الشجرة العجيبة، أراد أن يرجئ الذهول، التعجب، والأمر الجلل الذي أتى من أجله، فسأل هارون عن حاله فأخبره أن أباه قد مات منذ عامين بعد مرض لم يمهل، تجهّم موسى وهو يتذكر مروه يومياً على ذلك الحاجب الذي يبتسم له في حنان وود فربت هارون على كتفه ليشتت حزنه، ثم حكى عن مريم التي تعيش في الجوار مع زوج مريض، وعن حاله.

.أتزوج؟ من التي تتزوج من نحيل مثلي يا موسى؟

.لك عينا أهلك وهيبتة.

. لم يعد أحد يتزوج في بني إسرائيل يا ابن أم. ففرعون يحرم علينا التجارة مع القبائل ويصلب ذكورنا لأنه الأسباب، أما الفتيات فإما يبعن رقيقاً بأخس الأثمان أو يحترفن البغاء، يا ليتنا أهلكنا أو أباد ذريتنا حين أتته الرؤيا الملعونة، إنه فقط يستمتع بمذلتنا.

.وقارون؟

.كنوزه تتضخم كبطن فرس النهر. نهم لا يكتفي، يقدم أبناء قبيلته حطباً لنار فرعون نظير استثنائه بمناحم الفيروز.

.ألا يتحرك زعوس العشائر فيستنكرون الظلم؟



من ذا الذي يجروني على مواجهة فرعون؟ أنت لا تعرف كم الغرور الذي بلغ رغم تأكل أراضيه الغربية لصالح «كامس»، فالآن يسبق اسمه لقب «الرّب الأعلى»، يوتد الأطراف ويقطع الرقاب متعة وتنكيلا في احتفالات بادخة لا تنتهي، يبدد قوة الرجال في حفر الخنادق وصنع طوب الطمي في موقد ضخ لا تخبو ناره، يبني الصروح مقلداً قصور الجبتيين في الجنوب، يظن أن الطين سيصمد كما تصمد أحجار سونو (١).

هل ذكر اسمي منذ رحلت؟

جاء جند هامان البيوت بحثاً عنك، ثم خبت سيرتك ونسي أمرك، وقد أثلج صدورهم ابتعادك عن رأس العجل.

الشكر للراعي في سمائه أنك على قيد الحياة.

سكت الكلام ولاحت في وجه هارون بسمه اطمئنان قبل أن يقرأ في عيني موسى كلمات محبوسة.

يا ابن أم، ما سبب المخاطرة بزيارة الديار بعد استقرار؟

إنما أردت الاطمئنان عليك وعلى مريم، ولتعييني في طريق علي اختياره.

فذاك لنفسي، ولكن أي طريق؟

الطريق إلى قصر فرعون.

تدلي فك هارون وانقطعت أنفاسه وزاغت عيناه شروداً في ما قال أخوه.

(١) سونو: هو الاسم القديم لأسوان حالياً، ويعني السوق، حيث كانت مركزاً تجارياً للقوافل ومهجراً وقيراً للأحجار.





لم يَفِقْ هَارُونُ مِنْ صَدْمَتِهِ إِلَّا حِينَ أَخْرَجَ مُوسَى يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ بِيَضَاءٍ مُضِيئَةٍ:

.المسها ولا تكف.

اقْتَرَبَ هَارُونُ فِي وَجَلٍ وَلاَمَسَ كَفَّ أَخِيهِ. نَظَرَ إِلَيْهِ فِي شَعْفٍ فَخَصَّ مُوسَى مَا حَدَثَ عِنْدَ الشَّجَرَةِ بِوَادِي طُوى.

دَمَعَتْ عَيْنَا هَارُونِ ثُمَّ جَثَا:

.لَقَدْ تَكَرَّرَ حَلَمُ عَوْدَتِكَ وَالشَّمْسُ بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى أَدْرَكْتَ أَنَّ أَمْرًا حَلَلًا سَيَحْدُثُ.

.لَقَدْ أَتَتْ اللَّحْظَةُ الْفَارِقَةَ يَا هَارُونُ.

.كَدَتْ أَيْاسٌ مِنْ وَجُودِهِ فِي السَّمَاءِ. طَالَمَا شَرِدَتْ فِي سَبِيلِهِ أَسْلَافُنَا وَدَعَا أَنْ يَخْرُجَ مِنَّا مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ، لَكِنِّي لَمْ

أَكُنْ لِاتِّوَقُّعِ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ يَا مُوسَى ذَلِكَ الرَّسُولَ! هَلْ رَأَيْتَهُ؟

.لَمْ أَرَهُ، لَكِنِّي سَمِعْتُهُ.

.كَيْفَ بَدَأَ صَوْتُهُ؟

.كَلِمَاتُهَا وَقَعَ مَثِيرٌ تَلْقَى فِي الْعَقْلِ كَمَا تَلْقَى الشَّمْسُ أَشْعَتَهَا عَلَى الْوَرُودِ. وَقَدْ طَلَبْتَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ



طريقي، وقد بارك.

تهدج صوت هارون حماساً وخوفاً:

.أنا؟ رسول؟

.نعم، إلى فرعون.

.ويحي، عقلي لا يحتمل كلماتك!

.لن أجد خيراً من هارون، أخي الحكيم.

.ما هي الرسالة؟

.أن يفك أسر بني إسرائيل ليخرجوا من حلف القبائل.

.سيؤتد أطرافنا قبل أن نكمل ما نقول.

.الرأعي معنا خطوة بخطوة، يسمع ويرى.

أطرق هارون برأسه إلى الأرض في شرود.

.لكن نحن للضعف أقرب، لن تؤازرنا القبائل، وأولهم تلك القبيلة.

.لم أقل إن الطريق ميسور.

.لم اخترتني؟

.ينقصني جلمك وكياستك، لتحفظ زمام غضبي. وتجبر كلماتي إذا تلجلجت، كما ساعتمد عليك أن تخاطب

أصحاب الألياب من بني إسرائيل: كي ترفع عنهم الذلة والمهانة، وليعرفوا أن الرأعي في السماء حي لم يمت.

نظر إليه هارون وهز رأسه ثم ابتسم:





ما كنت لأخذك يا ابن أم.

في المساء استدعى هارون سرّاً رؤوس العائلات من بني إسرائيل في بيت رَجُل منهم، تذكروا من الانتظار حتّى دخل عليهم موسى، كشف وجهه فقطبوا جبينهم في اندهاش وتشاؤم، جلس بينهم فساد الصمت قبل أن يتساءلوا عن سبب عودته، حكى لهم عن رحلته إلى مدين ثم عن الرسالة التي حمّل ظهره بها، عيست الوجوه وتمشّى في ملامحها الاستهزاء والاستنكار والوجل، قال كبيرهم:

لقد هبطنا مصر من قبل يوسف، عشنا فيها ومتنا، أكلنا من أرضها وشربنا من آبارها، وتحملنا هجمات الجيبتيين، الآن تريدنا أن نخرج من أحلاف القبائل إلى الشرق المقفر؟ نعود يدوّا رَحْلاً لا أرض لنا ولا زرع؟  
الرّب سيتكفل بإقامتكم وماكلكم.

إن كلماتك لا تحمل إلا الهلاك يا ربيب القصور.

بل النجاة من المهانة والخروج منها، ما لكم تتكلمون كأنكم أسبياد مكرّمون؟ إن فرعون لا يزداد إلا طغياناً وعيلاً.

نظروا لبعضهم في استنكار، ثم أردف أحدهم

لم نذكرنا ربك الآن؟

رَبِّي وربكم واحد أحد، خالق كل شيء، لا ينسى ولا ينام وكل شيء عنده بمقدار وميعاد.

هل يصدّق عقلك أن فرعون سيترك بني إسرائيل يخرجون من مصر إلى الشرق؟

عليّ وأخي إقناعه، تلك مهمّتنا.

سينكل بنا ويصلنا في جذوع النخل.

كان ذلك لا يحدث لأنفه الأسباب! كلّمنا مرّ عليه الوقت اشتعل جنونه، القادم أسوأ.



. ألا تخافان القتل؟

. قال الرب إني وهارون ومن اتبعنا غالبون.

. وما يدرينا أنك رسول الرب حقاً؟ لم لا يكون عقلك قد أصابه الخبال؟

. ستعرفون حين أعود من بيت فرعون.

ساد الصمت فنظر الرجال لبعضهم ولموسى وأخيه الواقف خلفه. قبل أن يهزوا رءوسهم ويقوموا:

. سندعمك ونؤيدك. ولكن تلك الجلسة لم تحدث. حتى تعود من بيت فرعون على قيد الحياة.

نظر موسى لهارون الذي هز رأسه مؤيداً ثم مد يده لشيوخ القبيلة:

. هذا عهد بيننا.

لما غادروا نظر موسى لهارون:

. لا أعرف أيهما أصعب. لقاء بني إسرائيل أم لقاء رأس العجل!

. هما نفس النسيج. ضباع.

. مددت يدك بالسلام في عجل! لن يؤيدونا إلا إذا عدنا أحياء.

. هذا أقصى طموحي في دعمهم.





لم يصدق الحارس القديم عينيه حين رفع الأمير العارب قلنسوته فكشف وجهه. قطب جبينه وهو يتأمل عشر سنوات حفرت وجه ابن عمران حاجب باب الملك الراحل. قبض عضده وعضد أخيه فانتحى بهما جانبا وهمس منفعلا:

. ما خطبكما؟ أصابكما الخيال أم تسعيان لحثف؟ أنت يا هارون؟ كنت أظنك رشيدا تملك حكمة أبيك؟

ابتسم هارون في هدوء:

. أبي لم يكن يتحدث إلّا عن إخلاصك وصداقة لن يفرقها إلا الموت.

. رحم الرب أباك. تواري أربعين سنة خلف الباب الكبير فلم يظله من الملك ما قد تطولكما، وأنت يا موسى. أما

علمت أن الملا يترقبون عودتك ليقتلوك؟

ربت موسى على كتف الحارس:

. إنا بعواقب زيارتنا لمدركون.

وعقب هارون:



. إن كنت تثق في عمران فلتثق في ولديه.

نظر إليهما الحارس فلمس في أعينهما الجنون والتصميم:

. لستما طفلين تنقصهما الوصاية.

تقدّمهم في أرض القصر التي تغيّرت ملامحها، ارتفعت ثلاثة تماثيل ضخمة في الطريق الصاعد المسور بالنخيل، أولها لـ«ست» منتصبًا بوجه خنزير، يضع تاج العجل على رأس فرعون الواقف أمامه، التمثال الثاني لفرعون بزي وتاج الحرب، ممسكًا برأس مقطوع يمثل ملك الجبتيين «سفنن راعي»، أما الثالث فكان صنمًا قديمًا يعود لموطن الملك بيرية فاران.

وصل موسى وهارون لنهاية الطريق الصاعد قبل أن يمشيا بحذاء السور الذي ارتفع حتى بلغ أربعًا وعشرين ذراعًا، دلفا من البوابة الكبيرة، وطلبا من الحاجب مقابلة الملك:

. أخبره أنني موسى، الفتى الذي فر من هؤارة قبل عشرة أعوام.

انتظرا ساعة قبل أن يؤذن لهما، انحذرا جنوبًا خلف الحاجب حتى بلغا نبع الماء الذي تفجّر بين الجبال في عهد الملك خيان، ملأ بحيرة صافية تتصاعد الأبخرة من مياهها وينمو حولها النخيل، أمرهما الحاجب أن ينتظرا خلف صخرة ولا يحدثا صوتًا، اختلسا النظر نحو سقيفة يعلوها سبع النخيل قرأيا رجال آل فرعون، بعض الأصدقاء القدامى الذين تملخوا المناصب، وعلى الوسائد الناعمة تناثرت فتيات المنعة في استرخاء، يخدمن الجمع بلا حدود، ثم لمحا ظهر قارون، زاد شحمه فتدلّى على الجنبين وطالت ضفيرته حتى لامست مؤخرته السمينة، يحيط بذراعيه غلام عار مكسو بالجواهر، استنكر هارون المشهد ولوى شفّيته فغمز موسى بعينه وهمس:

. ليست كل الأخبار مكذوبة.

ثم ميّزا هامان، يقف قرب البحيرة بجسد صلب مفتولة عضلاته رغم بلوغه العقد السادس، ينظر لمياه النبع الساكنة بترقب، همس هارون:



. على ماذا ينظر؟

. سباق التنفس.

لحظات لم تطل حتى خرج رأس الملك من المياه الساكنة، سحب شهيقاً عميقاً ثم صاح صيحة عالية ردّتها الجبال فضجك هامان في صخب وصفر تشجيعاً ورفع قارون كأس نبذه في كسل تحية لرثتي الملك، خرج فرعون من الماء عارياً، يتدلى عضوه المخبّض بمسحوق الكركديه الممزوج بالنحاس المحروق، صرف العبد الذي اقترب منه بالمناشف متعمداً الوقوف عارياً أمام الجمع الذي اتخا الوسائد، ثم اقترب هامان منه، تبادل حديثاً لم يلتقطه موسى الذي تأمل غريمه بعد طول غياب، طال شعره وكثرت الحلقات النحاسية التي تضفر لحيته والسلاسل الغليظة على صدره، تحمل أحجاراً من مناجم الفيروز وبقايا شهب لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها حين هوت من السماء، وازدادت عيناه حدة، طال الحديث حتى جفّ جسد فرعون بحرارة الشمس قبل أن يلتفت تجاه موسى، تأمله للحظات ثم ابتسم وأشار بأصبعه ليقرب، نظر هارون لموسى الذي هز رأسه مطمئناً ثم اتجها لفرعون، اقتربا فالتفت قارون مضيقاً عينيه فتحامل على فتاه ليقوم من مكانه مقاوماً سخوم كرشه، حين بلغا فرعون لكز الحارس ظهريهما بعصاه وهمس:

. اسجداً لرب الأرض.

نظر موسى في عيني الملك ولم تحرك ساكناً، اخضر وجه هامان وانفجر الغضب فيه فالتقط خنجرًا من حزام حارس قريب فتحفّزت أسلحة الباقيين، اقترب من موسى وأخيه شاهراً التصل فاستوقفه الملك:

. دعه يا هامان.

كز هامان على أسنانه فنفخ أنفاسه في وجه موسى ثم صاح بانفعال:

. لقد قتل ذلك الخائن رجلاً من قبيلتي.

. اجاب موسى:



.كنت في ضلال فقتلته خطأ.

صاح هامان:

. ولم فررت؟

. علمت أنكم لن تسمعوني أو تصدقوا.

مسح فرعون على شعره الكثيف:

. دعه يا هامان، فالفتى الذي ربيناه وليداً وليث فينا من عمره ما ليث، صار رجلاً.

ثم التفت لموسى بابنيسامة:

. لم يكن لك هم سوى ركوب الخيل في الصحراء وزيارة الخرائب، ثم فعلت فعلتك في جنح الليل وقررت. لم

أرسل وراءك من يقص أترك فيقتلك، وها أنت تعود من الجحر الذي كنت فيها لماذا؟

. لقد أتاني راعي السماوات والأرض فجعلني من المرسلين.

نظر فرعون إلى هامان وإلى قارون الذي اقترب. ثم انفجر الضحك. حتى الفتيات وخدام قارون والحرأس ضحكوا.

واقترب الملا والأصدقاء من تحت السقيفة ليتابعوا المشهد، تبادل هارون وموسى النظرات حتى هدا الضخب

فقال فرعون:

. موسى! طريح الماء، أصبح رسولاً! رسول من؟

. رب العالمين...

اهتز قارون:

. انتظرا حتى يعرف بنو القبيلة الخرف الذي جنتمونا به. وأنت يا هارون، يا ناسك القبيلة، هل صدقت كلمات





أخيك...؟

قاطعه فرعون:

«مهلك، انتظر، للتو قال: «رب العالمين»! أنا لم أرسل أحدًا!

عقب موسى:

«أتحدث عن رب السماوات والأرض وما بينهما، ورب آبائك الأولين.

نظر فرعون لهامان وقارون:

«ألا تستمعون؟ لقد قال: «رب السماوات والأرض ورب آبائنا الأولين».

أردف قارون:

«لا بد أن الجذام المنتشر في خرائبكم تسلب إلى عقليكما.

وصاح هامان:

«دعني أقطع رأسيهما.

رفع خنجره فتحقق موسى ووضع هارون خلفه:

«يا فرعون إنني رسول الراعي، جدير بي ألا أقول إلا الحق.

أطل الغضب من عيني فرعون:

«تناديني بفرعون دون لقب؟

«تقف عارياً وتطلب لقباً؟



. لقد نفذ صبري، قل لي ما الذي أتى بك قبل أن يطير رأسك ورأس ذلك النحيل البائس؟

. أريد أن ترسل معي بني إسرائيل.

قارون:

. ماذا تعني يا ذاهب العقل؟

. أعني أن ترحل بني إسرائيل من بين الأحلاف.

. إلى أين؟

. إلى أرض الرب الواسعة.

أردف قارون:

. ومن أنت حتى تتحدث نيابة عن بني إسرائيل؟ ألاستك شمس الصحراء أنتي زعيم تلك القبيلة؟

. وأنا رسول رب العالمين لتلك القبيلة، خير من رجل لا يستحي قتل عشيرته

اضطربت النار في وجه قارون فنظر فرعون للملا من الأثرياء الذين وقفوا عن قرب يتابعون،

. كنتم تسألونني لم أحتقر تلك القبيلة العفنة؟ ها هي التوايا تصعد إلى السطح، يريدون أن يخرجوا من الأحلاف

لينضموا للجيبتيين في الجنوب حين يقاتلوننا، يقاتلون إخوانهم.

تمخّن الغضب من موسى.

. الآن بني إسرا... ئيل، إخوانكم؟

ضحك فرعون:

. تمالك نفسك حتى لا تبتلع لسانك.



هَمَسَ هَارُونُ فِي أُذُنِ أَخِيهِ:

. اهدأ يا ابن أم.

قال فرعون:

. كانوا إخواناً حتى أدركت نواياهم حين ملكت العرش، لا يكفيهم الاستئثار بالذهب، ولا ممارسة الربا، بل

ويتناسلون كالخنازير، يريدون ليستولوا على حكم مصر، متمسحين في نسل من الدجالين والمشعوذين

ادعوا يوماً اتصالهم بالسماء.

. اتركهم ليرحلوا معي وسأكفيك شرهم.

. إلهك المزعوم هو من أمركما بذلك؟

. نعم.

. أين يسكن إلهكما؟

أردف هارون مخففاً عن موسى غضبه:

. في كل مكان، هو الذي جعل الأرض ممهّدة وسلك لخم فيها الخيرات، هو الذي ينزل الماء من السماء، وهو

الذي يخرج النبات من الأرض، وهو الذي يحيي ويميت، إن في ذلك لآيات لأصحاب العقول.

. وماذا عن الأمم الأولى يا صاحب العقل؟ هل إلهك هو من دمرها؟

أجاب موسى:

. من كذب وادّعي نفسه إلهاً يأتيه عذاب السماء.

التفت فرعون للملأ الذين تابعوا المحادثة في شغف:



. يا أيها المَلَأُ، ما علمت لَكُمْ من إله غيري.

ثم نظر لهامان:

. لم لا توقد على الطّين يا هامان فتجعل لي صرخاً لعلّي أطلع إلى إله موسى؟ إنني لأظنه كاذباً.

ضحك المَلَأُ فالتفت إليهم موسى:

. لقد جئْتُكم بيئنة من عنده لعلكم تصدقوننا.

ابتسم فرعون ورفع حاجبيه:

. أبلغوا المهرجين من الألقام أن اليوم يوم راحة، فقد أتانا مَهْرَجَانِ جديدان.

نظر موسى لأخيه قبل أن يرجع للوراء خطوتين، رفع عصاه فتحفر هامان وتوارى قارون خلف كتفه، أما فرعون فداعب عضوه مستهزئاً حين ألقي موسى عصاه، ما إن لامست الصخر حتّى تلوّت، ثم استحالَت ثعباناً أسود لامعاً في طول رجلين، فرع المَلَأُ وركضت الثعابين ومن ورائهن قارون يهزّ لحمه في خفة حتّى انكفأ على وجهه أرضاً، رفع هامان خنجره وتراجع للخلف، وسخّد الحُرَّاس على الأرض باسطين أيديهم مُتَصَرِّعين، أما فرعون فتبيّس مكانه من الخوف، تَوَاجَه الثعبان بعينين جاحظتين وفك تدلّى، وارى عضوه المخضّب بكفيه حين اقترب الثعبان وانتصب، نافخاً أوداجه حتّى باتت عيناه المشقوقتان في مسنوي رأس فرعون، أصدر فحيحاً مقبضاً بلسان مشقوق لونه كالدّم، توقف الزمن لدقيقة قبل أن يشرع فرعون في الرجوع للوراء خطوة فأتى الثعبان بهزة للأمام وصاح بفحيح مفرع قبل أن يزداد اقتراباً وعلواً، نظر فرعون لموسى دون أن يحرك عينيه عن الثعبان:

. موسى، التقطه كما ألقيته.

نظر إليه موسى ولم يعقب فتَظَرَّ فرعون للمَلَأ من حوله ثم ثنى ركبتيه فجثا، فما كان من موسى إلا أن انحنى والتقط ذيل الثعبان فتصلّب قبل أن يعود لسيرته الأولى، جذع خشبي عتيق.



قام فرعون والعرق يُغرقه، نظر للملأ حوله، لهامان الذي جحظت عيناه في غضب مكبوت، ولقارون الذي سقط أرضاً وتهدّجت أنفاسه، ثم صاح:

. كيف تجرؤ على الإتيان بسحر الجيتيين إلى قصري؟

أخرج موسى يده من جيبه فإذا هي ناصعة كأن الشمس فيها:

. إنما الآيات من عند ربي.

ضرب النّصوع أعين الناظرين فسحراها، لم ينبس أحدهم بكلمة حتّى ضم موسى قبضته وفتحها فرجعت إلى لونها الخمرى، قال هامان:

. إن هذا لساحر عليم.

التقط فرعون إزاراً فوضعه على خصره ثم التفت إلى الملأ المسحور وأشار لموسى:

. ما لي أراكم لا تنطقون؟ سحرت أفاعيل الجيتيين أعينكم؟ ربيب القصر، ابن الخرائب، يريد أن يخرجكم من أرضكم!

قال موسى مقاوماً غضبه:

. أرض الفيروز ليست أرضكم، إنما هي جزء من أرض الجيتيين التي اجتاحتها أجدادكم، وإن كل ما يريد ربي هو أن تتركوا بني إسرائيل ليخرجوا منها.

قال أحد الحاضرين:

. لقد رأيت مثل هذا في ساحات الجيتيين.

وعقب آخر:



. نعم، إنما هي أفاعيل سحرة «واست».

قال فرعون:

. ماذا ترون فيمن يريد شق أحلافكم وذهاب قوتكم؟

قال قارون وقد نفخ ملابسه وإن لم يقترب:

. أجبثنا بسحرك لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا؟

وعقب هامان:

. تكسر أحلافنا فيكون لكما الملك وكنوز الأرض.

قال موسى:

. ما نبغي إلا خروج بني إسرائيل من أرض مصر

قال هارون:

. وما جئنا به لا يقدر عليه السحرة، اسألوهم إن كنتم لا تعلمون.

نظر فرعون للملأ من حوله ثم لهامان الذي أشار له بالاقتراب ثم همس في أذنه:

. أريد أن أقتله، لكن تلك العصا...

قاطعه هامان:

. لا تقتل اللعين فتعيبانه سحر أعين أصدقائنا ولا نملك مثل سحر الجبتيين لترد كيده، علينا أن نهزمه أولاً، ثم

نقتله، رأيي أن نرجئ تحديه ونرسل إلى مدن الجبتيين، قرية «أنصنا» تمتلئ بسحرة الثعابين، لنأت بهم

فيكيدوه ويهزموه.





نظر فرعون لعصا موسى ثم قال لهامان:

. وهل ينصفنا سحرة الجبتيين؟

. سنجزل لهم الهبات ونعدهم الحظوة.

. تلك مهمتك.

قالها ثم التفت لموسى:

. سأتركك لتعيش يوماً آخر مع أخيك الهزيل، وسأترك بسحر مثل سحرك، ليظهر للناس كذبتك، اجعل بيننا

وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت.

نظر موسى لهارون ثم أردف:

. قبلنا التحدي، أين؟

. مكان وسط، بين خرائكم وقصري.

عقب هارون:

. ليكن اللقاء يوم العيد، فالناس تحشر وقت الضحى.

. اعلموا، لقد بدأتما حرباً، عليكما تحمل عواقبها، ومن ورائكم قبيلتكم، مثلما تحمل الجبتيون عواقب جنون

ملكهم «كامس».

هز موسى رأسه ثم مضى متسحباً. هز عصاه بالقرب من فرعون الذي رجع خطوتين فكتم الملاً ضحكاتهم

وتابعوا موسى وأخاه حتى اختفيا، فالتفت فرعون وسحب الخنجر من يد هامان فأغمده في صدر حاجب الملك

الذي وقف بالقرب، سقط الرجل على ركبتيه شاهقاً فقبض فرعون على رأسه وهمس في أذنه:



لن تحضر يوم العيد، ولن تسعد بعرض السحرة، لأنك أدخلت هؤلاء الأراذل إلى قصري.

قال الحارس والدعاء تفيض من فمه:

لم أكن... أعرف، أنهما ساحران.

لأنك تنتمي لخرائب إسرائيل.

في طريق الخروج رافق الحراس الأخوين، عن بعد، ينظرون إليهما بهيبة وللعصا برعب، حتى مر موسى بمسكنه الذي تربى فيه فوقف يتأمله، جناحاً ملحقاً باستراحة الملكة:

موسى!

التفت قراها. لم تتغير. شعيرات بيضاء تنارت بحياء، ونجايد خفيفة حول القم والعينين، أما البشرة فمالت للذبول وإن لم ترجع إلى المهق، ابتسم موسى فاقترب منها. التفت يدها فقبلها:

حسيت أنني لن أراك ثانية حتى هربت إليّ خادمتي بخير ظهورك المفاجئ، أنسيت أختك يا موسى؟

عار عليّ أن أنساك يوماً يا راحيل، أنت كل ما بقي لي في ذلك المكان.

أين كنت؟ وماذا حدث عند البحيرة؟

نظر موسى للحراس الذين حاصروه ثم التفت لها:

لا أظن أن الحراس سيصبرون عليّ بقائي داخل الأسوار.

هزّت راحيل رأسها متفهمة:

سنلتقي قريباً.

في طريق النخيل تلقت هارون خلفه أكثر من مرة حتى قال موسى:



. لن يتبعنا.

. للتو استثرنا جباراً يقتل بلا رادع، لقد كاد قلبي يقفز من صدري في اللحظة التي خرج فيها من الماء.

. لقد عشت في ذلك القصر سنين ولم أعهد إلا جباناً خائفاً لا يؤثد إلا أعزل أو ضعيفاً.

مشياً للحظات ثم سأله موسى:

. ماذا عن السحر الذي وعد به؟

. لن يكتفي بصناع الحيل الرديئة بسوق هواره. سيرسل في طلب سحرة الثعابين من الجنوب، إنهم رجال

يقيمون على حدود القرى، لا يدخلونها ولا يأكلون في بيوتها. يدهنون وجوههم بالنبيلة الزرقاء ويحملون

جوانات حمراء تحوي ثعابينهم وأشياء أخرى.

. عليهم أن يواجهوا ثعبان الرب.

. له الغلبة بأذنه.

. سمعت فرعون وقد قال إن على الجيبتيين تحمل عواقب جنون ملكهم «كاهن». ماذا فعل؟

. في معركة بلدة «أمبوس» تلاقي جند فرعون بجند «كاهن». الفتى كان يرفع شعار أبيه «سقين راعي»

ليستنفر جيشه. حاصر البلدة حتى انتصر على جند فرعون. تمشى بينهم يتفقد القتلى قبل أن تأتي الطعنة

من أحد جرحى جند فرعون لتقضي عليه. ملك آخر للجيبتيين يقتل على يد فرعون.

. ومن يملك «واست» الآن؟

. أخ له يدعى «أحمس»؛ اسم يعني بألعتهم «هلال السماء».





في حانة نيلوس.

تعودت الأعين تحنّب الرُّكن الذي يربض فيه، أسد هربت فريسته: غزالته. يلهث بلا زفير فوق مائدة شمعونها لا توقد، في يده كأس لا تكاد تفرغ حتى تمتلئ، يعب منها ولا يسخر، صامت كمعبد، يرمق عارفات الناي بصدر تحرقه لواعج الهوى، ففي اللحظة التي رأى فيها أثار قدميها على رمال الشاطئ بجانب خطوات الكاهن، نسي كلابه حتى هامت وتفرقت في الطرقات بحثًا عمن يطعمها، نسي حبه الذي تربى فيه، نسي الرقص ونسي الطعام، نسي التنفس.

كان يعلم أن جذورها متشعبة في صدره، وأن شعرها مجدول في ضلوعه، لكنه لم يدرك مدى غرسها حتى انتزعت قلبه ورحلت، اعتلى من أجلها كل أنثى وقعت عليها عيناه، اعتلى بشيق، بقسوة، حتى لم يبق إلا إناث كلابه.

فالأنثى لا يمسح عرقها سوى أنثى مثلها.

ولكن...

هل هناك عرق كعرق ناديا؟

شفتين كالثّوت، كشتيها؟

خصر كخصرها؟



غَنجَ كَغَنجِهَا؟

ساقين كأعمدة المعبد مثل ساقَيْهَا؟

في كل مرة، وحين يُفَرِّغ ما فيه من حزن وغضب وصريخ ودفقات، يزبح الأنثى ويشرد، ليدرك رويداً أنه يخدع نفسه.

فما تلبث رائحتها أن تنتشر في صدره، في أنفه.

وما تلبث شعرها المموج أن تخرج خصلاته من فمه، أذنيه، من عينيه.

وما تلبث أناملها الصغيرة ذات العظام اللينة، ما تلبث أن تعتصر قلبه بين ضلوعه حتى تتكسر أظافرها.

لو وطئ نساء الأرض.

لو وطئ البحارة ذوي اللحى أو وطئ الغلمان.

لو وطئ حيتان البحر، وقواقع الشيطان.

لن ترحل ناديا من صدره، فهي الهوى الذي يحيا به.

ويموت دونه.

أما الحلم الذي يراه نائماً أو مستيقظاً ويبتهل للإله أن يحققه، هو أن يلتقط ريحها فيجوب البحار وينسلق الجبال،  
مُصطحباً معه المخلص الأخير: سيربيروس، حتى يحدها، لن يعاتبها أو يلومها، سيقبل الثغر الذي قتل ويمض أنامل  
اليَد التي طعنت، ثم ينهل روحها، من بين ساقَيْهَا، ثم يترك قلبه ليمرقها، ويتأملها، حتى يأكلها الدود ويصير ذباباً  
أزرق.

وحتى ذلك الميعاد، على صاحبات العروش، صاحبات الفروج أن يعرفن جيداً...

من هو أَرَام.



لم يكن يجرؤ على الاقتراب من المائدة سوى الساقى الذي أشفق عليه من الألم، وعلى حانته من الركود، يضع أمامه الكأس تلو الكأس لأيام طالت، حتى جذب الكرسي يوماً وجلس، تأمل آرام لدقائق ثم ربت على كتفه وهمس:

. يتساءل الناس عن فتى الفتيان.

أجاب آرام بعد سنتين:

. قل لهم إن آرام قد مات.

. ومن المائل أمامي إذن؟

. روح كلب تتلبس جسداً.

. لا يقل النساء إلا النساء، وليس في إليوسيس أكثر منهن، اعترف ما شئت حتى تمتلئ.

. اصمت، يكفي أنك أويت الجيبتي في حانتيك.

. لم أكن أعلم أنه ساحر للنساء.

أمسك آرام بتلابيب الساقى وشدد حتى التفت رواد الحانة

. ناديا ليست نساء، ناديا خلقت لي.

تركه بعدما هز رأسه مؤمناً. هندم الساقى قميصه ثم همس: لدي شيء قد ينفعك.

نظر إليه آرام في نقاد صبر فأردف:

. شيء يخص الكاهن، تركه سهواً ولم أجد في نفسي ميلاً للتخلص منه.

لمعت عينا آرام وسحبت رثاه نفساً عميقاً لم يملئها منذ زمن، ثم قام فاتبع الساقى.





«هناك شاب في الخارج يقول إن لديه معلومات عن الكاهن».

حين مثل بين يديه جثا في إجلال ثم وضع البرديات، التقطها مردخاي بشغف، فلبّها بعينيه فقرأ همسات من ألف وثلاثمائة سنة، همسات التيه، المدونات التي خطها موسى فترة إقامته بأرض الفيروز، اضطرب قلبه فرحاً وهو يتصفحها قبل أن يلمس نقصها ويثر صفحاتها، التفت لأرام:

. من أنت؟

. أرام بن عازور الإسكافي، السيدة راعوث هي زوج جدي، وشاءول كان صديقي.

. نعم، شاءول، أنت ابن شانا المخبولة؟

. هز أرام رأسه وكز على أسنانه:

. نعم يا سيدي.

. امرأة جميلة رغم ما أصابها، أورتتك شعرها وعينيها، ألا زالت على قيد الحياة؟

. نعم يا سيدي.



. ادعو الرب ألا يطولَ نسلك ما طال عقلها من خبال.

زفر آرام ولم يعقب، استطرد مُردخاي.

. أين بقية البرديات؟

. هذا ما تركه الجيبتي في الحانة قبل الهرب.

. تركها؟

. وجدها الساقى مُلقاة في ركن وراء برميل، لم يُدركها في الظلام حين قر في عجالة.

. لم تاتني لانك مهتم لأمر البرديات؟

. الفتاة التي صاحبت الكلب الجيبتي، كانت حبيبتي.

هر مُردخاي رأسه وقام.

. هل تعرف لهما وجهه؟

. أرادها أن تذهب معه إلى الجنوب لتقابل أباه. مُجرم قتل أحد أبناء «دلتا» ثم فر إلى المستنقعات.

. مم، هل تكلمت مع الجيبتي؟

. عرض عليّ ذهب المعبد نظير خروج ناديا معه، وعدني بسرقة إن وافقت.

. ذهب معبد سمنود؟ لن يذهب إلى المعبد، ماذا سمعت أيضاً؟

. قال الساقى إن الجيبتي أسر له بأنه يرغب في تلقي العلم في معبد «أون».

لم يعقب مُردخاي، اقترب من آرام حتى رأى انعكاس وجهه في عينيّه.



.أكانت الفتاة جيبتيّة؟

.عازفة ناي من راقودة.

.الفتيات لا ينفخن الناي إلا لمن يتقن الغناء.

احمر وجه آرام غضباً قابتسم مُردحاي.

.مؤلم؟ أتحدّث عن الفقد، لكنّه أمر متوقع، أنت لم تكن لتتزوج منها على أي حال اليس كذلك؟

.لا، أنا أذهب للمعبد في كل سبت.

.وليس بك علةً تحملها على الفرار؟

انتفخ انفأ آرام فأردف مُردحاي.

.ماذا تعمل يا آرام؟

.أخوض المصارعات بكلابي المدربة.

.كَلاب، مهم، لقد جئتني لأفدك من لعيب الاشتياق، لأنيك بالكلبة التي هربت منك، الكلبة التي أحرقتك، العيب عيبك

أن تترك فتيات «دلتا» المكرمات لنطأ كلبة من راقودة، لا بأس، ليكن ذلك دافعاً لك كي تصل إليها، وللكاهن الذي..

أعجبها، أو يكون ما حدث لك عاراً على عار أمك.

لمع الخيال والحلق في عيني آرام.

.سأحرق راقودة إن أمرتني، اسأل عني حي «دلتا» وستعرف من هو آرام.

.وقر طافتك وخفّ عن الغضب، الكلاب عالية التباح تموت في الحلبات أولاً، اسمع وأنصت، فالיום سيكون أول أيام

عمرك، وما سأقوله قد يطفئ نارا لا يطفئها بحر.



سکنت اطراف آرام و آدنی راسه احتراماً.





«بنداء كنداء حوريات البحر لم تكف ناديا يوما عن مناداتي. راثحتها تراود صدري منذ رحلت مغاضبة. صوته المبحوح  
خلقة يهمس في أذني. تمرقها. حتى كدت أكتب اسمها بين حروف قصّة نبي الرعاة، فهي الشجرة. وهي نار الجبل.  
وهي الثعبان الحامي. يا ناديا، يا رسولة العزّال، لتكفي عن إرسال موجات الزبد الخمرى. لتكفي عن إرسال رحيقك الذي  
أسكر تماسيح النهر. لتكفي عن غنجك الذي أخرج جذور الأشجار من الأرض وأنضج الثمار حتى سقطت، فالترجمة التي  
بين يدي وصية كاهن. لن تنحمل أوراقها المهترئة نارك. أو ماءك. ستدوب على شفّتك أخبارها وستحترق البرديات  
وصاحب البرديات. فالنبيض لا يكف عن تردد اسمك. والدم الذي يدور في العروق يكاد من قرط سخونته أن يحرق جلدي.  
جلدي الذي باركته مسحا وتقبيلا. حتى امتلأت المسام منك وفاضت»

أغمض الأجفان فاحترقت عيناه، ثم فتحهما فوجدها. تستند بكتفها على الباب. ذهل فقام:

. ناديا! كيف دخلت إلى المعبد؟

أجابت بهدوء:

. تسلّقت الأسوار.

جذبها كأي وأغلق باب الخصر:



. إن رآك الكهنة فسيقولون...

قاطعته.

. سيقولون زوجة زارت زوجها الذي تركها حزينة بعد أول لقاء.

. لم أقصد أن...

أغلقت فمه بقبلة مصّت فيها شفّته السفلى ثم أردفت:

. لم أت هنا لاجترار الأحاديث، لقد جئت لأقول لك... إني مخطئة، ليس عليك تحمّل عاري، ورغبتني الحميمة في الخروج بروحي من ذلك الجسد المدنّس، لقد فكّرت فيما حدث بيننا، ولا أجد تبريراً لما فعلت إلا غضباً لا يجب أن ينصبّ عليك، ففي النهاية أنت لم تعدني بشيء.

ألجمته الكلمات، كان واحدة أخرى تتكلم، نظرت في عينيه فقرأت ما يدور بخلدّه فابتسمت:

. كان واحدة أخرى تتكلم هه؟

ابتسمت ملء فمها الواسع وأحاطت بذراعيها رقبته وتنفست فيه:

. ألا تعرف أن في جسدي تعيش امرأتان؟

. مع من قضيت ليلة أمس؟

. ساحلق شعري وأجدع أنفي إن مسّتك العاهرة يوماً.

. واين هي الآن؟

أشارت نادياً إلى حيث ترقد العاهرة في ركن الغرفة، تسيل من أنفها الدماء:

. ها هي، صفعتها من أجلك.





نظر كاي للركن الفارغ ثم التفت لناديا مبتسماً:

.كفاك لهواً.

.لتنس أمر الزواج، ولنستمتع باللحظة التي نحيها كأنها آخر لحظاتها.

.تتربى في المعابد على صدق الوعود، ما كنت لأخذلك أو أخذل وعداً قطعته في المستنقع مع أبيك.

.وماذا عني؟

.أنت سكنت السمع والبصر والفؤاد، ولم أكن لأتخذك عشيقه دون أن تنالي بيتاً يليق بك ولقياً، لكني...

.البرديات، زوجتك التي تخلص لها أكثر من أي شيء في هذه الأرض، شيششش، اصمت يا قمي، لم أتسلق الأسوار حتى

أتكلم عنها، لم يعد يعنيني إلا أن تبقى معاً.

قالتها ودفعته فوق الحصير ثم جلست فوقه فأردف كاي:

.الخب محرم في المعابد.

.لسنا في المعبد، نحن أمام البحيرة، قدس الأقداس وراءك، والجنة أمامك.

خلعت ثوبها وألقته فوق وجه العاهرة النازفة هامسة بحدّة:

.لا أريد أن أسمع لك صوتاً.

التفت كاي إلى حيث تنظر:

.ماذا قلت؟

.لا تعبا، إنها تلك اللعينة التي تجلس في الركن.

ابتسم كاي:



أنت مجنونة بحق!

تهدجت أنفاسها:

. جئنت بعشقتك أيها الكاهن.

قالتها ثم سجدت بشفتيها على شفتيه، أحاطتهما، ابتلعتهما، ثم أفرغت عسل نحل الأرض في جوفه.

قبل همسات الفجر فتح كاي عينيه، الشمسها بجانبه فلم يجدها، جلس فحك عينيه قبل أن يراها، تجلس عارية فوق

المصطبة، فوق البرديات! في يمينها بردية وفي يسارها البوصة.

. ماذا تفعلين؟

بعينين لا ترمشان رمقه للحظات ثم ابتسمت:

. ألن تعلمي القراءة؟

نظرتها بعثت التوتر في صدره، قام بهدوء فاقترب منها.

. بلى، ستتعلمين.

. خطك يشبهك، نحيف.

التقط كاي منها البردية فأردفت:

. سيقول الناس عن ناديا إنها تركت زينة اليهود لتحب كاهنا.

رمقها كاي قبل أن تستدرك:

. بل تركت زينة اليهود لتحب رجلا حقيقيا. لتكتب ما شئت أيها الكاهن، ولتبق يقربي، فلم أخلق إلا لك.

ثم قبلته فعضت شفتيه حتى تألم صامتا، ثم وضعت ثوبها ورحلت، تجر خلفها ناديا التي تكومت في ركن، من



شعرها.

قاوم كاي عبقها، طعم شفتيها، وسيط شعرها التي ألهمت صدره. ثم نزل مياه البحيرة، جلس فيها بشرود حتى صفعت الشمس وجهه، فتح عينيه فرأى أمه ماثلة أمامه، تجمدت أطرافه، تأمل ابتسامتها البيضاء، عينيها الحنون، ضوء الشمس على شعرها الأسود الحالك. اقتربت، تدفع الموجات الرقيقة نحوه، تخرج يدها من المياه مقلدة ثعباناً كبيراً يتلوى، الثعبان الذي هاجم سفينة البحار التائه، دارت من حوله هامسة بالقصة التي طالما روتها بشغف:

. حين هبت العاصفة غرقت سفينة الكاهن الطيب ولم ينج سواه، تشبث برمت خشبي فالفته الأمواج في بحيرة غريبة، وجد فيها المأوى والطعام، وأثنى، خيل إليه أن فيها كل ما يتمناه. وبينما كان يصلي للراعي شكراً وبقراءة البرديات، اهتزت الأرض، وفجأة، برز من المياه ثعبان عملاق، تقدم نحوه فسأله: ما الذي جاء بك إلى الجزيرة أيها الكاهن؟ ارتعد كاي، ثم تشجّع ورفع صوته: أحمل وصية للكاهن الأعظم، ولا شيء سوف يمنعني من تنفيذها. ضحك الثعبان، أيها الكاهن، أنت شجاع، لكنك لست في مأمن، لست في مأمن.

سكتت فالتفت حوله يبحث عنها فلم يجدها، اختفت كأن التماسيح ابتلعها، غاص في هلع يبحث عنها قبل أن ينتشله صوت:

. كاي، ماذا تفعل؟

أفاق كاي من شروده فوجد كاهن المعبد يقف على ضفاف البحيرة، خرج إليه فحناً:

. لم تحضر صلاة الشروق؟

. سهرت على البرديات فغلبني النعاس.

. ألم تذهب إلى زوجك؟

. سأطمئن عليها بعد الغروب.

. أريدك أن تترك البرديات التي أنهيتها في قدس الأقداس خشية التلف.



نعم، لكن... أخشى انتهاكاً مثل انتهاك معبد الأسوار السبعة.

كلماتك تحمل رائحة غير محببة، هل حام الشك حول أحد كهنة معبد سمنود؟

انقبضت رثنا كاي واندفع الدم إلى جبهته:

لا يا سيدي، لكن مقتل الكاهن الأعظم يوجب الحذر، لم تعد لي ثقة حتى في نفسي.

الكاهن الأعظم لم تكن لتخفي عليه هيئة النجوم.

تعني أنه أدرك مقتله؟

، وإلا ما أخفي البرديات؟

شرد كاي فاسترجعت عيناه جسد الكاهن وعنقه المفتوح بين يديه فانتابته رعشة.

لم الموت يا سيدي؟ لم اختار الرب تلك الوسيلة لينهي وجودنا في الحياة؟

نظر الكاهن للسماء ثم ابتسم:

لم خلقنا من الأساس؟ ذلك هو السؤال الأصعب.

ألم نبين تلك المعابد لنجد الإجابات؟

لقد بنيت المعابد لأن فقراء العقول لا يقتنعون بأن الراعي لا يحدّه مكان، بل ولا يحدّ حياته موت، لذا كان على القدماء أن

يبينوا له بيتاً وينحتوا لملائكته المقرّبين تماثيل ليعرف الناس هيتهم فتؤمن الأعين فالقلوب.

وكيف نعيده بلا معابد؟

أهو في حاجة لعبادتنا؟

لقد خلقنا لنعيده.



. أيفتقر إلى عباد يجلونه ويوقرونه؟ أهو في حاجة لنا وهو الكمال في ذاته؟

. إذن لقد خلقنا فقط، لأنه يحبنا.

ابتسم كاهن «أون».

. نعم، إنه الحب فقط ما يجعل أفعاله غير المعقولة، مُبررة ومنطقية، هذا إن استطعت أن تبرهن أنه هو من خلقنا.

أجاب كاي بعد صمت:

. ربما لا أستطيع.

. لكنك تستطيع أن تبرهن أننا نحن البشر قد خلقنا، بالحب أيضاً.

. نحن؟ خلقنا الإله؟ كيف؟

. اليهود خلقوه غضوباً خطاءً، ملأناهم لطبيعتهم، وأسموه «يهوه». واليونانيون خلقوه عاشقاً يهوى النساء، منافساً لشهواتهم، وأسموه «زيوس». ونحن، خلقناه في الماء وجعلنا له عربتنا بحمله ثمانية من الملائكة المقربين، وأسميناه الراعي.

. من فيهم هو الراعي الحقيقي؟

. أتعرف قصة الأسود الثلاثة؟

. لا.

. حبس الحراس ثلاثة أسود في غرفة مغلقة يتوسطها غزال مذبوح. اقترب أول الأسود وأخبرها من الغزال لينهشها. فصب الحراس ماء ساخناً فوق الأسود كلها. احترقت فروتهم فتفرقوا. ثم اقترب الأسد الثاني من الغزال فتلقوا جميعاً دفقة الماء الساخن نفسها. ثم اقترب الثالث فزار الأسدان الآخرين تهديداً. تردد وابتعد، لقد فهمت الأسود أن الاقتراب من تلك الغزال يعني الحرق بالمياه. ومر يومان والأسود تتضور جوعاً. حتى انفتح الباب وسحب الحراس أسداً من الأسود



قبل الدفع بأسد جديد إلى الغرفة، وإذا به بتلقائية يقترب من الغازة لينهشها، فما كان من الأسد إلا أن ضربه وهدّاه بالزئير، فهما يعلمان أمر الماء الساخن الذي سيضربهم جميعًا ولا يعلمه الوارد الجديد الذي اتخذ ركنًا لا يعلم ما جريمته، بعدها بيوم، سحب الحراس أسدًا قديمًا ودفعوا بأسد جديد، ففعل نفس الشيء، اتجه للغازة فهدهده أسد قديم وأسد جديد، ثم تم سحب الأسد الوحيد الباقي من الأسود التي ذقت المياه الساخنة ودفع بأسد جديد، هكذا أصبح في الغرفة ثلاثة أسود لم تحرقها المياه الساخنة، فما كان من الأسد إلا أن ضربه الأسد المستجد وهدّاه مغبة الاقتراب من الغازة، دون أن يسأل أحدها، لماذا تخاف تلك الغازة؟ وماذا سيحدث إن أكلناها؟

إذن... لا أحد يعرف الراعي حقيقة.

سيظل اسمه الـ [ هـ ] لكل نفس لم تتخذ طريق البحث عنه، لكن إن ملك اليقين أنك ستصل، فستصل، فالمعلم لا يظهر إلا إذا تجهز الطالب للعلم واشتاق إليه، هكذا قال إدريس المعظم، الإجابة هي «الاشتاق» لمعرفة تلك السخونة التي تعترى أسفل رنتيك وتنبث في العروق هاجسًا واحدًا لا يتبدل أو يخفت، أن تدركه، وتتبع خطواته، حتى وإن تحطمت أعمدة معبدك، حتى وإن أغرق النهر إيمانك القديم، إيمانك المريح.

قالها ثم وضع يده على كتف كاي.

لا تدع أفكار العجبية تزيد تخبطك، فأمامك كهل تخطى السبعين، البرديات الآن في عهدة معبد «أون»، المعبد الذي يحج إليه حكماء الأرض منذ عهد المعظم ثلاثًا إدريس، لا تحش عليها شيئًا، أسرع في ترجمتها واقرأها على أذني، فالبصر يكف والعمر يطوى طي البرديات، وكم اشتاق إلى سماع كلمات مايتون.

هز كاي رأسه وانحنى في تبجيل، قبل أن يعود إلى غرفته.







يوم العيد كان حدثاً سنوياً، تحتفل القبائل فيه بيوم الانتصار على الجيبتيين وقتل ملكهم «سفنن راعي». تملأ القبائل ساحات هواره والأسواق منذ الشروق، يعلقون الزينات ويرفعون الأعلام، وينصبون التمثال الخشبي الذي يجسد ملك الجيبتيين فوق ظهور الحمير، يضعون على رأسه تاجاً من الفخار، في العينين بيضتي نعام، وحول الصدر قطعة من لحم عجل مكسوة بثوب ذهبي. يرفونه بالدقوف والنايات ويمرون في الحارات لترش عليه النساء زخات العيظ والحقد، ثم يتجهون بالتمثال إلى شاطئ البحر المزدحم حيث يلهو الأطفال ويتزاحم الباعة والعائلات في انتظار نفخة البوق، بعدها تنهال الجموع على التمثال فيسقطونه وبركلونه ويكسرون تاجه، ثم يطعنون لحم العجل على صدره بالسيوف والسكاكين، ويفوز من يكسر بيضتي النعام في محجري العينين تمثيلاً لما حدث يوم المعركة، قبل أن يحرقوا الرفات ويلقوه إلى البحر.

حين أضحى النهار نفخ في البوق ثانية، نفخة طويلة ممتدة تعني أن ما سنعلم أمر ملكي، انتظر الناس حتى لاح الموكب عن بعد، يسيقه حراس يفرقون الناس إلى أطراف ساحة السوق الكبيرة ويأمرونهم بالسجود. توقفت عربة هامان فنزل منها ثم عربة فارون يجرها ثمانية عبيد أشداء، ثم اقتربت العربة الملكية، نزل فرعون بزق مزركش مرصع بالفيروز والعقيق، فوق رأسه تاج العجل وأمام أنفه وقمه فك أسد مشدود برباط خلف صدغه، نظر للرعوس الساجدة قبل أن يتجه إلى منصة خشبية قرشت بالسجاد، جلس على عرشه المذهب ومن ورائه على منصة أصغر جلست راحيل وراء حجابها، أشار فرعون لحامل البوق فنفخ نفخة رفع الناس بعدها رءوسهم



دون أن ينظروا إلى وجه ملكهم الذي اقترب منه هامان وهمس:

السحرة الجيبتيون ينتظرون إشارة.

اثثني بهم.

أشار هامان للسحرة السبعة فاقتربوا خاشعين. نظر قرعون في وجوههم:

هل تعرفون ما سيحل بكم إن خذلتُمونا.

قال كبيرهم:

يا أيها الملك...

نعزه زميله فاستدرك:

يا رب القمر والصحراء، نحن خيرة سحرة النعابين في إيجيبت، خورها منازلنا وخلودها ملابسنا. هزمتنا سحرة

الكوشيين، وطمسنا الأعيب الليبيين، لنا الغلبة أينما حللنا. لكننا قوم طائنا الفقر وضيق الحال. هل لنا أجر إن

كنّا نحن الغالبين؟

نعم، ستتركون أرض إيجيبت وتعيشون في مصري، بجانب القصر، وسيجزئكم قارون الجواهر والأحجار.

وأشار لقارون الذي جلس فوق كرسي منخفض محشو بالريش فحز رأسه مؤمناً.

أجاب كبير السحرة:

سندخل السرور إلى الأعين والقلوب.

قالها ثم انحني وابتعد. توسط هامان الساحة ثم أشار للحارس فسمحوا لموسى أن يدخل الساحة ومن ورائه

هارون. أما مريم فراقبت ما يحدث من بين الرؤوس المتزاحمة. رفع هامان صوته:



. أيها الناس، هل تتذكرون ذلك الفتى المدلل؟ ربيب القصر الذي فرّ من هواره يوماً، فر بعدما قتل رجلاً من يهودا؛ قبيلتي، ها هو الآن يأتي على قدميه، بعدما عاش بين قبائل الحاقدين في الشرق عشر سنوات، أنعرفون ما الذي أتى به اليوم؟ أتى وأخوه الهزيل الواقف خلفه ليُخرجكم من أرضكم.

سرت المهمات وتنافست الرعوس ارتفاعاً فأردفه.

. نعم، أبنا بيت عمران، أبنا خرائب المنبوذين، تعلّما السحر الجيتي وطلبنا خروج قبيلتهما من بينكم، لتنفك عروتكم وتذهب قوتكم، لينضموا بعد ذلك إلى أعدائكم في حربهم.

صاح موسى:

. ويلك! أتفتري على راعي السماوات والأرض كذباً؟ سيهلكك العذاب.

قال هامان:

. ها هو ابن الخونة ينضح بما فيه، يدعو إله الجيتيين ويعدكم العذاب.

قال هارون:

. إنما الراعي هو رب السماوات والأرض، إله الرعاة والجيتيين، وإله الأرض.

رفع هامان عصاته الذهبية:

. ها هو يبتغي لكم إلهاً غير إلهكم، رب الصحراء الذي تحسد في جسد ملككم، فرعون.

علت أصوات العامة:

. المجد لفرعون، رب الرعاة والصحراء ورب القمر.

هدأت الهتافات فرفع هامان صوته:



. اليوم نزل الرب من قصره ليشارككم يوم عيدكم. يوم مقتل ابن أوى الجبتي، وليستعيد معكم انتصاره الأخير على ابنه «كامس» بطعنة من أضعف جندنا، وليريككم في ذلك الفتى عبرة، لتدركوا أن عين الإله لا تنام، تراكم في منامكم وفي يقظتكم، وحين تصطادون السمك في النهر أو البحر، وحين تزرعون التمر والكروم، تحرسكم، وتحافظ على رابطة الأحلاف، رابطة الدم التي عقدها «سالييتيس» يوم أورثنا رب الصحراء والقمر تلك الأرض.

قالها ثم نظر للملك:

. ليأذن لنا الرب في بدء التحدي...

قاطعه موسى رافعا صوته:

. وماذا إن كنا الغالبين؟

ساد الصمت. انجذت الأعين لفرعون على عرشه ولعامان الذي نحت. لم يكن لهزيمة موسى وأخيه بديلا. قام فرعون من فوق عرشه ونظر للناس ثم قال:

. على الناس أن تستمتع بالسحر، وعلى الرب أن يقرر أمرهما.

ثم أشار فرعون للسحرة فالتفوا حول موسى في نصف دائرة. وأضعين أجولنهم الحمراء بين أرجلهم. ساد الصمت والتركيب حتى صفق كبيرهم فضربت الدفوف والنايات في نغمة جيئية غريبة على الأذان، ثم خرجت من بين الأكتاف ثلاث فتيات لم تخف جلود الثعابين أذاءهن، تمايلت خصورهن والأطراف ثم رقصن بحركات الثعابين. قبل أن تلقي إحداهن بقنينة فخارية بين موسى والسحرة. انكسرت فأصدرت دخانا أبيض له رائحة طيبة عطرت الأنوف وأغشت الأعين. حينئذ فك السحرة أجولتهم. وضعوا أقتعة جلود الثعابين على وجوههم اتقاء لتأثير الدخان والتقطوا عصيهم والحبال. تقدم كبيرهم من موسى الذي اضطرب صدره من تلك النغمات الغريبة ورقص الفتيات حوله:



. أتلقني أم تلقني؟

نظر مُوسى إلى قناع الثُعْبَان فوق وجه الرجل ثم التفت لهارون الذي هز رأسه تجاه الساحر فابتلع مُوسى ريقه وقال:

. بَلِّ الْقَوَا.

همس الساحر:

. إنَّكُما مِيتَان.

ثم رجع للوراء خطوات ونادى بأعلى صوته:

. بعِزَّة فرعون إِنَّا لنحن الغالبون.

ضربت الطبول بهدير هزَّ الصُّدُور ونفحت النايات قبل أن يُلقي السِّحْرَة بالعصي المربوطة بالخيال، سكنت على الأرض فرفعوا أيديهم للسماء بقيصات مغلقة، ردُّوا حروفاً مبهمة بلهجة جبينية ثم فتحوا كفوفهم فنثرت الأصابع ألواناً شتَّى. وإذا بالحركة تدبُّ في العصي والخيال، اهتزَّت ثم تموَّجت فتلَوَّت، بنطاء كأنها حيَّة تتنفس، ضربت الدَّهْشَة الرُّءُوس وعقل مُوسى، عيناه لا تخبَّان، العصي تستحيل ثعابين لامعة، تتحرك، يرفع أصحابها أياديهم لليمين وللشمال فتتبع أوامرهم، ثم يترلونها فتسكن، قبل أن يوجهوها إلى الأمام، إلى مُوسى وهارون، زحفت الثعابين مُقتربة، حاصرتهما، أما الفتيات فاقتربن وفتحن أفواههنَّ بالسِنَّ مشقوقه الأطراف مصبوغة، يصرخن بصوت صمِّ الأذان، انحبست المهممات، ووقف فرعون واضعاً يديه في خصره فخراً، ونثر قارون العملات تحت أرجل السِّحْرَة وهمس هامان في أذن أحدهم بأن الربَّ قد ابتسم من أجلكم، وسقط قلب موسى تحت وطأة الشكِّ، ماذا لو كان هؤلاء السِّحْرَة قد سمعوا نفس الصوت؟ أو رأوا نفس الشَّجْرة المضيئة؟ كان ذلك حين رنَّ الصَّوت في عقله، الصوت الذي سمَّعه عند الشَّجْرة: «لا تخف».

تلقت حوله بغتة فلم ير في الدَّخان أحداً: «إنَّك أنت الأعلى».





سَمِعَهَا فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَسَحَبَ نَفْسًا لَصَدْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ عَصَاهُ إِلَى أَعْلَى ثُمَّ يَلْقِيهَا، بَيْنَ الثَّعَابِينَ. نَظَرَ السَّحْرَةَ إِلَيْهَا وَتَرَقَّبَتْ أَعْيُنَ النَّاسِ، وَمَدَّ فِرْعَوْنُ بَصَرَهُ مِنْ تَحْتِ التَّاجِ. لَحَظَاتٌ مِنَ السُّكُونِ أَيْقَظَتْ الِهْمَهِمَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَرَسَمَتْ الْبَسْمَةَ عَلَى شَفَتَيْ فِرْعَوْنَ قَبْلَ أَنْ تَضْطَرِبَ الْعَصَا بِحَرَكَةٍ خَفِيفَةٍ أَخَذَتْ تَتَزَايَدُ قَبْلَ أَنْ تَلِينُ وَتَتَنَفَّخَ فَتَتَحَوَّلَ لثُعْبَانَ أَسْوَدَ لَامِعٍ يَبِثُ الْفَحِيحَ بِلِسَانٍ مَشْقُوقٍ، اضْطَرَبَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ وَتَيَبَسَ السَّحْرَةُ، نَظَرُوا لِبَعْضِهِمْ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ، تَحَفَّزُوا، ثُمَّ رَكَضَتْ فَتَيَاتُ الرِّقْصِ وَعَلَتْ الِهْمَهِمَاتُ حِينَ انْقَضَ ثُعْبَانُ مُوسَى عَلَى أَحَدِهَا فَابْتَلَعَهُ. أَزْدَادُ هَيَاجِ السَّحْرَةِ فَتَخَبَّطَتْ أَيْدِيهِمْ وَالْأَكْتَافُ، وَاشْتَبَكَتْ خِيُوطُهُمُ الشَّفَافَةُ، ثُمَّ التَّقَمَّ ثُعْبَانُ مُوسَى وَاحِدًا آخَرَ فَصَرَخَ النَّاسُ تَشْجِيْعًا، ثُمَّ الثَّالِثَ فَالرَّابِعَ فَاهْلَزَ فِرْعَوْنُ عَلَى عَرْشِهِ وَصَرَخَ فِي هَامَانَ الَّذِي ضَرَبَ ظَهْرَ أَحَدِ السَّحْرَةِ وَتَوَعَّدَ زَمَلَاءَهُ، ثُمَّ التَّقَمَّ ثُعْبَانُ مُوسَى الْخَامِسَ وَالسَّادِسَ قَبْلَ أَنْ يُحَاصِرَ السَّابِعَ، نَظَرَ السَّحْرَةُ لِمُوسَى الَّذِي لَمْ يَحْرُكْ سَاكِنًا، وَلِفِرْعَوْنَ الَّذِي اشْتَعَلَ عَصِيهِ فَخَلَعَ فَكُ الْأَسَدِ، ثُمَّ لَثُعْبَانِهِمُ الْآخِرَ الَّذِي أَكَلَهُ ثُعْبَانُ مُوسَى قَبْلَ أَنْ يَزْحَفَ رَاجِعًا لِصَاحِبِهِ الَّذِي انْحَنَى فَالْتَمَسَتْهُ، تَيَبَسَ وَنَصَلَبَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَحِيلَ عَصَا خَشَبِيَّةً كَانَتْ يَوْمًا جَذْعًا فِي شَجَرَةٍ.

خَرَّ السَّحْرَةُ سَاجِدِينَ وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، سَحَبَ فِرْعَوْنُ حَبْرَهُ وَتَحَفَّرَ الْحَرَّاسُ وَإِنْ لَمْ يَجْزُوا عَلَى الْاِثْتِرَابِ، صَرَخَ فِيهِمْ أَنْ اقْتُلُوهُمْ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْحَرَّاسُ وَلَمْ يَتَحَرَّكُوا مِنَ الرُّوعِ، رَكَلَهُمْ هَامَانُ فَفَرَّ الْيَانِسُونَ مِنْهُمْ وَحَاصِرٌ مِنْ بَقِي السَّحْرَةِ الَّذِينَ قَامَ كِبِيرُهُمْ وَاتَّجَهَ لِمُوسَى، رَفَعَ قَنَاعَهُ الْجُلْدِي وَقَالَ:

« مَا جِئْتُ بِهِ لَيْسَ سِحْرًا تُعْرِفُهُ أَوْ الْإِعْيَبُ بَصَرٍ، مَا جِئْتُ بِهِ لَمْ يَأْتِ بِمِثْلِهِ إِلَّا إِدْرِيسُ الْعَظِيمُ.

« ذَلِكَ فَعَلَ خَالِقُ إِدْرِيسِ.

انْحَنَى السَّاحِرُ:

« الْجَلَالُ لَهُ وَلِرَسَلِهِ وَلِلْجَذْعِ الَّذِي يَوْرِكُ.

لَمْ يَمْهَلْ حَرَّاسُ الْمَلِكِ، سَحَبُوهُ فَكُومُوهُ فَوْقَ زَمَلَانِهِ أَمَامَ قُدَمَى فِرْعَوْنَ وَحَاصَرُوا مُوسَى وَهَارُونَ عَنْ يَتَعَدَّ قَبْلَ أَنْ يَشْتَتُوا دَائِرَةَ النَّاسِ ضَرْبًا بِالْعَصَى.





يهزمكم فتسجدون! دون أن أمركم بالإذعان! إنه لكبيركم الذي علمكم السحر.

قال كبير السحرة:

لم نقابل رسول الرأعي من قبل.

رسول! صدقتم مزاعمه؟ سحركم يا خبراء السحر؟

ما أتاه ليس بسحر، وأنت لست بإله؟

كيف تجرؤ؟

صرخ فرعون حثي طار لعابه:

إنها لمؤامرة ومكر ضمراه في مدينتهما.

عقب هامان:

بل سحرهم موسى وأخوه لما دخلوا مصر.

قال كبير السحرة:

لن نميل إليكم بعدما رأينا علامة الراعي.

نزل فرعون عن عرشه وأمسك بتلابيب كبير السحرة:

تلك الأرض التي تقف عليها لا يظلمها إلا ظلي. سأقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف وسأصليكم في جذوع النخل.

لتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى. ولتدعوا راعيكم أن يأتي فينقذكم.

اقض ما أنت قاض. لن نكره سحرة إيجيببت على عبادتك. فالعمر مضى. رأينا فيه ما رأينا، وحقيق علينا أن ننهيه

بشرف.

التفت فرعون لحراسه:

. عند الغروب سأمر بطريق النخيل، أريد أن أطلع إليهم مصلوبين، وسأشرف بنفسي على تقطيع أمعائهم وإطعامها للكلاب.

سحبهم الحراس والوجل يملؤهم، نظروا لموسى وهزّوا رءوسهم، فنظر فرعون لموسى والغل يفيض تحت قدميه، أشار لهامان وقارون، ابتعد بهما عن الحراس ثم التفت:

. قُلتما إن هؤلاء هم خيرة سحرة إيجيت!

. للوعد علم لم يبلغوه.

. لنسجنه أو ننفيه بعدما نسلبه عصاه.

. كيف وما إن تغادر العصا يده حتى تستحيل ثعبانا يصرع ثعابين السحرة؟

. لقد فرّ الدم من رأسي حين نظر ناحيتي.

. لنقتله ونصلبه في بوابة الخرائب.

. بل نغرقه في اليم بعدما نربطها في يده بحبل غليظ.

. إن أمرت بقتله لا أضمن أن يهرب ثعبانه فيتسلل لفرشنا، ولن يستطيع ذلك الشاحم منه هرباً.

. لنحرق العصا ونحرقه.

. ونقتل أهل بيته حتى يكون عبرة.

. ماذا لو كان الصوت الذي سمعته حقيقة؟

التفتا إليه:



. ماذا تقول يا سمين الكرش والعقل؟

. أقول إن ربّما، أن، إله الجيتيين قد...

. قد يطؤك خير من فتاك المدلل.

. لم لا نخريه بالجواهر؟

. سأضع تلك الجواهر في مؤخرتك، أريدو لك الفتى ممن تلهي أعينهم الجواهر؟

. إنها لعنة قبيلتك التي لا تزول.

. تربى ذلك الفتى في قصري، لم أعرف عنه سوى العناد والجنون. كان يحتلي بنفسه فوق الدبال ويكلّم الخيل

ويعطف على أراذل العبيد، وحين أعثفه يضيق صدره فيحتبس صوته.

. تلك علامات الجنون.

. ماذا سنفعل في العضا؟

. ويده الناصعة المضيئة؟

. لنبتريها.

. لم لا تقول شيئاً مفيداً؟ نحن لا نعرف ما يخفيه في أكمامه من سحر.

. وقد فضّل السحرة الموت على أن يطيعوني!

. سحريهم.

. نعم، وسيبقى السحر حتى تُصلب أطرافهم.

. أرى أن نتركه حتى تتدبر أمره.



. بعدما أفقدنا هيبتنا؟

. إن الحراس يخافونه، إن عصوا الأوامر فسيستفحل الأمر ويتفاقم.

نظر إلى موسى فلمح في عينيه تحدياً. وفي الناس ترقباً. وفي الحراس رعشة. ثم التفت فإذا براحيل تنظر إليه من وراء حجابها. قال هامان:

. إن الشعب لا يصدق، وإذا صدّق فإنه ينسى. مثل طفل يبكي بحرقة ويصرخ، ثم يضحك بعد لحظة، كأن شيئاً لم يكن.

. راحيل تحب الوغد.

. وستنساه كما تنسى خيولها التي نفقت.

ساد الصمت لحظات حتى قطعه فرعون:

. اتركوه.

ثم همس في أذن هامان:

. لا يمسه أحد بسوء حتى لا يلقي عصاه.





في جُح الخليل تسللت راحيل إلى الخلاء ملثمة. سارت بحمارها حتى اقتربت من اليمامة؛ صخرة أطلق عليها ذلك الاسم لأنها على هيئة ظائر راقد. انتظرت تحت نور القمر للحظات قبل أن ترفع صوتها:

. أعرف أنك هنا.

خرج موسى من خلف الصخرة فابتسمت:

. أتيت بعصا السحر؟

. قبل أن تصير ما صارت كانت عصا لغنمي.

. تتزوجين؟

. ولي ولدان وبنت.

. ابتسمت راحيل:

. لا أنسى يوم التقطناك من الماء، الآن يا صغيري لك أولاد هم لي خال الحفاد.

. لم تتزوجي؟



.ومن يجرؤ؟

حك جيّهته في حرج فأردفت:

. لن أسألك عمّا حدث أمس، لكنني أسألك عمّا أتيت من أجله، ولا تقول لي إنك أتيت لإخراج بني إسرائيل من الأكلاف.

. هذا ما أرسلت من أجله.

. وما شأن إلهك بالمنبوذين؟ قد كانوا يوماً ذوي شأن حتى فسقوا.

. إلهي يتوب على ظالمي أنفسهم كي لا يظلموا غيرهم.

. ونحن، آل فرعون؟

. كل من آمن له الحرية في الخروج معنا.

. أنت تعرف أبي، وتعرف أنّه لا يدع.

. أعرفه كما تعرفين أنت أنّه ليس إلهاً.

لمعت عيناها في نور القمر:

. وإن لم يوافق يا صغيري؟

سكت موسى ولم يُعقب. أردفت راحيل:

. سيلدغه ثعبانك؟

. ثعباني آية له كي يصدّق.

. ستمزّق دعوتك وحدة القبائل.





. هو من فرّق بين القبائل، تحالف مع يهودا لكثرة جندها، ومع قارون ليقهر بني إسرائيل ولسيطرته على  
مناجم الأحجار، أما بقية القبائل فيوقع بينهم وبينك الفرقة ليضعف شأنهم ويثبت عرشه.

. دعه يتحمّل تبعات ما فعل، ومن رضي الذلّ فليتمرّع في الطين راضياً.

. إنها رسالة ربي لا مفر من تبليغها.

. وهل وافقك خبراء بني إسرائيل؟

. الذلّ تمكن منهم وغلف القلوب، ما إن يخرجوا من تحت نير أبيك ويتبعوني حتّى يدخل الإيمان قلوبهم.

. إن لم يقتلك أبي فسيكونون هم قاتلك.

. سأبلغ رسالتى ولو لم يتبعنى أحد.

. بنو إسرائيل لا يعبدون إلا الذهب.

. أنا منهم.

. إنهم يدعون قرابة جدك يعقوب.

. صار بيننا فصاهرة وقرابة.

. أنا من ربّيتك.

. لم أنس يوماً ما فعلته من أجلى أنت وأمك.

. ستحرق نارك ستائر غرفتي.

. اتركي القصر واتبعيني.

. ابنة فرعون تسير بين بني إسرائيل.



. لن يمسوك بسوء ما دمت حيًا أتنفّس.

. أنت حالم يا صغيري، سيؤتد أطرافك في نخلة أمام بابي كي يشمت بي.

. إن معي راعي السماء والأرض.

زمت شفّتيها في ابتسامة ميتورة ثم نظرت لصخرة اليمامة خلفهما:

. أتذكر تلك الصخرة؟ كنت ألاعبك عندها كل يوم لعبتك المفضّلة، لعبة الاختباء، كنت تستتر خلفها، وكنت

أدعي جهلي بمكانك حتى تسعد، كل يوم، حتّى جاء صباح، ذهبت فيه لأبحث عنك خلفها فلم أجذك، جلست

انتظرك، حتّى برزت من خلف تلك الشجرة الكبيرة وأخرجت لسانك.

ابتسم موسى فأردفت:

. كنت تظنّ خداعي وقد ادّعت الدهشة. لكن عقلك لم يفتن وقتها أنّ في ذلك الوادي لم يكن هناك إلاّ تلك

الشجرة.

فالتها ثم أسدلت قلنسوتها وركبت حمارها فرحلت. نظر موسى للصخرة ثم لنجوم السماء قبل أن يتخذ

طريقه إلى خرائب المنبوذين.





في اليوم التالي وقف موسى وهارون أمام القصر الذي أغلقت أبوابه فرعاً، نادى في الحراس بأنه يريد مقابلة الملك، لم يجرؤ أحد على إجابته فضرب الباب بعصاه مرات ومرات:

إن لم يقابلني فسأترك العصا عند الباب.

بعد دقائق فتح أحد الحراس كوةً بالباب فاقترب موسى، تلجج الرجل ثم قال:

سيكلمك الملك من الشرفة الغربية المطلّة على النهر.

هز موسى رأسه ثم سار بأخيه عزرا حذاء سور القصر.

الشرفة الغربية كانت تطل على فرع النهر، مساحة واسعة تقع فوق السور على ارتفاع عشرين ذراعاً، نظلتها شمسية كبيرة وعريشة عنب متدلية الأغصان، وتمثالان خيبران للإله «سيت» على الجانبين، هامان وقارون وشيوخ العشائر كانوا مجتمعين، استدعاهم فرعون منذ خرج موسى من خرائب الإسرائيليين، خرج عليهم ولم يكن النوم قد زاره في الليلة السابقة، فحتقن العينين ثائر النفس يحتسي مزيج اللوتس لتهدأ نفسه وتسبح في الأحلام، قاموا تبجيلاً وانحنوا حين حضر فلم يلق سلاماً، جلس ثم أشار لهم فجلسوا، عدا كبير قبيلة بني عييل، قال:



. لقد جاءت رُسُلِي بالأخبار من عند صاحب الثعبان، عرضوا عليه الذهب والفضة نظير رحيله أو تسليم العصا فوجدوه راسخ العزم عصبي المزاج لا تثنيه الكلمات. أغلق الباب في وجوههم فاختلفوا بهارون أخيه الذي قال إن رحيل بني إسرائيل أمر لا يقبل المجادلة.

أردف كبير قبيلة بني عفار:

. لم لا نتركهم فيخرجون من بيننا وراء ذلك الفتى؟

وعقب كبير قبيلة بني نظرون:

. ما هم إلا وباء، ستاكلهم شمس الصحراء أو تقضي عليهم قبائل الشرق.

صاح فرعون:

. انتما قبيلتان من الخصيان، تريدونني أن اترك الفتى وقومه الأراذل ليُفسدوا أرضي ويفكوا تحالفنا؟

ثم قام فرفس إناء فخارياً كبيراً فكسره.

. أفيقوا.

قال هامان:

. نذبح الأعناق حتى نستأصلهم.

وعقب كبير قبيلة بني خيبر:

. ما رأي كبيرهم؟

قال قارون دون أن يقف:

. ليس لي فيهم إلا عمال متاجم الفيروز، أما الباقيون فلا دية لهم، ولكن ماذا عن الثعبان؟ وذلك النور الذي



يُضيء يده؟ أخاف أن نصيبنا الموت أو تطاردنا لعنة.

كان ذلك حين دخل الحاجب وأسر في أذن الملك بكلمات دفعت بالدماء إلى وجهه، نظر إليه في ذهول ثم قال للملأ:

إن الفتى وأخاه يقفان بالباب.

ضرب الاضطراب الوجوه وتململت المؤخرات على الكراسي، يرمقون ملكهم وينتظرون قراره، نظر للحاجب وقال:

اصرفه، لا، انتظر، دعه ينتظر، لا، دعه يأتي من خارج القصر، ليحدثني من تحت الشرفة.

قال هامان:

ماذا يريد؟

سألت فرعون رمحا من يد حارس:

الخنازير تتبع مضائرها.

صاح هامان:

نعم، ولنستدع الجند فيمثلوا بجثتيهما.

هنا قام حزقيال الذي لم يجلس منذ بداية اللقاء:

أتقتلون الرجل لأنه اختار رب الجيبتيين؟

قال فرعون:

لأنه كاذب، أليس لي ملك مصر وأنهار إيجيببت تجري من تحتي؟ إن كان للجيبتيين إله فأين هو؟

لقد جاءكم بآياته.



.ساحر كذاب.

.إن كان كاذباً فعليه كذبه.

قال كبير قبيلة بني نعيم:

.قول لا بأس به.

صرخ فرعون:

.أتريدني أن أعفو عن ذلك المَهِين مُضطرب الكلام؟

.إني أخاف أن يطولنا ما طال آباءنا. أنسيتم قوم نوح وعاد وثمود؟ وقد قال يوسف صاحب الخزان يوماً نفس الكلمات ثم قُتل...

.على أيدي المنبوذين.

.ولم يبعث الربّ رسلاً منذ ذلك الحين، الآن يأتينا ذلك الفتى فنستهين بما يقول؟

.ما أشير عليكم إلا بحكمة القمر والصحراء، وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد.

قال حزقيل:

.لتذكروا كلماتي يوماً.

قالها في اللحظة التي التقط الجمع فيها صوت الطرق المنتظم. طلوا برءوسهم من الشرفة مُردحمين، قبل أن يفسحهم فرعون بطرف الرَّمح. لمخّوا موسى يسير أمام أخيه. يضرب السور بعصاه في طرق منتظم، أصابهم الوجل وتهدّجت الألفاس. يرمقون الأخوين بفزع بدا في ملامحهم كلما اقتربا. فلتت من موسى ضحكة:

.عصا الغنم أخافت الرعاة.





أجابه هارون:

. عَصَا الْعَنْم لَا تُخِيف إِلَّا الْعَنْم.

اقتربا حتى وقفا تحت الشرفة، رفع موسى صوته:

. الخوف لا يضرب إلا صدور الكافرين.

القي فرعون رَمحه فاستقر على بُعد أذرع من موسى:

. سيشق الرمح التالي صدرك إن مسّت كلماتك رءوس العشائر.

. لا أتحدّث إلا إليك.

. قل لي إذن، كيف كان صوت إلهك؟ أكان يشبه صوتي؟

. الراعي يتحدّث إلى العقل.

. المجذوبون يدعون اتصالهم بالسّماء. تأريهم العلّة حين يقضون الليل في الخلاء. مثلك، ولكن ماذا عن

هارون؟ هل يكلمه ربّك المزعوم أيضاً؟

قال هارون:

. من ازدري الراعي ورسله خاب سعيه وهلك.

. كم أنا مشفق عليكم، فمن جميع قبائل العماليق لا تختاران إلا المنبوذين فتطلبان خروجهم!

. ذلك أمر ربي.

. دع ربّك يقلّ كلماته أو يُرينا جسده أو أطرافه. إنني أدعوه إلى وليمة.

قال موسى:



ومن الذي أخرج الزرع وخلق الماشية التي ستقدمها في الوليمة؟

قال فرعون:

روح رب القمر والصحراء التي تسكن جسدي.

عقب هارون:

لم لا تخلق لنا الآن ناقة أو عجلاً؟ أو تحيل ماء النهر خمراً؟

لم يجرؤ أحد من المملا على النظر في وجه فرعون، صمت للحظات ثم قال:

ولم لا يحيل ربك المزعوم ذلك الماء خمراً؟

نظر إليه موسى بصمت حتى ضحك المملا. أردف فرعون:

هيا، إني اتحداه أن نرينا قدرته.

تلقى عقل موسى الصوت فأغمض عينيه للحظات، ثم فتحهما ورجع للوراء خطوات، رفع عصاه فوق المياه

الجارية ونظر إلى فرعون:

لقد قبل الرب التحدي.

وضرب بعصاه سطح الماء الجاري، رج فرعون للوراء خطوة. ينظر لموسى وعصاه، وللنهر الذي لم يحدث شيئاً.

سأد الترقب لحظات قبل أن يرفع فرعون صوته:

لعل الشيخوخة طالت إلهك فضعف سمعه.

صاح قارون:

أذهب يا ابن عمران، فبطن السوء التي أنجبتك لن تتحمل رؤيتك، سودت وجه إسرائيل يا كالح البشرية.



نظر موسى لهارون بعينين سبح فيهما الغضب، قال من بين أسنانه:

. عابد العجل يسبب أمنا، سأمزق أمعاءه إن طالته يداي.

. اهدأ يا أخي، فقباع الخنازير لا يرد عليه.

قالها ثم التفت لقارون:

. وإن الرب لا يحب الخائنين.

عقب هامان:

. سنتبع نسبك ونسلك حتى نغنيهم عن بكرة أبيهم.

التفت موسى لهارون ثم هز رأسه:

. هيا بنا.

. إلى أين؟

. إلى مكان لا يطوله الماء.

صاح فرعون:

. إلى أين يا سحرة السوء؟

لم يجبه موسى، ابتعد ومن خلفه هارون. ضرب الضحك جلساء الشرفة ورفع فرعون صوته:

. أخبر إلهك أن الدعوة قائمة، وأني لا أنام، وبلغ بني إسرائيل السلام. أخبرهم أن بقاءهم في الحلف لم يكن يوماً

اختياراً. فالدبابير التي تغادر أعشاشها تقتل.

انحرف موسى وأخوه عند زاوية السور فالتفت فرعون للملا:



لو كان للسكر قوة لاستأثروا بالعروش.

عقب هامان:

سأمر الجند أن يسحقوا غرورهما.

قال فرعون:

بل انتظر حتى يقابلا أهليهما بالخيمة فينفجر الخوف فيهم. سأحاصر خرائيمهم وأحرقها على أهلها. ولتستبدل عمالك يا قارون من قبيلة أخرى. ستكون أنت آخر إسرائيلي على قيد الحياة، والمفارقة، أنك لا تهوى النساء.

ضحك قارون واهتز شحمه قبل أن تنقلب سحنته حين نظر خلف كتف فرعون، رفع سبابته:

النهرا.

التفت فرعون فوجد الماء وقد انحسر. تراجع حتى ظهرت الأرض من تحته. نظر المملأ بعضهم إلى بعض وإلى فرعون الذي تابع السمك ينلوي فوق الطمي. ثم اقترب من الشور فتدلّى. يحدق في النهر الذي تعرق. قيل أن يلتفت للمملأ الذي ضرب الوجع قلوبهم وتعالى المهممات بينهم وتخبّطت الأرجل:

لقد سحر الملعون ماء النهر.

قبل أن ينهي جملته التقطت الأذان هدير مياه. موجة كبيرة اقتربت باندفاع. تحمل فوقها أخشاب قوارب، بقايا منازل وأسماك نافقة. ضرب الهلع صدور الحاضرين وتعالى أصوات الحراس. بأمر بعضهم بعضاً بغلق أبواب لم تمنع اندفاع الماء إلى أرض القصر وجنباته. تأمل المملأ عرباتهم والخيول تنجرف قبل أن يفروا ناحية الجبل مُحتمين، يرمقون الناس على الضفاف يبتعدون في يأس. يطاردتهم الماء مكتسحاً البيوت والمواشي من حولها. صرخ فرعون فيمن حوله وركل الحراس ركلاً. ثم صعد إلى قمة قصره ليتابع أبنيته التي غرقت. الخيول التي نفقت، منازل عشيرته التي تساوت بالأرض. تمائله التي سقط اثنان منها وتصدع الثالث. صعد الناس فوق



النخيل يستغيثون، وبدأت الجثث في الطفو على سطح المياه الغاضبة.

عند الغروب ضعف اندفاع الماء، علم فرعون أن النهر قد أغرق هواره وما حولها، شرّد عشر قبائل يدينون له بالولاء وأغرق بهائمها، أسقط ساقية قصر قارون العملاقة وتخلّل الخرف الفخمة، في طوفان لم يطل أرض جاسان العالية التي سكنها العبيد والأراذل من بني إسرائيل، أمر عمّاله بتوزيع الأغذية والأقمشة على المشرّدين الذين صعدوا المرتفعات، وقبع في شرفته يطحن الضروس ويتابع الماء المندفّع، حتّى أشرقت الشمس عن مشهد صادم: هواره غارقة حتّى مستوى صدور الرجال، يعمّون عوفاً وسط صرخات تأتي من كل صوب وعويل يصمّ الأذان، الأرض تُجاهد في شرب المياه، الابتهالات ترتفع إليه كي يرحم شعبيه من غضب لا يعرفون سببه، لا يجروا على إبداء الأسباب أو تبرير غصبة ليس لها دافع، كما لم يملك أن يجبر النهر على التراجع أو الانحسار، يقاوم السخرية التي تحرق صدره، فالحائط الذي أمر ببنائه ليعزل أراضي الإسرائيليين وخرائبهم هو ما حماهم من بطش المياه، ولم يجروا على كسر الحائط لتندفع المياه فيخرج الثعبان عائماً ليلتهم، ضرب الحائط بسيفه وحطّم الأثاث قبل أن ينظر لمرأة من الغضة انعكست فيها صورته.

«ذلك الذي أتى من العدم بتعبان مبين ويد قضينة خان جرواً صغيراً في قصري يلهو بين الأقدام، كيف تجرّأ؟ كيف أظهر السحر الجبتي في قصري؟ اللعين أحياناً تعبّان الحماية الذي يعلو تيجان الجبتيين، الثعبان الذي كسرتة جنودي على رأس «سقنن راعي»، أتخون تلك هي النبوءة التي اتّنتي في المنام يوماً؟ نهايتي على يد طفل يولد في ظل حكمي؟ في بيتي؟ كيف لم أنتبه؟ لم لم تهرسه عربتي يوماً أو تأكله سباعي؟ لأنني أطعنت زوجة سقيمة وطفلة برصاء، أخذت مائي فأصبحت من بعدها عقيماً، وحيدا على عرش تترىص به القبائل وتخفي خناجر الغدر، فالملعونون قبلوني إلهاً ليحاصروا عرشي، يسجدون لي بقلوب ساخرة ونظرات شامطة، يستخفون بي ويتحيلون ارتقاء ذراعي».

ضرب المرأة فكسرها؛

«لن أسمح لهم، ولن أسمح لثعبان أسود أن يهزم رب الأرباب».

في الأيام التالية ازداد الأمر سوءاً وتوالى النكبات، تفسّخت أجساد الموتى وملأت العقونة هواء المدينة، ربط





والفجوات التي تثقبها، كنت أظن أنني سأرى عين الإله تطل منها أو أصابعه تمتد، حتى راودت نفسي يوماً أن ألقاه، فعليّ أن أعرفه ويعرفني، أو يلعنني ويسحق عظامي فتكف الأسئلة في رأسي، انتظرت الليل أن ينزل وتسلقت الجبل فدخلت فجوة صغيرة قادتنني إلى نفق مظلم، جثوت على أرضه ورفعت يديّ مبتهلاً بالأسماء التي أعرفها، منتظراً لإجابة، انقضت الساعات والخوف يملأ جنبات صدري، صوت الريح ينفر جلدي وعواء ذئب ينفذ ظهري، قبل أن أفتح عينيّ بحذر، ولم أجد شيئاً، قمت، مشيت فتعثرت في بقايا عظام، ثم تجرأت فرفعت صوتي في الفراغ: «ربّ، ربّ الجبل، ربّ السماء، جئت إلى مسكنك لأعرفك، دعني أراك حتى يطمئن قلبي، أو اقبضني إليك فلا أتطلع لذلك الجبل الذي خلب لبي واستحوذ على عقلي، إن كنت موجوداً فأصدر صوتاً، قل شيئاً، تذمّر، هز جيلك بغضب، إن كانت لديك رسالة فسابلغها، أو تراء لي فأنحت هينتك لقومي لعلمهم يعبدون، أتعرفان ماذا حدث؟ لم يحدث شيء! أشرق الشمس فلم أر إلا التراب والعظام الباقية، حفرت اسمي بسكيني على حجر، ثم نزلت من الجبل فأصدت الإجابات الشاقية، حتى وجدتُها عند شيخ تخطى المائة عام، قال لي يومها: «يا قرعون، إن حكايات الآباء الأولين تحكى لتخيف الأطفال، والكبار الذين ينوون فساداً، إنما الرب يعيش فيك، بداخل صدرك ورأسك، أنت الخالق والمخلوق، القوي والضعيف، أنت الفاعل والمفعول به، إلى أن يتجلى إله من العدم ويظهر عليك فتسجد».

قال موسى:

. ها هو قد تجلّى وبعث إليك بالآيات.

. عن أي إله تتكلم؟ إله يبيد عبيده ويغرقهم بالماء والمرض؟ ذلك ليس بإله، بل شيطان يفسد القرى ويفرق بين القبائل، أثبتا لي أنه موجود، ليظهر بجسده في تلك القاعة، أو في الخلاء إن كان ضخماً، أو ليتحدث فأسمعه، أم أنه خجول لا يستطيع؟

نظر موسى لهارون الذي أجاب:

. الراعي قادر على كل شيء.





. لم لا يقتلني إذن؟

. لا يسأل عن حكمته في بقائك، ولكل أجل ميعاد.

. تلك إجابات العاجزين.

. أرى قدرتك إذن، رؤى النهر الغاضب، أقشع السماء التي امتلأت جراداً، وأمر الضفادع والأسماك فتكف عن التكاثر، وأرجع الماء شفاقاً كاشفاً كما كان.

. بهت فرعون، نزل الدرجات فاقترب منهما غير عابئ بعصاة موسى أو يده، وضع قوسه على الأرض ورفع قناع العجل عن وجه ملأه البثور:

. الإله يعيش خلف ذلك الوجه الذي أفسده سحرهما.

قال موسى:

. أترك بني إسرائيل لتغادر الأرض فتركك في سلام.

. لم أعرف التهديد يوماً ولم ينل مني وعيد، فحذري سياخلون المنيودين إن أمرت كما يأكل الجراد الزروع.

قال هارون:

. ألم تر ما حدث لصاحبك قارون ولداره؟ وقف في شرفته بغيرور. نظر للسماء وتحدى الراعي فتصدعت الأرض من تحته وخر البناء فانخسفت به الأرض.

. قارون كان خليزيراً غيباً، ترك قصر رب القمر واحتمى بقصر البشر.

. لتبقى على عرشك، ولترحل بنو إسرائيل.

. إن خرجت بنو إسرائيل انفرط العقد، ستتجراً الأحلاف أن تنفصل أسوة بقبيلتكم.



. ذلك أمر ربّي، ودين في رقبة الرّعاة عليك تسديده.

. تلك ليست كلماتكم، تلك كلمات فتى «واست» صاحب الأسد، بعد مقتل أبيه وأخيه يخوض معركته بالسحر بدلاً من القوس والفرس.

. إن ملك الجبتيّون الطوفان والجراد والقمل والضفادع لأرسلوها قبل مائة عام.

. وإن لم أذعن لكما؟ سيقتل ربكما المزيد من الناس؟

كز موسى أسنانه:

. كأنك تعباً بهم وقد فرقت بينهم وقتلت منهم!

. أقتلهم كي لا يقتلوا بعضهم.

. وثبّل زوجاتهم كي يحموك؟

. أنتما تريدان ذلك العرش، ليقول الناس إن فتى الخراب أخضع فرعون؟

. إن خضعت للرّاعي خضعت الناس لك، ولا نبغي إلا الرحيل في سلام.

سكت للحظات وأطرق برأسه للأرض ثم قال:

. اكشفا سحركما فأرسل معكما بني إسرائيل.

نظر موسى لهارون ثم هز رأسه:

. سنبتهل للرّاعي رفع عذابه، وسنمهلك ثلاثة أيام حتّى تأمر برحيل بني إسرائيل.

رمقهما فرعون للحظات ثم أسدل القناع فوق وجهه وانسحب.

خلال ثلاثة أيام انفشعت الغيوم وأرسلت الشمس أشعتها فجفت الأرض، عاد النهر لسريانه المنتظم وتسّلت



الطيور والكلاب بأكل الضفادع والأسماك النافقة. ورجع الناس للأسواق يفرشون بضاعتهم ويتحاورون في أمر بني إسرائيل وفرعون، متحاشين الاقتراب من منازل المنبوذين التي تأوي موسى، الأمير المتمرّد الذي اجتمع مع أخيه برعوس بني إسرائيل ليقتربا عليهم طريق الخروج إلى الشرق. ترك موسى لهارون الكلام، فهم يعرفونه وهو يعرفهم:

. لقد اتخذ أخي طريقه منذ عشر سنوات إلى الشرق، يعرف مسالك الوديان والطرق الممهّدة، سنتجه بعد الالتفاف حول اليم جنوباً ثم للشمال الشرقي فوق البحر، ثم ننتظر أمر الراعي.

تبادلوا النظرات في وجوه ثم قال كبيرهم:

. انتظار أمر الراعي كانتظار المطر في ميعاد، لن يصبر الأطفال والنساء والعجائز.

. الراعي لن يتركنا بعدما أمرنا بالخروج من الأحلاف.

. نقدّر الآيات التي أتيتنا بها ولكن...

قال موسى:

. لكنكم تقبلون الدّل على الخروج لأرض الرب الواسعة.

نظر كبير العشيرة لموسى بغضب مكبوت ثم وجه كلامه لهارون:

. قل للأمير السابق إن عشيرتنا التي تربّي بعيداً عنها عاشت في تلك الأرض مائة عام، مشينا على أرضها وشربنا ماءها، استنشقنا هواءها وقرأنا سحابها، وعرفنا، بالتجربة، أن كل من غادرها إلى الشرق، ضاعت سيرته واندثر أثره، إن كنا سنغادرها مطرودين...

قاطعه موسى متحقّزاً:

. بل ستغادرونها مكرّمين، تبيعون القمر لتشتروا رب القمر.



التفت إليه:

. تظن فرعون سيصدقك الوعد؟

قال هارون:

. عليه أن يواجه الراعي إن لم يصدق.

وعقب موسى:

. وعليكما أن تواجهوا انتقامه إن رضيتم بالذل والهوان.

فأر وجه كبير العشيرة:

. من أنت لتتكلم عن الذل والهوان؟

. رسول الراعي إليكم.

ضغط هارون على يد أخيه وتوسط المجلس:

. فلتعذروا أخي، فما يحمّله ثقل تنوء به الأكتاف، الراعي يُفصّلنا على القبائل بالإيمان والوصال، أمرنا أن نخرجكم

لتكونوا أحراراً، ليورثكم ما جاء به إبراهيم يوماً.

. أرض الفيروز؟

. بل الإيمان، الملة الحنيفة، ملة إدريس.

ساد الصمت للحظات قبل أن يقول كبير العشيرة:

. والسيادة؟ ستكون لكما؟

. سيكون الأمر شورى بيننا من بعد أمر الراعي.



تبادلوا النظرات ثانية ثم قال كبيرهم:

. سنأمر أهلنا بالرحيل، وحين نأمن طريقنا ونبتعد عن هؤارة. سيكون بيننا حديث آخر.

قاموا فدخلوا بلا سلام، التفت هارون لأخيه:

. كدت أن تحدث صدعا يا ابن أم.

. أسمعت قولهم؟ يمنون على الراعي الاتباع؟

. عقول الشيوخ لا تأمن إلا بما تعرفه.

. لقد جالست شباب العشيرة فوجدت فيهم أذانا مصغية ورغبة في الاتباع عن هؤلاء المخرفين.

. يجب علينا تجنب الصدام. شباب العشيرة لا خبرة لهم. وهامان يَغدق الأموال ليشتري ولاء الكبار الذين

يحركونهم. لولا خوفهم من فرعون لأذعنوا وتراجعوا.

. من يتخلف فسيغنى ويندثر.

لم يكذ ينهي جملة حتى ارتفع صوت رسل الملك. رجال يسرون فوق الحمير وينادون بالأخبار في الأبواق

النجاسية:

. يا أهل هؤارة. لقد صعد رب القمر والصحراء على فرسه إلى السماء فأمر السحاب بالانقشاع. والأرض بالابتلاع.

والنهر بالسكون. ثم أبطل سحر ابني عمران اللذين يريدان إخراجكم من أرضكم التي أورثتموها آبا عن جد.

فلتبتهلوا لرب القصر. وتكاتفوا فلا يفتنكم سحر الجبتيين. وإن تكررت النكبات فحاصروا خرائب الإسرائيليين

وأحرقوها. أفنوهم حتى لا تكون فتنة. حتى لا يزول المصر الذي وهبه لكم رب الصحراء سوتخ المتجسد في

قلب مليكم.

التفت هارون لموسى:



. غدر بنا رأس العجل.

. سيشمت بنا شيوخ العشيرة.

مسح موسى رأسه ثم زفر غضباً:

. سأضرب بعصاي النهر ثانية.

. إن فعلت ستتحزّب القبائل ضد بني إسرائيل ليؤازروا إلههم المزعوم. سأذهب إلى الشيوخ فأمرهم بسرعة التجهز للرحيل.

. انتظر يا هارون، لن يترك القبيلة لترحل، هو يعلم أن في خروجها نهايته.

. ماذا سيفعل إذن؟

ساد الصمت. ثقيلًا مقيضًا للقلب. استمعنا لنداء المبلغين مرارًا ومرات قبل أن نلمع عينا موسى. قام مضغوطًا فلف عصاه بقماش كثيف وأخفى وجهه تحت قلنسوته.

. اذهب إلى شيوخ العشيرة وشبابها فأبلغهم أن أمر الرب قد أتى ولا تراجع. ليحزموا أمتعتهم ولينتظروا عودتي.

. أين ستذهب؟

فتح موسى الباب وخرج دون أن يجيبه.







وتراوده ناديا.

مرات ومرات، تنتابه بلا ميعاد، ثمزق خلوته وتبعثر البرديات لتعتليه. خطير يقبض على فريسته، تلتهم شفثيه قبل أن تستلقي، في حقل العنب، في البحيرة، في الحلاء وفوق الحبل، أو حتى فوق البرديات، تسقيه الغرام كالف امرأة تموج في جسد واحد، شيقه راضية، متأججة هائمة، خاضعة درون، صارخة هامسة، من يقف في وجه الشمس حين تشرق؟

من يقف في وجه النهر حين يغضب؟

من يقف في وجه العشق إذا تملك قلبا وتغلغل شغفا؟

ثم تفيق ناديا...

من سكرة الغرام فتسرد، تحدث نفسها همسا ثم تصرخ، ثم ترفض قرب النهر بعاطفة تركع الأشجار، حتى تتصيب عرقا، فهي دون الرقص نحلة دون الزهر، قبل أن تنزوي إلى ركن، تحفظ عيناها وتمتنع عن الرمش، ثم ينساب الدمع في صمت حتى تمسك بصدرها ألما وتشتكى مرضا في القلب ولدت به، يحتويها كاي ويريت على ظهرها فتذهب في ثبات يحبس الدم في ذراعه، يتأملها وهي نائمة فيبتسم، فساقية عقلها لا تكف عن الدوران، والثور الهائج الذي يجرها أعمى يصارع الذباب.



ثم تفيق من سكرتها فتتحدث عن الهروب والزواج وأسماء الأطفال والحَب في أطراف الأرض وفي مياه النهر، ثم تأتي سيرة البرديات، ضرتها التي لم تكف يوماً عن مراقبتها، ضرتها التي تمنعها عن كاي، تدفعه دفعاً أن ينهي ترجمتها، أو أن يحرقها، فالبحر لن يتبخر حين يقرؤها، والإسكندر العظيم لن يعود إذا سمع عنها، واليهود لن يتركوا الإسكندرية إذا انتشرت سيرتها بين الناس. اترك البرديات في المعبد لكاهن يكملها، فلم تخلق للكهانة بل خلقت لحضني، لنرحل إلى المستنقعات، نلقى أبي فيباركنا، ثم نتجه جنوباً، إلى الصعيد، نسكن بجانب النهر وندير حانة أو نزلًا، نشاهد النجوم كل يوم، ولنمارس الحب فوق التلال وفي الغيطان وبين عيدان القمح، حتى نشيخ معاً، ونموت معاً فندفن معاً. ينظر إليها كاي ولا يعقب، يبتسم، ثم يحكي لها عن أمر نبي الرعاة فتعقد ساقها وتنتبه، جاحظة العينين كقرد حذر، تهيم في القصة كأنها تعيش أيامها، تسب فرعون وتضحك على سيرة قارون، وتتوحد مع امرأة موسى رجل السماء، قبل أن يطلب كاي الخلوة ليتمم ما عزم أن ينهيه وأقسم، تتركه بعد قبلات حارة فيذهب إلى بردياته.

لتظهر عاهرتها قرب العرائش.

خبلى في الشهر الأخير، تسير بصعوبة متكنة على عصا كعصا موسى، تقرب وتقترب، ثم فجأة، تسحب من ثوبها كرة ليف ملتف فتلقبها في وجه ناديا وتضحك بصخب، ثم تزعق في أذنها:

. ما فتأت أتيك بالغيب الذي تظنينه ضرباً من العيب حتى يصيب.

. إن كنت تبحثين عن السعادة لتلتهميها فارحلي، عشق الفتى ضرب جذوره حتى حشاشة كبدي.

. إنما جئت لأبشرك، أنت خبلى.

ارتعشت عينا ناديا:

. أنت كاذبة.

. تأخرت دمائك.



. ذلك أمر يحدث.

. نادراً، ماذا ستسمي الطفل إن صدقت نبوءتي؟

لاح التصديق على وجه ناديا فانه قد لسانها ونظرت إلى بطنها، أردفت عاهرتها:

. سميها آرام، اسم الرجال، أو كاي على اسم والده. فالكاهن لن يرى ابنه طالما البوصة والدواة بين يديه. لكن، ربما كان للخبر وقع مثير في أذنيه، وقع قد يقنعه بالالتفات إليك.

. كاي دون الترجمة لن يعيش.

. وانت دون كاي لن تعيشي، احرقني الترجمات، دون أن يدري، حادثة سيحزن بعدها قليلاً، ثم يتوجه إليك، ستكونين محرابه ومذبحه، ستكونين قدس أقداسه.

. لكنه لن يصبح كاي الذي يحب.

. سيكون كاي الذي تحبين.

أقلت كلمتها ثم انسحيت، تاركة أنامل ناديا تداعب سرتها.



منتصف الليل.

لم يأت تلك المرأة بهيئته المعهودة، لا حرس، لا ذبول ولا عرياء. اقترب من الباب ففرعه قبل أن يفتح كاهن شاب. رفع شمعته فأضاءت الوجه قبل أن يفتح الباب على مصراعيه وينحني إحلالاً. تقدم الضيف حتى مسكن كاهن المعبد مختار، دلف غرفته وانتظر حتى فرغ من صلاة الليل ثم أسر إليه.

. رئيس القصر بالخارج.

لم يكذ الكاهن الصغير ينهي كلمته حتى دلف مردخاي إلى الغرفة الصغيرة.

. الكاهن الأكبر مختار.

ضيق مختار عينيه الضعيفتين:

. سيدي، يا لها من مفاجأة.

. ليحرص ذلك الشاب على أن يبقئها مفاجأة حتى أرحل دون أن يستيقظ أحد.

نظر مختار إلى الكاهن الصغير:



. التزم الصمت، وآتناً بمشروب.

قرب مختار كرسياً لمردخاي ورفع فتيلة المصباح:

. كيف حال الملك؟

. بخير، يرسل إليك تحياته المحملة بالود.

. لم لم تبنئنا بقدمك حتى نعد استقبالا يليق برئيس القصر؟

. الأمر الذي جنتك به لا ينبغي أن يعلن.

ملا الاهتمام وجه الكاهن:

. أرجو أن يكون خيراً.

. جنارة الكاهن الأعظم اقتربت، ولم نعلن بعد عن تنصيب كاهن للجيبتيين.

. المراسلات تفيد بتنصيب «ميري» نائب معبد الأسوار السبعة كاهناً كبيراً.

. لقد جنتك لنسوي هذا الأمر، فالكاهن «ميري» تدور حوله شكوك.

. أي شكوك؟

. منذ سنوات ونحن نتبع أثر خائن نشك في انتمائه للسلوقيين.

. ضرب القلق ملامح الكاهن:

. ما تقوله أمر جد خطير.

. ما قلته يجب أن يظل سراً حتى لا تضطرب قلوب الفقراء. مقتل الكاهن الأعظم، سرقة البرديات، اختفاء ذهب خزينة

المعبد!



غامت عينا الكاهن في سُرود قرأه مُردخاي فالتزم الصمت حتى غمغم:

. أي لعنة أصابت الكهانة، أي عارا تلك ليست أفعال رجال الراعي، أنا أعرف متري، تلونا صلواتنا تحت النجوم يوماً، أكاد

أجزم أن في الأمر سوء فهم، هذا رجل صالح وديع، ما كانت يدها لتريق الدم.

. بالطبع لم يتورط الكاهن متري في إراقة الدماء، فهناك كاهن صغير يدعى كاي، تولى تنفيذ تلك الفعلة الشنعاء.

ارتعشت يدا الكاهن وتهذجت أنفاسه فأكمل مُردخاي بنفس الهدوء الذي بدأ به:

. لذا كان على القصر تحري السرية والدقة في اختيار المُخلصين من الكهنة لمنصب الكاهن الأعظم، تمهيداً لمسح

المعابد وتطهيرها من جرذان السلوقيين، وقد وقع الاختيار عليك لما عرفنا فيك من سيرة نقية ومن حكمة و...

بتر مُردخاي كلماته ثم استطرد:

. يجب أن تتحلى بقوة التحمل والصبر في مثل تلك الظروف السيئة

ساد الصمت، لم ترمش عينا الكاهن اللتان تروان مُردخاي طيفاً ملوناً يتحرك، اقترب الأخير منه وهمس:

. أم أن... صدرك يخمشه أمر لا تفضل البوح به

ساد الصمت لحظات أدرك خلالها الكاهن أن مُردخاي لا يسأل، مُردخاي يختبره

. البرديات أتت إلى المعبد مع بحارة في مركب، تركوها ورحلوا.

. جيد جداً، أين هي؟

. في خزانة قدس الأقداس.

فض الكاهن مختار قفل الخزانة وأخرج البرديات، وضعها بين يدي مُردخاي الذي جلس فقلب الأوراق فحسباً، أدرك بدايات

قصة موسى حتى تفاصيل «الخروج» من مصر. نظر للكاهن:





. أين بقية البرديات؟ والترجمة؟

. ذلك كل ما جاءنا...

لم يلتفت إليه مُردخاي، كأن لم يسمعه، طُفِقَ فقرات رقبته ونظر في البرديات، مشي بعينه على كلمات مائيتون:

«إن بني إسرائيل قروزوا سير رسل السماء الأقدمين واستحوذوا على نسل آدم، أول من ملك اللغة من سلاله البشر، ثم نسل نوح، استأثروا به واستبعدوا كل من عداهم من البشر، سفّهُوا أصولهم ولطخوا سيرتهم واستولوا على بركة إلههم المزعوم يهوه الذي ادعوا أنه أعرق الأرض كلها في حين لم يطل الغرق سوى قوم نوح، فكيف يغرق الراعي الأرض بمن عليها من أجل حفنة من العصاة؟ وما ذنب الذين لم تأتهم الرسالة؟ وما ذنب الجيبتيين الذين اتبعوا إدريس؟ لم لم يغرقوا وتغرق أرضهم؟ وكيف لمركب ما صنّع قبلها مركب، أن تحمل دواب الأرض كافة؟»

لم يكن مُردخاي يرى حروف مائيتون، كان يرى اللوحة التي طالما رآها في بيت أمه، لوحة «نوح» في قاربه المستدير وروعس الحيوانات تطل من الفتحات، طالما سأل نفسه تلك الأسئلة، كيف وضع «نوح» حيوانات الأرض جميعاً في قارب؟ هل وضع دابة الشمال ونمور الشرق وأفيال الغرب والأسود؟ هل وضع الناموس والديدان والفراشات والنحل والنمل؟ هل أعرق كل مُسطح في الأرض وكل زرع؟ كيف وصّح إدريس الثلاثون لم تذكر أن الطوفان قد زار إيجيبت، صحف إدريس التي ترجع إلى خمسة آلاف عام، اللعنة على مائيتون، اللعنة على راسم تلك اللوحة، اللعنة على من كتب أساطير الأولين.

مسح مُردخاي رأسه ثم اقترب:

. أين كاي؟

رمقه الكاهن بصمت طال فابتسم مُردخاي ومد أصابعه إلى صدر الكاهن، أزاح بهدوء السبيحة التي تتدلى من رقبته، السبيحة التي تتدلى أمام القلب، ارتعشت عينا الكاهن واضطربت أنفاسه قبل أن يكبس مُردخاي باليد الأخرى على فمه بغتة ويضرب بقبضته موضع القلب، صرخ الكاهن صرخة مكتومة فأبركه مُردخاي على الأرض بهدوء، حتى لا يسقط



فتنكسر عظامه الهشة، استوى الظهر المحني على الأرض فاستعمل مُردخاي ثقله في الضغط على الصدر وسط مقاومة ذراعين فقدتا القوة، لحظات من الألم والارتعاش حتى ارتخت القبضة، تعانقت الأصابع المعروقة في وداع أخير وجحظت العينان، أسبلهما مُردخاي في عطف وريت على خد الكاهن قبل أن يسوي السبحة فوق صدره، لحظات ثم قام فأعاد المنضدة إلى قواعدها وهندم ملابسه، قبل أن ينادي خادم الكاهن، أتى الفتى مُهرولاً فصعقه المشهد، انحنى فوق معلمه فحساً فلم يمهلهُ مُردخاي خلق الفكرة:

. المسكين حين سمع أمر الكاهن الذي سرق البرديات وتسلل إلى المعبد لم يتحمل قلبه الصدمة، شهق شهقة أخيرة وانسابت روحه.

رفع الخادم عينيه المذهولتين في خشوع:

. اتقصد كاي يا سيدي؟

ابتسم مُردخاي وهز رأسه إيجاباً.





تسللت تماسيح فردخاي لأول مرة إلى بحيرة المعبد، يجيدون السباحة دون صوت والغوص تحت الماء، حاصروا الخص الخشبي من جهاته الأربع، قبل أن يخرجوا زحفاً شاهري سخاكين مسنوبة، اقتربوا من الأخشاب المتلاصقة فتسللت الأبصار خلالها تلتمس أثر كاي، الظلمة كانت سائدة والشمعة لم تزل تصدر دخانها، قبل أن يهوي أحدهم على باب الخص فيكسره، جاسوا خلال الغرفة فلم يعثروا على مرادهم، لا برديات ولا بوصات ولا كاهن قبل لهم إنه شرس يقاوم، ضربوا بأيديهم أبواب العرقات الخشبية فأخرجوا الكهنة تحت تهديد السلاح، جمعوهم في بهو الأعمدة قبل أن يمر عليهم فردخاي واحداً واحداً، نظر في الوجوه فلم يجد لكاي أثراً، قبل أن يميل عليه خادم:

. لا بد أنه ذهب لامراته يا سيدي.

قبل عشر دقائق.

برزقنه المائلة إلى البياض توهجت الجوزاء على وجه البحيرة، نجم حار فتى العمر لم يخذل كاي يوماً، تعودت عيناه في جلسات التأمل رؤية النّيبض الثابت فيه والاهتزاز الطفيف، تلك الليلة كان الوهج يميل لصفرة غير محبة، صفرة لا يأتي بعدها خير، نبض طويل متباعد كنبض كهل يموت، تأمله كاي لدقائق حتى التقط حلبة في المعبد وصوت أقدام تتحرك في همة، هناك زوار مفاجئون، تلا متن الحماية في سرّه وهو يللم بردياته من الخص، ثم ركض فتسلل من المعبد، ففز السور واهتدى بنور القمر حتى وصل عرائش العنب، أيقظ ناديا هامساً:



. استيقظي، علينا أن نرحل الآن؟

بفزع فتحت عينيها:

. ماذا حدث؟

. تغير لون النجم.

رمقه باستنكار ولم تملك إلا اتباعاً، سارا بخطوات معكوسة كي تبدو طبيعة أقدامهما خارجة من النهر وليست متجهة إليه، حين بلغا الضفاف حرر كاي المراكب الراسية قبل أن يقفزا في واحدة، ضرب المجاديف بعزم حتى ابتعدا، ترمقه ناديا بوجل وأنامل ترتعش، وتتابع أعين التماسيح المضيئة التي تتبع المركب في حشوع، لم تتحدث ناديا حتى رأت البرديات بين قدميه، اعترت جسدها رجفة فهمست:

. أنا خبلى...

توقف كاي عن التجديف، وتوقف عقله عن التسبيح، سحب نفساً إلى صدره ثم نظر إلى عينيها للحظات قبل أن يكمل التجديف بهمة، رمقه لثوان ثم أردفت:

. كنت أدخر تلك المفاجأة لوقت أفضل، لكن، لا أعرف ما حملني على البوح! سيكون طفلاً مثاليًا، ابنًا لكاهن وراقصة، يا لها من خلطة! أعتقد أن بذورك ألقيت يوم النهر، مثل نبي الرعاة الذي تتبع سيرته، أليس ذلك ساحراً؟

كز كاي على أسنانه ثم زفر تعباً فأردفت:

. ماذا سنسميه؟ ربما عزيز على اسم والدي، لا، انتظر، أريدها أنثى، وسأسميها مليكة، لطالما أحببت ذلك الاسم.

لاحظت شروده المتعمد فبددت الصمت بضحكة عصبية.

. سأعلمها الرقص ونفخ الناي، وستصير محور حياتي وأمالي، لن أتركها لحظة، ولن أسمح لرجل بجرح قلبها.

لم يجد كاي ما يقول، فصدره متخم بالوجوم وفائض بالاضطراب رغم هدوء ملامحه، الجوزاء لم يخذله يوماً، يوم تصفر



أشعته تصير الأحداث إلى غرابة وتخييط، إلى جنون، رصدها قبل مقتل الكاهن بأيام واليوم يتابعها وهي تأتيه نبأ  
وليد في الغيب، ابن لطريد يحمل لعنة، أردفت:

. لولا البرديات التي بين قدميك لعلت وجهك الابتسامة التي أعشقها.

. لنؤجل فرحتنا حتى نصل إلى بر آمن.

قامت من فورها فرحة فاحتضنته وقبّلت شفثيه حتى مال المركب، توقف عن التجديف وتركها تنهي ما تفعله حتى  
عادت لمكانها بابتسامة واسعة، وعينين لا ترمشان.





حين علم مُردخاي باختفاء كاي وفتاته حمل بنفسه جسد الكاهن مختار. سجاه بالكثبان الأبيض فوق سريره، وأمر بتخضير الجسد لجنائزة تليق به. ثم ضمَّ برديات مانيتون بالحزام ودلف إلى الخَص الخشبي الذي سكنه كاي قرب البحيرة. جلس على كرسي من القش وسحب نفساً طويلاً فاشتتم رائحة الفتى الجبتي. تفقّد دواة الحبر والبوصة التي تركها في عجالة. أمسكها بيده ولامس الحبر الأسود ففرّكه. ثم تفقّد العلامات والأرقام على الجدار. علامات تنظيم الكتابة وعدد الأيام. الفتى يكاد ينهي ترجمته. ملحمته. ترك البرديات الأصلية في خزانة المعبد لكنه احتفظ ببردياته. لم يعد يؤمن بأحد. لا بكهنة المعابد ولا بآله المعابد. «كم يُعجبني إصراره، يدهشني. يذكّرني بنفسي حين كنت أجمع قصاصات التوراة من الصدور والبيوت لتحفظها في بيتنا حين يأتي الوقت لننشرها في حي يليق بها. كنت أجمعها في صندوق خشبي يشبه النعش في بيت راعوث. أمي الفاضلة التي لم تدحّر وقتاً ولا جهداً لرفعة شعبنا المقدس في السماء. الملعون في الأرض. من عبدة الأرض. كنت أفعل مثلما يفعل ذلك الجبتي. أحري كان الأسود تطاردني. فالمعابد فقدت قدسيته. ووهن خُرَاسها. تخلّوا عنها كما تخلّى الإله عنها. هجرها من أجل إله اليونانيين. وسيهجّرها إله اليونانيين من أجل إله آخر. فحروف البرديات المقدسة إما تستحيل توراة يسير وراءها شعب يستحق نعمة الإله. وإما قصصاً شعبية ومآثر متوارثة تحكى على آذان الناس فيذكرون بها مجداً لن يطاولوه. ولن تزيدهم إلا تخبّطاً وجنوناً. قبل أن تمتد يد الحذف والإضافة والتحسين. لتتحول الكلمات إلى أوعية جوفاء. فتفقد قدسيته وقيمتها. في صدور أصحابها».





زفر فردخاي بصبر، تأمل الورود التي رَينَت النافذة الصغيرة، والقماشة الموضوعة تحت مخدة الفراش. التقط منها شعرة  
أنثى فاحمة واشتم عرقاً شهياً، ماءً عذباً يآثر الرجال «تلك أصعب ابتلاءاتك أيها الكاهن المسكين، أن تأتيك الدنيا بين  
فخذي امرأة، تسقيك رحيقها حتى تثمل، تصير الهك الذي تعبد، حتى تغيب شمسك فتسقط، في هاوية لا قرار لها».

ابتسم فردخاي وضم برديات مانيتون وغادر الخص.





في الطريق، وبين معبد «أون» والمستنقعات، أوى كاي وناديا إلى قرية نائية استظعا أهل بيت فيها فضيفوهما. أخلا بينهما وحكيا قصة مزيفة عن رحلة عودة مزعومة لسمنود. ثم ظهرت ابنة صاحب البيت، فتاة ناهدة، جميلة باسمه وإن كانت لا تشبه ناديا، صيَّت اللبن لهما ووضعت الفاخرة فأنبى كاي عليها أدباً، ثم طلب منها حبراً فاعتذرت، فهم أهل بيت لا يعرفون الكتابة، خرج كاي من البيت فبحث بعينه في الحقول حتى وجد شجرة «سنط» باسقة، مسح من جذعها الصمغ وخلطه فوق نار بهياب إناء طبخ، حتى صار المزيج حبراً تشربه البرديات، التقط من الأرض بوصة، شذبتها بسكينه وشرع في العودة للبيت الذي آواه حين وجد ناديا واقفة وسط الحقل، تهتز ساقاها باضطراب والحمم من عينيها تتطاير، اقترب:

. ما بك؟

. أعجبتك ابنة صاحب البيت؟

. ماذا تقولين؟

. رأيت الشغف في عينيك، أتنيت على الطعام وعلى اللبن الذي قدَّمته، كأنها أخرجته من نديها!

. ضحك كاي من قلبه.



. أيتها الغيور! كيف النظر إلى غيرك وعشقك يملؤني؟

أزاحت يده بغضب:

. لقد ابتسمت لها ثلاث مرات وابتسمت، أجدكما منسجمين.

. ليست في جمالك؟

. لم؟ فهي بيضاء وثديها ناهد، لجيد الطبخ وصوتها رقيق حين نغنت بالكلمات لابن شقيقته. العاهرة كانت تثيرك.

. ناديا! الفتاة ليست عاهرة، لم تتعد ما للضيوف من حق إكرام ولم أتعد حدود المجاملة.

. ما بالك اغتظت حين قلت عاهرة؟ لأنها ابنة الأب يرعاها وأم حنون؟ لأن لها بيتا له سقف وباب يحميها؟ أم لأن شعرها

ناعم؟

التقط أناملها:

. ناديا، لا أرى إلا سواك، إن اشتعلت بي رغبة فلم أكن لأظهرها أمامك.

. لقد رأيت بعيني كيف تنظر إليها، تكاد تلتهمها.

. هذا لم يحدث.

تقلصت أناملها بغضب:

. وشقيقته أيضا قد لاحظت، نحن النساء نفهم بعضنا بعضاً من نظرة عين. أما الرجال فهم الرجال، تظنون أنفسكم

أسوداً وأنتم الضباع...

. ناديا، احذري يا حبيبتي، فإن غضبي داكن كلون شعرك.

. الآن تهددني!



. بل أهدرك مغبة أن تثيري بركاناً خامداً.

. بركان! ما أنت إلا كاهن بارد المشاعر، ساقضي ليلتي في ذلك البيت، وسأتسلق برؤيتك وأنت تنهل من ابتسامات  
بيضاء البشرة.

واندفعت مغاضبة إلى البيت، وقف كاي في الحقل لدقائق محاولاً تهدئة أنفاسه التي تهدجت، وإطفاء النار التي  
أشعلتها ناديا بلا داع في صدره، استيعاب تلك الروح النارية لا يخلو من حريق للقلب والعقل، فهي الماء والنار معاً،  
والناس عندها إما أحياء أو أعداء، تابع مشيتها التي تهز كل خلية في جسدها حتى أغلقت الباب في غضب، استدار  
مبتعداً، حتى إذا أتى الغروب أوى محتلق الصدر إلى مذود البقر، تنحى في ركن فأشعل الحطب وشرع يكمل ترجمته  
حين اقتربت ناديا كقطعة خمرة، قطعة خائفة تتسلل، نظرت إليه للحظات ثم جلست فكومت ساقها ودقنت جسدها  
في حضنه، قبل أن تغط في سبات عميق، تأملها كاي للحظات ثم قبل مفرق شعرها حين لاحظ خطأ جديداً، تحت  
خنصرها في طرف الكف، خطأ غائراً لم يره حين كانت تحت آرام، لم يكن ذلك الخط سوى حفر لاسمه في قلبها، رفع  
كفه ونظر لنفس الموضع مقاربة، فوجد خطأ يماثله، له نفس الإحناء ونفس العمق، ذلك خط ناديا، رغم الوهن ابتسم،  
ثم وضع قلم البوص على الورق وشرع يترجم.

ها أنا أخرج منك مرة أخرى يا هواره.

يا عواره.

يا مدينة الظلم والجبروت.

يا خرقاً في قدس الملكوت.

لا تسأليني لماذا ضاق صدري وتحجر لبساني.

لماذا كرهت أرضك التي سار عليها جدي، ولماذا ماتت الأمانى.

صدقيني.



لا أحمل ضغينة.

سوى أنك أسلمت نفسك رهينة.

للغرور.

للسقوط.

للفناء والضيور.

فصرت مهينة.





الرئيس كان هادراً، سمعه خراس الأبراج وصيادو البحيرة الشمالية قنبدلوا النظرات، ثم ترحموا على ملكهم  
الراحل وأبيه من قبل، فالخرن مازال يملأ الصدور والغل ينهشها نهش الضباع. فمن شهد المعركة حكى  
للآخرين، الملك الشاب، كامس، ابن سقنن الراعي، بعد ظفر على جيش فرعون يسير بين أسرى الرعاة،  
يتأملهم، يلتقط بعض أقواسهم ليفحص صنعتها، وينظر في الأعين والأطراف، والعائط المتخلف منهم، ثم  
يملي لكاتبه ملحوظات، فلون الأعين يفضح الأمراض، والأطراف تكشف سير الدماء في العروق والقدرة، أما  
العائط فيشير لنوعية الطعام وطبيعته. قضى الساعات في تفقد الجرحى ثم اقترب من الموتى المكسرين  
ليفحص أصحاب المقامات منهم، وإذا بجسد يتحرك، في سرعة عقرب، بلا نذير، يغمد الخنجر المستنون في فخذ  
الملك الذي تراجع خطوة فهوى بسيفه على رأس العدر ففصلها. ثم نظر لجرحه، وللدماء التي قاضت على  
ساقه، سب رب الرعاة ثم سقط. حمله الحراس إلى مرقء مريح تظله شجرة، وجاء طبيب، قبل أن ينظر في الجرح  
هز الملك رأسه في يقين، الجرح عميق، طال عرق الحياة في الفخذ. مسألة وقت... قبل أن تنحدر الشمس ارتخت  
القيضة، بين يد أخيه الصغير الذي ولد في وقت الهلال فسُمي باسمه: أحمس، بكى أخاه الأكبر ثم دفنه، ودفن  
معه خنجره، ثم اعتلى العرش ولم يبلغ العشرين. بعد أب وأخ قصمتهم المنون، توارزه أم مكلومة اسمها «إياح  
حُتب» أي قمر الزمان، فقدت حبيبها فخاضت المعارك من فوق العربات خلف بكرها، ضد رعاة الشمال، تسترجع  
قطعة أرض فتعود مُستبشرة، تسبقها الأخبار الحسنة، ليتהלل الناس حين يرون موكبها وابنها فيهتفون  
باسمها «وحوي وحوي، إياحة»، أي مرحباً مرحباً بالقمر، ثم يغتال بكرها، فتخرج «إياح حُتب» للناس بزيها الأبيض





وعقد الفيروز، تبتسم بعينين دامعتين، تحمل اللوتس وتفرق أقماع العطور، وتضع ابنها في قبره، ثم تلتفت لأخيه الأصغر فتضع التاج على رأسه وتأمر الناس بالدعاء، من القلب.

لم يكد الحاجب يقرأ الرسالة التي أتته من الحراس حتى خرج إلى الطريقة التي تنتهي بغرفة الملك، سار على البلاط الأملس حتى بلغ الباب فطرقه مرتين، التقط صوت السلاسل تكيل عنق الأسد ثم أذن له بالدخول ففتح الباب وكان الملك يفحص أنياب الوحش الأبيض.

. لقد أمسك الحراس بعين من أعين الرعاة.

دون أن ينظر إلى حاجبه أجاب:

. انتني به.

. هنا؟

. نعم، قريباً رغب الأسد في وجبة تخفف ألمه.

حين انفتح الباب عن الأسير هاله المشهد، الملك الذي يتردد اسمه في هواره يجلس القرفصاء ليُداعب أسداً هائل الحجم داكن اللبدة غزيرها، لم يبدُ كما وصفته رسل الحزبة، فهو متوسط الطول خمري البشرة واسع العينين خفيف الحاجبين رقيق الشفاه، وشعره أجعد قصير، فرغ من فحص أسنان الأسد ثم التفت إلى الأسير المكبل، تأمله للحظات طالت ثم أمر حراسه والحاجب بالانصراف.

. ما اسمك؟

. قوسى بن عمران.

. من أين جئت؟

. من هواره.



. تتكلم الجيبية بلكنة أهل البلد!

. تعلمت الحكمة في معبد «أون».

. ما الذي أتى بك إلى واست؟

. جئت إلى واست، رسولا.

قام الملك من رقدته فاقترب بيد ثقبض على طوق الأسد:

. لا يكف الخنزير عن مفاجأتي، يقتل أخي ثم يبعث الرسل بالشروط.

. لست برسول من فرعون، بل أنا رسول له.

. رسول له ممن؟

. من راعي السماوات والأرض.

حكّ الملك ذقنه ثم ابتسم:

. هل تعرف عدد أسنان الأسد؟

نظر إليه موسى ولم يعقب، قبض أحس على فك الأسد ففتحه ثم أردف:

. للأسد ثلاثون سنًا، تلك الأنياب الكبيرة يقبض بها على فريسته، يخنقها حتى الموت ويمزق لحمها، وتتوالى

تلك القواطع اختراق الجلد وتقطيع العضلات وفصلها عن العظام، ليلتلع اللحم في كتل كبيرة، فلا وقت

للمضغ، لأن الضباع ستجتمع، والنسور ستتهاافت، عادة لا يأكل الأسد إلا حين يجوع، لكنه يميل لنهش العظام

وتكسيبرها إن كان في أنيابه ألم.

. لست رسول الراعي إليك، بل لفرعون، ملك مصر.



نظر إليه أحمس ثم هز رأسه:

.لم يَعدَ للصبر احتمال.

ترك الطوق، ارتعدت فرائص موسى حين تحرك الأسد تجاهه، بهدوء، عابساً متألماً يكرز أسنانه ويصدر زئيراً مكتوماً.

.لا زلت تصر على أنك رسول الراعي؟

.أهملني.

.الأسد لا يَهمل.

ودوى الصوت في صدر موسى:

.أغمض عينيك.

سحب موسى نفسه طويلاً ثم أغمض عينيه، اقترب الأسد حتى بات على بُعد ذراع منه، ثم توقف، ثنى قائمته الخلفيتين وألقى صدره بالأرض وسط دهشة أحمس الذي صاح في وحشة:

.انهض.

لم يستجب الوحش، أمال رأسه في استرخاء وسكن إلا من تنفس يخفض بطنه ويرفعها، نظر أحمس لموسى الذي فتح عينيه وأخرج يده من جيبه بيضاء مضبئة:

.أرجو أن يكون ذلك مقنعاً لك فتصغي.

واستمع أحمس خاشعاً لكلمات موسى بعدما ربط وحشه وهدأت أطرافه، لم يقاطعه ولم يعارضه، حتى سكنت، أطرق برأسه إلى الأرض ثم نظر لضيغه وقال:



. يا خادم الراعي، ما قلته جد خطير.

. على يدك قد تكون بداية النهاية.

. لكن لماذا الآن؟ ولماذا أنا؟

. لا يظهر الراعي إلا إذا تجهز الطالب للعلم واشتاق إليه، وما جئت إليك إلا لمعرفة بسيرة أهلك وأخيك، ولانتصارات جندك المتوالية على ملك الرعاة.

. كم نفساً في قبيلتك؟

. ستمائة وخمسون شاباً في سن الجندية، ألف وأربعمائة ما بين النساء والشيوخ والأطفال.

أطرق برأسه للأرض ثم سأل:

. هل أمرك الراعي بزيارتي؟

. إنما علي التدبير وعليه المباركة.

قام أحمس فمشى حتى الشرفة، فتحها وخرج فنبعه موسى. أشار أحمس لمدينته المضاءه بالشموع.

. عند تلك المدينة توقف جند الرعاة، مات من شعبها الكثيرون حتى لا يقدم «ساليئيس» فيسحق البقية الباقية من الصّعيد، ثم ضيق الأمر على أعناقنا حتى رضح الآباء لجزية الأرض، وافقنا على السلام حتى ترجع إلينا القوة التي ففدناها، ثم رفض أبي تسديد خراج الأرض، نأوش الخنزير فاخترق قوته ثم هاجم بجيشنا بعد عقد تحالف مع مدن الجنوب، لكنه قتل، بيدي تلك وضعته في التابوت مشجوح الرأس، فاقد عينه مشوهاً، فتح أخي كامس شفّتي أبينا بالخطاف ليتكلّم في السماء، وتولّى من بعده المُلْك سنوات، ثم قُتل غدراً، هل تظن أن في الأمر اختياراً؟ فالأم مكلومة والقلب محزون، والناس يسكرون في الأرض بين الوجوم واللّهف، يكاد قلبي يتوقف عن النبض ورنثاي عن التنفّس حتى أعود برأس فرعون إلى «واست».



. ما مدى استعدادك؟

نظر إليه أحمس ثم ابتسم:

. تعال معي.

قرب إستبيلات الخيل أخرج الحراس عربة حرب، تأملها موسى في إبهار حين مسح أحمس على ظهر الحصان:

. عدم توافر الخيل واحتكار هواره للبوابة الشرقية لإجبيت دفعنا لتقليل قوة عرباتنا من ثلاثة خيول لاثنتين، مما أجبرنا على تقليل عدد الراكبين من ثلاثة رجال إلى اثنتين، على أن يقوم السائق بدور حامل الدرع ليتفرغ الرامي لعمله. باتت العربات أسرع وأخف. وأقدر على المناورة والالتفاف، خاصة بعدما استبدلنا الألواح الخشبية الغليظة بالأواح رقيقة تنثنى بالحرارة، ثم دعمنا الجدار الخارجي للعربة بطبقة رقيقة من البرونز، ومؤخرًا استبدلنا الحربة بالقوس المركب، باتت الرميات عالية السرعة بعيدة المدى، تصل إلى أربع مائة ذراع، تقضي على العربات المعادية قبل أن تصل إليها. ثم بدأنا في تطوير صندوق الركوب، لم يكن ثابتًا أثناء الركض في الأراضي الوعرة بما يسمح برمي السهام، لذا حركنا محور العجلات من منتصف صندوق الركوب إلى مؤخرته بحيث يقع مركز ثقل العربة الجديد هنا، بين المحور والخيل، وهو ما زاد من ثبات العربة تحت رامي السهام. بقي لدينا أمر آخر، فصلنا العجلتين عن المحور الخشبي بحيث تتحرك كل عجلة بشكل مستقل عن الأخرى، تمتص الصدمات وتقاوم الوعرة.

أطلّ الإبهار من عيني موسى:

. انتقلتم من الدفاع إلى الهجوم بذكاء!

. المضطر يعبر البحر سباحة، لقد أقسمت يوم قتل أخي أن أوتد أطراف فرعون بلبوصاً.

. ماذا تعني بلبوصاً؟

. بالحبشية تعني عرباتنا كما ولدته أمه.



ضحك موسى ثم أردف:

أحرص على سرية الزيارة، فبعض اللحظات الفارقة لا تأتي في العمر مرتين.

هذا صحيح، بقي أن نختار وسيلة تواصل.

موعدنا السبت، وحين تنأهب، سأعرف.

هز أحمدس رأسه موافقا ومدّ يده بسلام. نظر موسى إليها فأردف أحمدس:

ذلك سلام الجيبتيين.

وضع موسى يده في يد أحمدس مبتسما فشدد عليها ولم يعقب.





قبل الفجر بساعات تسلل نصف بني إسرائيل في جماعات صغيرة كما تسللوا يوماً خلف جند أول ملوك الرعاة إلى أرض الفيروز، تاركين خلفهم من لم يؤمن بدعوة الأخوين، يحملون أمتعتهم وأطفالهم، وضرراً صغيرة تحوي ما كنزوه تحت أخشاب الأرضيات وفي شقوق الحيطان. خرجوا عبر خرق ضيق فتحوه في الجدار العازل لخرائبهم. ثم اتجهوا شرقاً. يتلفتون خلفهم ويتربصون المتطفلين، متحاشين حراس القصر والأعين التي لم تنم. حتى بلغوا حدود هواره فخطب موسى فيهم بأن الطريق طويل، وأن الراعي يسير معهم، وأن يتوقعوا الشر من فرعون فلا يترأخوا أو يياسوا حتى يخرجوا من أرضه. رفع الشباب أيديهم مؤمنين ورمقه الشيوخ بئسك. كان ذلك حين وصلت الأنبياء فرعون، دخل هاهنا القصر فأحدث جلبة.

. أتيتك بالبشري، لقد خرجوا.

. من الذي خرج؟

. المنبوذون.

كز فرعون على أسنانه في صمت وصعد الدم إلى رأسه. توقف عقله عن التفكير فتحجرت عيناه وتيبست أطرافه إلا من أصابعه. يداعب بها شعر ذقنه الكثيف والحلقات النحاسية فيه. تأمله هاهنا ثم قال محاولاً كسر شروده:

. تخلصنا من الجذام والأحقاد، لم يعد علينا حصارهم أو تحجيمهم. لنحرق خرائبهم ونورث أرضهم قومنا المخلصين.



. تَخَلَّصْنَا مِنَ الْجَذَامِ وَالْأَحْقَادِ، لَمْ يَعُدْ عَلَيْنَا حَصَارُهُمْ أَوْ تَحْجِيمُهُمْ، لَنَحْرِقَ خِرَائِبَهُمْ وَنَوْرِثَ أَرْضَهُمْ قَوْمَنَا الْمَخْلُصِينَ.

أجاب فرعون بعد صمت:

. أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ فَاحْشِدِ الْجُنْدَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ.

. نَحْشِدُ جُنْدَنَا لِلْمَنْبُوزِينَ؟ إِنَّهُمْ لَشِرْذِمَةٌ لَا يَتَخَطَّوْنَ الْآلِفِي نَفْسٍ، سَتَيْتَلْعَهُمُ الصَّحْرَاءُ؟ أَوْ يَقْضِي عَلَيْهِمُ

الْفِلَسْطِينِيُّونَ إِذَا عَبَرُوا إِلَيْهِمْ أَحْيَاءُ؟

ضرب الشياطين أنف فرعون:

. شِرْذِمَةٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْخَرُوا مِنِّي، قَدْ يَسْتَعِينُونَ عَلَيْنَا بِقَوْمٍ آخَرِينَ، سَتَتَّبِعُهُمْ، رُبَّمَا نَجِدُ الْفُرْصَةَ فَلْنَقْضِي عَلَيْهِمْ فِي الْخَلَاءِ، أَنْفَخَ بوقِ الْإِسْتِنْفَارِ فِي الْقِبَائِلِ.

خرج هامان فأنفذت عُرُوقُ الْكِبَرِيَاءِ فِي رَقَبَةِ فِرْعَوْنَ، قَامَ لِحَرَائِثِهِ فَارْتَدَى دَرَعُ الْحَرْبِ وَخُوْذَةُ الْعَجَلِ الَّذِي تَمَثَّلَ قُرُونُهُ هَالَالُ رَبِّ الْقَمَرِ، التَّقَطَ فَأَسَهِ وَقُوسُهُ ثُمَّ خَرَجَ يَضْرِبُ الْأَبْوَابَ وَالْحَدَرَانَ وَبَصَرَخَ فِي الْحَرَسِ لِيَحْشِدُوا الْجُنْدَ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَجُنْدَ الْقِبَائِلِ الْمَجَاوِرَةِ وَيَعْدُوا الْخَيْلَ، اِعْتَلَى عَرِيشَهُ فَتَرَاوَعُوا خَلْفَهُ اسْتِعْدَادًا، قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ صِيْحَةُ مَدْوِيَّةٍ وَيَضْرِبُ وَدَكَ الْحَصَانِ.

كَانَ ذَلِكَ حِينَ شَارَفَ مُوسَى شَاطِئَ الْبَحْرِ، أَشَارَ بِيَدِهِ لِلْقَبِيلَةِ أَنْ تَتَّبِعَهُ شِمَالًا لِيَنْتَفُوا حَوْلَ الْجِبَلِ مُتَحَنِّبِينَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ، مَتَّحِذِينَ الْمَمَرِ الضَّيِّقِ الَّذِي يَقْضِي إِلَى الْوَادِي، انْحَرَفَ السَّيْرُ مَا بَيْنَ شَيْوْخٍ مُتَذَمِّرِينَ يَرْكَبُونَ الْحَمِيرَ، وَشِبَابٍ مُتَحَمِّسٍ يَدْفَعُ الْعَرِيَّاتِ فِي صَمْتٍ وَيَحْمِلُونَ الْمَتَاعَ، وَالْكُلُّ فِي شُرُودٍ يَنْظُرُونَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا فِي تَسَاوُلٍ، وَلِمُوسَى وَأَخِيهِ فِي أَمَلٍ وَشَكٍّ، لَمْ تَنْسَ أَعْيُنُهُمُ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْبَأَ بِهَا فِي سَاحَةِ الْإِحْتِفَالِ، لَكِنْ كَيْفَ لِعَقُولِهِمْ أَنْ تَسْلَمَ بِمَا يَقُولُ، كَيْفَ يَعْبُدُونَ رَبًّا لَا يَرُونَهُ؟ رَبًّا لَا يَعِيشُ فِي الْقَمَرِ رَبًّا لَيْسَ لَهُ تَمَثُّالٌ وَلَا حَجَرًا لَوْلَا اضْطِهَادُ فِرْعَوْنَ لَهُمْ وَالْعَصَا الَّتِي يَحْمِلُهَا مُوسَى لَتَرْكُوهُ وَأَخَاهُ لِيَصْلِبَا فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ، ثُمَّ يَمْرُوا عَلَيْهِمَا فَيَسْتَرْقُوا النَّظَرَ وَيَذْكُرُوا عِيُوبَهُمَا، ثُمَّ يَطْرُقُوا بَرءَ وَسْطِهِمْ أَرْضًا وَيَغْضُوا الْبَصَرَ، كَمَا يَفْعَلُونَ كُلَّمَا ذَبَحَ فِرْعَوْنَ



من قطيعهم شاة.

بعد دقائق من الانحراف جنوباً لاح الفتى المتأخر، شاب له ساقان خفيفتان يمشي في مؤخرة الركب ليطلعهم على من يتبعهم، شقّ الصفوف بأنفاس متهدجة حتى وقف أمام موسى:

فرعون وهامان وجنودهما يتبعوننا بالخيول والعربات.

. كم تبعد المسافة بيننا وبينهم؟

. ساعة.

انتشر الخبر في لحظات فسار الارتباك في نفوس القبيلة وعلت الهمهمات، ثم رفع كبير العشيرة صوته:

. هذا ما حذرتكم منه، لن يهدأ بال رأس العجل حتى يحاصركم فيذبحكم ويلقي بأجسادكم إلى البحر.

صرخ موسى:

. اخرج يا عبد الطاعوت.

استلكرت الأعين وهزّت الربوس فأمسك هارون بعنق أخيه وهمس:

. اهدأ يا موسى، ذلك كبير العشيرة.

ارتفع صوت من بعيد:

. لنسلم أنفسنا إليه ونبدي الندم لعننا نرجع إلى منازلنا.

وصوت آخر:

. بل يتقدم الأخوان فيقابلان فرعون ليصدوا عنا الأذى.

تطايّر ألعاب موسى غضباً وثقل لسانه.



. إن نطق أحدكم باليأس، سأسلط عليه ثعبان الرب فيلتهمه، ما لكم ترضون بالذل وتذعنون لشياطينكم؟ من لم يؤمن بالراعى الذي أخرجه فليعد إلى الخرائب، وليقبل أن يقتل أبناؤه وتستحيى زوجته لتخدم فراش فرعون. ضرب الصمت أبناء القبيلة، ينظرون لموسى والخوف يتسلق سيقانهم ويعبث بالقلوب. بدأ البعض في حمل أمتعته وبكت النساء في عويل وعفرن بالتراب رءوسهن. صاح كبير العشيرة: . اليوم عن يمينكم، والبحر أمامكم، أما قمر الجبل فيلزمنا يوم لنعبره. لتسألوا رسول الراعى أين نذهب ما دمتم تصدقونه.

همس هارون في أذن أخيه:

. ماذا سنفعل؟ تكلم يا ابن أم. إن شيوخ القبيلة يبنون الفرقة ويمزقون القوم. لنامرهم فيحتموا بالجبل ولننتظر أنا وأنت، لتلق عصاك أمامه ولتخرج يدك لعله يتفهقر.

نظر إليه موسى ولم يعقب، ثم أعرض وابتعد مولياً وجهه للبحر. ناداه هارون ولم يلتفت فرجع إلى الجموع محاولاً بث الصبر في النفوس:

. يا قوم، كنتم تتمنون زينة قارون وداره. وها هي قد انخسفت في الأرض وغارت به وبخوره كان لم تكن بالأمس؟ ألم يكن منكم قبل أن يكذب علامات الراعى؟ طغى وتخبر واتبع سبيل الجنون، هكذا فعل الآباء يوماً. قوم عاد وثمود وأصحاب الشجرة، أين هم الآن؟

علا صوت:

. تفتأ تذكرنا بالبائدين وفرعون يقترب بعرباته!

التفت هارون لأخيه الشارد في البحر كتمساح ميت، فغمض العينين لا يلتقط همهمات ولا عويلاً، لا نداء استغاثة ولا صياح شيوخ العشيرة، فقط صوت الموج الهادئ يضرب أذنيه في رتابة، ينتظر وينتظر. في سكون عجيب لم يختبره من قبل، سكون من لم يعد يعبأ أو يخاف، سكون من أيقن الموت واستعد لاستقباله، فاقداً



الإحساس بالوجود من حوله لا يشعر إلا يقدميه المغروستين في الرمال ويديه القابضتين على العصا، العصا التي ستستحيل ثعباناً وتهرب إلى البحر حين يأتي جند الملك «يا ليتها تبتلعني أو تلدغني». كان ذلك حين شعر بيد تلامس كتفه فانتفض. التفت فرأى مريم تمد يدها بتمرّتين:

.كنت تطلب التمرات حين ينتابك الحزن.

هز رأسه في ألم:

.جسدي يفور يا مريم، لم ينتبني يوماً غضب كغضبي على هؤلاء اليائسين.

.أفتهم أنفسهم، أورثتهم المهانة لوماً وحسّة ودناءة. لكن، عليك الآن أن تقرر أمرهم، فكلمات هارون لم تعد تؤثر أو تصد الكاندين.

فجأة تعالت الصرخات واضطربت الجموع، الغبار تصاعد في الأفق خلف عربات تهرس الأرض هرساً. قالت مريم:

.إننا لمذكركون.

نظر موسى للسماء وهمس:

.لا تتركني.

فجأة شعر بنبض قلب يضرب عصاه. بهزها، التفت للبحر وسط الهلع والركض، سمع الصوت فانصاع دون تردد، خاض المياه المالحة حتى منتصف جسده، نادته مريم فلم يستجب، ركض هارون ناحيته ليجذبه، كان ذلك حين رفع عصاه عاليًا، وهوى بها على رأس موجة تقترب.

وانفلق الماء بين قدميه في هدير صمّ الأذان، تباعد كأن سكيناً خفية تشقه شقاً لتكشف الرمال والقواقع والأحجار، التفتت القبيلة فخرست الأصوات وانحبست الأنفاس، الشق يزداد اتساعاً، حائطان من الماء جرت الأسماك فيهما، لم يملك فماً ليتكلم أو عيناً لترمش، الثعبان بدا لعبة أمام ذلك السحر العظيم، بلغ حائط الماء ارتفاع تل، فهضبة، فجبل، جبل راسخ مستحيل التسلق، دس هارون فيه يده فاخترقت، التفت موسى





للقبيلة ينظر في وجوه حيرها الروح، بدت عربات فرعون أقل رهبة في النفوس، يرمقون الماء بأعناق تلوت، حتى صرخ فيهم موسى:

«سنعبّر البحر، من هنا».

ساد الصمت لحظات قبل أن يفيق أحد الشيوخ:

«ما أتيت به شيء عظيم، لكن، أأمرنا أن نخوض بحرا؟»

«بل يأمركم الراعي، إن كنتم له مؤمنين».

وقال آخر:

«ألا ننتظر؟ ربما سقط علينا الماء؟»

نظر موسى لهارون الذي تبلل جسده ولمريم التي بكى أطفالها ثم رفع صوته:

«ساسير في طريقي، من أراد أن يتبعني فليفعل، ومن لم يرد فليبق ليواجه رأس العجل».

تبادلوا النظرات ثم تلفتوا حولهم ينظرون لغبار صار عاصفة.

على بُعد ساعة كان فرعون يتقدم العربات، تشد يمينه لجام ثلاثة أحصنة هوجاء، في يسراه خنجر، وفي فمه كلمات تخرج من بين الضروس: «طفح الخيل، أقسم أن أعمد ذلك النصل في قلب المتلعثم على مرأى ومسمع من قبيلته المنبوذة. قبل أن أبقر بطونهم وأوتد أطرافهم في الأرض ثم أحرقهم أحياء، شرذمة رعاع يقودها ساحر مجنون تشمت بي القبائل وتلبسني لباس المهانة والتحقير! لأجعلهم عبرة للقبائل ليعرفوا من هو ربهم الأعلى، وليعرفوا أن الأحلاف لن تتفرق. الأرض أخذناها بشرف وكانت صحراء جرداء، ثم مصرناها فجعلنا فيها سكنا وزرعا وحصنا وتجارة، مصرًا تتحاكى بها أمصار البلاد، الآن يريدون أن يعودوا بنا للبدو؟ لتكبحهم معيهم وخرافهم».





ثم أشار لهامان وكان في عربة تجري بجانبه فجذب لجانه يميناً فاقترب، رفع فرعون صوته:

. حاذ وجندك ناحية اليم وسأحاصرهم من ناحية البحر في كماشة، ولا يمس أحد الفتى.

هز هامان رأسه ورفع علماً صغيراً فيه رسم تمساح قاهر قاه، ثم انحرف بعربته يساراً فتبعه جند قبيلته في ذراع ستقابل ذراع فرعون بين البحر واليم.

في تلك الأثناء كان موسى وهارون ومريم بأبنائهما قد خاضوا أرض البحر، ساروا فوق الصخر الناعم متقين قدر الإمكان الانغراس في الرمال المبللة، أول من تبعهم كان الشهاب، ساروا يحذر يتجنبون لمس حائطي الماء، ثم تبعهم الناس بتردد، وكان آخر من استجاب الشيوخ فوق عرباتهم المجرورة، لم يكن من الصعب إدراك الشاطئ المواجه، ففي تلك البقعة يضيق البحر في قناة صغيرة قبل أن يصب مياهه في اليم، أخذت زعوسهم تتلفت بين الشرق والغرب، بين جبال الشاطئ الآخر وغبار عربات فرعون، وأصوات طبول يضربها جيشه ترويعاً، لم يتخلف أحد عن اتباع موسى ولم تملك العقول خلاً آخر حتى وإن كان رسولهم مجنوناً. حين بلغوا نصف المسافة وصلت عربة فرعون أمام البحر المشقوق، هاله المشهد وجنوده ورفعت الخيل قوائمها في خوف وقزع، نظر لهامان الذي اقترب بجندة قبل أن ينزل عن العربة، لامس الماء الصاعد بأصابعه ثم صاح ليستمع فرعون:

. جعبة ذلك الفتى لا تنتهي.

أطرق فرعون للأرض برأسه وكز على أسنانه:

. أرسل جنديين، إن عبرا بسلام فسنابعهما.

أشار هامان لجنديين فوق عربة فاقتربا:

. استكشفا الأرض.

نظر الجنديان إلى بعضهما البعض بتردد قبل أن يقول أحدهما:

. سيدي، قد ينهمر علينا ماء الساحر.



تلقى الجندي طعنته في الرقبة فسقط بين قدمي هامان الذي التفت للآخر:

. هل علي أن أكرر كلماتي؟

تقدم الجندي مرتعشاً صوب الماء، دلف إلى الشق في حذر، سار فوق الأحجار متجنباً الرمال المبللة، يتلفت خلفه فيرى وجه فرعون فيهرب بعينه إلى الأمام في روع، حتى ابتعد لمسافة أربعين ذراعاً فنظر هامان لفرعون:

. لا آمن مكر السّاحر، ولا آمن الأرض المبللة.

. داهمك الجبن أم نال منك ابن الخراب؟

. بل العربات ثقيلة برجالها والخيول منهكة.

. لينزلوا عن العربات فيسيروا بجانبها.

. لم لا نلتف خلف اليم فنلحق بهم.

. ستتحاكى القبائل بأنني خفت خوض البحر وراء المنبوذين.

. هذا خير من أن يطبق علينا الماء فنصير حكاية شعبية.

. إن لم أتبع هؤلاء المحذومين فلن أعبد في تلك الأرض أبداً.

نظر فرعون للبحر في وجل حين تعالت أصوات جنده وتوترت الخيول، اتخذوا وضعيات دفاعية وضيقوا انتشارهم حين شق الصفوف جندي خشّاف. اقترب فقفز من فوق حصانه والجروح تملؤه والتعب، نطق بأنفاس مقطوعة:

. عربات الجيبتيين اجتاحت هؤارة، حرقوا الحصون وجاسوا خلال الديار، تصدّت لهم بنو «الأزرق» وبنو «عبيدين ضخم» وبنو «قطران» فأسروا منهم رجالاً وقتلوا الكثير.



نهش الغضب ملامح فرعون.

. من قائدهم؟

. ملك الجبتيين، أحمس، ترك قواته في المدينة وخرج بجيش من العربات قاصداً اللحاق بنا.

نظر فرعون في الأفق فلمح الغبار، نفس الغبار الذي أثاره جنده منذ ساعات، ثم ميّزت عيناه العربات والخيول، وميّزت أذناه زئير أسد، نظر فرعون لهامان في هلع ثم نفخ صدره وصرخ:

. خيانة، إلى البحر، إلى البحر.

قالها وقفز فوق عربته، ضرب الخيل فضهلت وتحركت، تكاد تطير من غضب أمرها وخفة العربة بعد أن أسقط منها الرامي وحامل الدرع، ثم تبعه جنده وهامان ومن ورائه جند قبيلته، كان ذلك حين شارف موسى الشاطئ المقابل للبحر وكان أول الخارجين في سلام، التقط يد مريم وحمل عنها أطفالها، ووقف هارون ليُساعد الشيوخ والنسوة في الخروج، في تلك اللحظة كان أحمس فوق عربته طائراً، يراقب مؤخره جند فرعون يتراحمون أمام شق البحر لم ير له من قبل مثيلاً، ملأه التساؤل وراودته نفسه أن يبطئ فيرسل كشافاً ليخبره بما رأى، لكنه تذكر مقابلته برسول الراعي، وتذكر ما قاله وما فعله من الآيات، فرفع شعار أبيه وأخيه على الأعلام وضرب أورك خيله مُردداً:

. بعض اللحظات الفارقة لا تأتي في العمر مرّتين.

كان جند فرعون قد بلغوا منتصف المسافة حين وصلت عربات أحمس أمام شق البحر، رفع شارته فتوقفت العربات، نزل بين دھول جنده فلامس الماء الصاعد، اقترب مُساعده:

. ماذا ترى؟

. أرى أن ننتظر هنا، فالنزاع لم يعد بين رجل الرب ورجل العرش، لقد تدخل الراعي.

على الضفة الشرقية نظر موسى للسماء والآخر أبناء قبيلته الذي خرج من شق البحر، اقترب هارون والتعب



يأكله.

. ماذا ننتظر؟ اضرب بعصاك البحر فيصير الماء حائلاً بيننا وبينهم فلا يصلوا إلينا.

هم موسى بضرب عصاه حين تلقى الكلمات:

. اترك البحر على حالته.

أنزل موسى عصاه وهز رأسه نفيًا فنظر إليه هارون وقد أدرك أن الرب قال كلمته. اقترب رجال القبيلة ينقلون أبصارهم بين جيش فرعون الذي خاض الماء وراءهم. وموسى الذي أمرهم بالابتعاد عن الشاطئ، ثم أخذهم الهلع فركضوا حين لاحت عربة فرعون. يضرب خيلها بقوة وفي ملامحه الرعب والغضب يتصارعان:

. يا ابن أم، إن خرج من البحر فسيأكل لحمنا أحياء.

. رأس العجل دخل البحر صاعراً. لقد حضر فتى واست.

. أتعني أن هؤارة...؟

. سقطت. إن لم يعبر فرعون البحر فلن يعود لمدينته

. اضرب البحر إذن كي لا ينتقم منا.

. لن أدعه يقول إن موسى فرّ من مواجهتي.

. سأبقى معك.

. بل اذهب فطمئن القبيلة واعثن بالضعفاء.

هز هارون رأسه ثم ابتعد. كان ذلك حين رفع فرعون قوسه وسدد سهمه نحو صدر موسى. فجأة ضربت عجلته صخرة قاسية فانكسرت وانقلبت العربة وسقط الخيل بعضه فوق بعض. تدرج فرعون فوق الرمال قبل أن



يقوم وقد أصيب بجرح في خذه وانكسرت قوسه، ألقتها تحت قدميه واستل خنجره في غل واقترب، بات على  
بعد عشرين ذراعاً من موسى:

. ألق عصاك ولتواجهني رجلاً لرجل.

نظر إليه موسى وابتنسم، ثم ألقى عصاه، فجأة ارتجت الأرض وارتفع هدير المياه، ثم انهزم الماء من حول فرعون  
فاختلط صرخ الجنود بصوت تكسير العربات بصهيل الخيل، نظر خلفه فهاله المشهد، حواط الماء تتكسر  
وتتساقط، أفاق فركض نحو موسى والهلع يملؤه، قبل أن تضربه موجة عاتية فتطوي جسده.





حين عاد البحر لخالته وهذا الموح خرج بنو إسرائيل من خلف الجبل وحاذوا شاطئ البحر شمالا حتى وصلوا إلى مضيه في اليم. متبعين اتجاه الموجة الهائلة. العربات المحطمة والخيل الغارقة والدروع كانت تراحم الجثث الطافية. مننفة. ميسوطة الذراعين. أعينها بيضاء ولحمها منهتك. وقفوا لدقائق ينظرون لبعضهم غير مُصدّقين، قبل أن يهّم الفتية بالبحث عن الملك فرعون. انقضت الساعات في فحص الجثث وإخراجها لانتزاع ما يمكن انتزاعه منها، قبل أن يصرخ أحدهم حين عثر على حثة هامة. أخرجوه فحردوه من ملابسه وأسلحته. ففعلوا عينيه وقطعوا خصيته قبل أن ينهاهم هارون عن العبث بالجسد لأنه عهدة الرب. علقوه من قدميه في جذع نخلة ثم شرعوا بالغوص بحثًا عن فرعون. جلس موسى على صخرة يتأمل قومه وما يفعلون حين أتاه هارون فجلس بجانبه صامتًا حتى تكلم.

الشباب يضارعون النهار للعثور على جثته. لكن اليم بعيد القعر. أما الشيوخ فيفترحون العودة إلى هواره حين تتأكد أعينهم من موته.

. هؤلاء المخابيل! كيف نعود وقد أمرنا الراعي بالرحيل عن أرض الجيتيين؟

. ماذا عن باقي القبائل؟

. سقوط هواره سقوط لكل القبائل. مسألة وقت أن تبقى في تلك الأرض.





. ماذا عنّا؟

. سنكمل مسيرتنا مع شروق الشمس و...

بتر موسى كلماته شروداً، عيناه كانتا تراقبان فتى تجمع الناس من حوله:

. من هذا؟

. أحد أبناء سامر، أمه من بني إسرائيل، يحفظ كلماتك ويقلّد نبرة صوتك ويتّبع خطاك.

. ماذا يفعل؟

سال موسى ولم ينتظر جواباً. نزل من فوق الصخرة فاقترّب، الفتى كان يخطب في الجمع بغضب والوجوه من حوله بين مُصدّق ومُستنكر:

. تلك زينة تحمل اللعنات، سيظهرها الربّ ويصحبها على رؤوسكم..

. ماذا تقول أيها الفتى؟

تفرق الجمع احتراماً فوقف موسى أمام الفتى الذي انحنى ثم سجد على الأرض:

. سيدي، كريم الراعي، أسجد إليك تبحيلاً و...

قاطعه موسى:

. قم يا فتى، ماذا تفعل؟

جلس السامري على زكّيته:

. إن القوم حين حزموا أمتعتهم ليغادروا هوارّة، لم يردوا الرهونات إلى أصحابها، ولم يعيدوا زينة القبائل التي آمنوهم عليها للصهر والتصنيع أو التخزين، خليّاً وأساور من الذهب وأحجاراً...



قاطعه موسى:

. ثم؟

. إنما أحثهم على دقنها في هذه الأرض المباركة هبة للإله فيباركنا ولا تلحقنا لعنة.

أشار موسى للناس أن يتفرقوا وحذب عضد الفتى مبتعداً عن الأذان:

. كيف تتقول على الرب بأنه يتلقى الهبات ليجنبنا اللعنة؟ أخبرك الرب بهذا أم تجتهد فيما لا تعلم؟

. إن الذهب الذي نحملة ملعون. زينة الطغاة الذين تبعوا الملك. وما حدث لقارون وقصره خير دليل. إن كان قدم للرب قريباً أو...

جذب موسى قميصه بغضب وهمس في أذنه.

. من أنت لتتكلم باسم الإله؟

. أنا...

. أحرص واسمع. نحن. في موقف عصيب. هؤلاء أناس هجروا ديارهم وعبروا بحراً. وهناك جيش من الجبتيين يقبع خلف ذلك الجبل. وأنت تريد أن تحدث صدعا!

. يجب عليك معاينة من حمل وزراً بغير حق.

. ليس ذلك من شأنك.

. لكنك كلهم الراعي ورسوله. والرب لا يقبل أن...

صرخ موسى:

. لا تتكلم بغم الرب.



ودفع الفتى فأسقطه أرضاً. ساد الصمت لحظات نظر فيها موسى لكفيه فتذكر ما فعلته منذ عشر سنوات. ثم نظر للناس الذين تابعوا الموقف حين اقترب هارون فهمس:

. يا ابن أم، إن القوم لم ينسوا.

قاوم موسى غضبه حتى زفر نفساً حاراً، ثم هم بالرحيل فأحاط الفتى السامري بساقيه مُحْتَضِناً ورفع صوته:

. امنحني شرف لقاء الرب على يد كريم الرب.

فك موسى أصابع الفتى من حول ساقيه وهمس:

. اغرب عني.

كان ذلك حين ارتفع صوت:

. وجدت خوذة العجل.

ركض هارون ناحية صاحب النداء فاستدركه موسى:

. أخبرهم ألا يمثلوا بالجسد حتى نتأكد أنه هو.

في أقصى اليم شمالاً. عند مدخل كهف مظلم يقع على بُعد خطوات من الماء. تجمع الناس حول الفتى الذي يحمل خوذة قرني العجل. خوذة فرعون. وصل موسى فأشار الفتى لخوذة ولفوس ولدرع ثقيلة تحمل شعار رأس العجل. ولخطوات على الرمال تنتهي عند المدخل. تحقّر الناس وهللوا قائلين أن يأمرهم موسى بالتزام الصمت. اقترب من المدخل المظلم ورفع صوته:

. يا فرعون.

انتظر لحظات ولم يتلقَ إجابة فرفع صوته:



أظهر نفسك وسأضمن لك الأمان، لا أعاصم اليوم من الرب ولا مفر.

مرت اللحظات فتأهب الفتية كالفهود الغشيمة يريدون الفتك به، نهرهم موسى بيديه وجحظت عينا هارون فيهم فتراجعوا:

إن لم تخرج فسيدخلون إليك، لن أملك مساعدتك.

لم يتلق إجابة فطلب الشيوخ حرق الكهف وهدد الشباب بالطعن والتمثيل، رقع موسى عصاه ثم صاح فيهم:

سأدخل إليه، وحين أخرج لن يمسه أحدكم بسوء حتى يقرر الرب أمره.

اقترب هارون:

فرعون يعرف كيف يضرب بالسيف.

لقد ترك قوسه فلن يصيبني عن بعد، أما السيف فقد تربيت على يد معلمه الذي علمه القتال.

قالها موسى ثم سحب من حزام هارون خنجره. اقترب من مدخل الكهف وسط الترقب والفضول، ثم دلف في حذر، سار خطوات ثم رفع صوته منادياً:

لقد سقطت هوارة في يد الجيبين، لم يغد لك ملجأ إلا بيننا، أعطيك الأمان لنخرج معي في سلام، هذا عهد بيني وبينك والرب الذي لم تؤمن به شاهد.

تلقى موسى صمتاً، لا شيء يعلو فوق صوت قطرات ماء تقطر من السقف، أردف:

خير لك أن تعلن عن نفسك من أن يخرجك الفتية، جئنا هانئاً معلق على جذع نخلة.

تقدم موسى خطوات فأحاطته الظلمة، تحفرت يده على العصا والخنجر، ثم مضى خطوات إضافية:

إن جيش أحمرس قادم لا محالة.



ثم توقف للحظات حين أدرك أن الظلام يخف، عيناه تريان التفاصيل جليئة! تقدم خطوات فإزداد يقيناً، النور يتسرب من ثغرة ما، الكهف ينحني لليمين، تزداد أرضه ارتفاعاً، ثم بقعة شمس تضرب الصخر من ثغرة صغيرة، ثغرة تتسع لعبور جسد! اقترب موسى فوجد حزام فرعون ملقى على الأرض وفردة من صندله، ترك عصاه وقفز فتشبثت أنامله بأطراف الثغرة، تحامل على نفسه فرفع جسده حتى أخرج رأسه للنور، الكهف كان يُفضي إلى ممر جبلي وعر، ممر يتفرع إلى سلسلة من جبال ومنحدرات لا أول لها ولا آخر، ترك موسى جسده فسقط، سيطر على غضبه ثم التفت عصاه، وحزام فرعون.

خارج الكهف كان أبناء القبيلة متحفرين، اتجهوا إليه ليسألوه فأحبرهم بما رأى، رمجوا كالضباع واقتحموا الكهف يصرخون، قبل أن تخرج جماعة منهم ليتعقبوا خطاه، كان ذلك حين اقترب هارون فهمس في أذن أخيه: بدوي مذعور يركض منذ ساعات، لو كنت مكانه لركضت حتى بابل.

لن يعثروا عليه، فهو خبير بالصحراء، لم ينس يوماً حياة البدو، من دون الجند كلهم ينحيه الرأعي

ربما ليقابله الذين كانوا يظنونهم إلهاً.

كلمات حكيمة، لكنها لن تشفي غليل الإسرائيليين

علينا أن نمضي في طريقنا، لن يفيد الانتقام شيئاً

سأترك لك إقتاعهم، وسأتقدم لأقابل ملك الجيبتيين

التفت هارون إلى حيث يشير أخوه فرأى حافل الحيش الجيبتي تتقدم من الغرب.

بين النخيل وبعيداً عن أعين القبيلة وضع الجند كرسيين، ربح الأسد تحت قدمي سيده، الدماء على السيف ما زالت، والضربات على الدرع تركت الآثار:

تلك أول زيارة للمصر؟



. تسللت مع أخي كامس مرات إلى أرض الفيروز. كان يعود قلبي على كسر هيبة الرعاة، تتسلل ليلاً فنقتل من يقابلنا من الجند لتترك الرعب في النفوس ثم نعود لواست، إلا أنها أول زيارة لهوارة.

نظر موسى لجرح في قدم الأسد الرابض فأردف:

. وجدت مقاومة؟

ربت على عنق الأسد وداعب لبدته الداكنة:

. كنت أعدّه لذلك اليوم. حلم ظل يراودني منذ كان شيلًا، سادخل به هوارة، وسبيبت زئيره الرعب في النفوس. لدى القبائل جند أشداء لكن قلوبهم غير مؤمنة. اجتمعنا معظم الحصون، والبقية تركناها مُحاصرة حتى نعود.

. وماذا عن قصر فرعون؟

. كان خاليًا من الحراسة حين أتينا.

. هل صادفتم ابنته؟

. ماتت قبل أن نصل إليها.

وضع موسى كفيه على فمه قبل أن تنساب دموعه حارة، تحشرج صوته وتهدج نفسه:

. هل...؟

. قتلت نفسها.

عض موسى أنامله قبل أن يتمالك نفسه:

. لعنة أبيها لم تكن لتفارقها.

. ليرحمها الراعي، هل وجدتم جثة الثعبان؟





فرعون نجا من الغرق، أوى إلى كهف فيه ثغرة وضعته على طريق المنحدرات الوعر.

عَبَسَ وَجْهَ الْمَلِكِ:

سأرسل في أثره من يأتيني به حياً، ماذا عنك؟

كما تعاهدنا، خرجت وقبيلتي من هواره، وسأكمل طريقتي شرقاً حتى يأتيني أمر الراعي.

لك مني الأمان ولقبيلتك ما دمت في أرضي، استقر كما تشاء ولا تتعجل الخروج من مصر، فالبدو الشرقيون

لن يقابلوكم بالترحاب. سيكفل جندي لكم المؤمن وسينصيون لكم الخيام إن أردتم.

لدينا ما يكفينا، لكنني أرجح الابتعاد عن مصر، فنفوس القبيلة تميل للعودة.

قام أحمس مبتسماً ومد يده بسلام.

كما تشاء يا نبي الراعي.

صافحه موسى.

السلام الجيبي، لن أنساه، كما لن أنسى صاحب الأسد.

ابتعد موسى خطوات قبل أن يستدركه أحمس.

يا نبي الراعي، هل تعرف الكتابة؟

تعلمتها في معبد «أون».

ما جعل إيجيبت سابقة للأمم إلا تدوين حياتنا في الصخر حفرًا.

ثم نظر أحمس لشيوخ بني إسرائيل وهمس في أذن موسى:

اكتب سجلًا لرحلتك، منذ بعثت وحتى تموت، وأتضمن عليها شخصًا تعرفه، فأعين قومك لا تحمل الخبر.



التفت إليهم موسى ثم رجع لأحمس الذي أردف:

. لا أُنَبِّأُ بِالْغَيْبِ، إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءُ نَتَعَلَّمُهَا فِي الصَّعِيدِ الْجَنُوبِيِّ.

قالها ثم ربت على كتفه بابتسامة ورحل. ساحباً وراءه جيشاً ظفر بعد شقاء.





وضربت الشمس الشفتين الأسيرتين.

تنبهت، رفعت جفنين كسولين فأدركت أنها فوقه، مستلقية في راحة. كانه سريرها، شعرها المموج مبعثر على وجهه وأنامها ممسكة بشحمة أذنه. ابتسمت، ثم مسحت لعاباً سال على صدره قبل أن تقوم، داعبت بطنها والعرق الذي اختلط من الملاصقة، ثم تأملته فتنهدت. كان يغط في خفوت والبوصة بين أصابعه لم تسقط.

. كم هو مليح ووديع!

التفتت ناديا بغثة فرأتها، تسند الباب في سكون لم تعهده فيها وفي شفثها ابتسامة رقيقة:

. يا وجه الشؤم.

. جئت لأودعك.

. حقاً!

. لم أعهدك سعيدة مثلما أعهدك الآن، فالفرح شبع وامتلأ، والقلب شغف بالعشق، لم تعد هناك ضرورة لوجودي بجانبك، وما أتيتك يوماً إلا لأصحك.



. غادرك الحقد أم العوبة جديدة تفرقين فيها بيني وبين حبيبي.

اقتربت منها فالتقطت خصلاتها، لم تكن يوماً لتقاوم الخدر الذي يسري في روحها حين تضفر العاهرة شعرها، وتخمش رأسها بأظافرها. تغمض عينيها في نشوة حتى ترتعش أصابع قدميها وتخفت الأصوات في أذنيها فلا تسمع إلا صوتها:

. هنيئاً لك الحياة في كنف حبيبك، في مذود للبقر أو في مستنقع، لا يهم، فالعشق لا يهمه مكان أو زمان، أرجو فقط، أن يصير لك وحدك، فلم تنتظري الأعوام لتظفري بنصف رجل...

. نصف رجل؟

. نعم، فقلبه معك، وعقله...

وأشارت بأصابعها للبرديات على الأرض:

. إن لم تملني عقل الرجل كما ملأت قلبه، فلن نصير مليكته. مع غابات القمر سيسأم رحيق الجسد، وستفتقدين الشغف الذي ترينه في عينيهِ، ثم تنبت بذور المشاحنات فتسقيها بالسُموم، حتى يضيق صدره وصدر الرجال ضيق، وبعد أن كنت الملاذ، بعد أن كنت الحزن، الحلوى، الدفء، ستصيرين العيب، ويفسد العشق، ستطئنه بقدميك يا حلوتي دون أن تدري، ثم تظهر من هي أنصح منك ثماراً، ستجذبه، فقط لأنها ليست أنت، سيئني على طعامها وشرايها، ثم تراود أحلامه، حتى يملأه الشغف بها، فيفتطفها، ويلقي بذرتك في ركن مظلم كأن لم تكوني.

. وما في بطني؟

. قد يصبح بطنك سبب نفوره، أو انجذابه.

. ماذا علي أن أفعله؟

لم تتلق نادياً الإجابة، فتحت عينيها ولم تجد عاهرتها، التفتت حولها فلم تعثر لها على أثر، قبل أن تلحظ الصغيرة السمّكة التي صنعتها، بيديها. نظرت لكاي في حب ثم تنهدت عشقاً، قبل أن تقترب، من البرديات المأهولة، سالتها



بأناملها من تحت ذراعها، نظرت فيها ثم اتجهت لكومة الحطب، بين الرماد كان لأيزال بصيص نار، جذوة صغيرة، لكنها كافية لتشعل النار في حروف القصّة العتيقة، ما إن لامست النار البرديات حتّى استيقظت، أكلت بنهم وطققت حتّى استيقظ كاي، جلس مقاومًا الدخان الأسود الذي أغشى عينيه، قبل أن يميز ناديا، جالسة القرفصاء أمام الحطب، تمسح بأناملها الفحم المتخلف عن الحطب وترسم على وجهها خطوطًا ودوائر، ما إن أدركت استيقاظه حتّى علت الضحكة وجهها:

. لم أخبرك أنّي أجيد الرسم.

. ماذا تفعلين؟

. دعني أرسم على وجهك وأنت تعرف.

نظر كاي في الحطب ثم تلفت بحثًا عن برديات معلمه فلم يجدها:

. ماذا تحرقين؟

ابتسمت بعينين حاضنتين ولم تجبه، فقط مدّت يدها للكومة الأخيرة من البرديات وشرعت في إلقائها في النار حين قفز من رفدته وبرك فوقها كفهذ جانغ فوق غزال، ألقي البرديات بعيداً وثبت ذراعها بقبضتيه الشرير يتطاير من عينيه واللّعب من فمه، صرخ في غضب لم تعهده فيه من قبل:

. ماذا فعلت؟

. فعلت ما هو واجب، أحرق ما يقف بيني وبينك، ما يحجب العشق ويبطل الشّعف.

. أيتها الملعونة، كيف تسول لك نفسك تقرير مصيري.

. أنا لا أقرر مصيرك، إنما أحمي عشقنا، أحمي ابنتنا.

. بأن تحرقني ثمرة يدي!



. ولو أحرقت الدنيا بمن فيها.

. لقد مسك الجنون.

صرخ ثم قام فوضع يده في النار غير عابئ باحتراقها، التقط البرديات فتفتتت بين أصابعه هباءً منثوراً، أغمض عينيه في حزن ثم فتحهما فنظر للبرديات التي أنقذها من يد ناديا، كانت بردياته المترجمة، عدا الجزء الذي سهر لأجله أمس، الجزء الخاص بخروج الرعاة. لملم بردياته وحزمها قبل أن يدسها في ملابسه، نظر لناديا في غضب مكبوت ثم خرج من المذود في خطوات واسعة واتجه جنوباً، قامت ناديا فاتبعت عن بُعد، مغرورة عيناها بالدموع ومعضوراً قلبها بالحزن والندم، تهمس في سرها ولا تجد إجابة.

«ما الذي فعلت أينما الحرقاء؟ لو مكانه ما عدت إليّ، ما وثقت فيّ؟ يا لها من طبيعة، طبعيني، أثور حتى أحرق القرى والزرع، لا أملك لنفسي ردعاً أو تحويلاً، ثور أعمى وخذ بسكين في كبده، ثم أهدأ فأدرك، أني قد أشعلت النيران في أحب من عرفت، ثم تتكشف الأسباب أمام عيني كأي امرأة أخرى، أعرف، أعرف أن الفتاة البيضاء لم تكن لتثيره، أعرف أنه مخلص في عشقه فالأعين لا تكذب، ربما هي أثارتني أنا؟ نعم، ففيها ما كان في يومنا، كان لي بيت وأم وأب، كنت فتاة مدللة قبل أن أصير عازقة اليوسيس، كنت فتاة عادية، لها حلم واحد برجل ناصح مثل كاي، حلم يتبدد الآن أمام عيني، كدخان البرديات التي أحرقتها.

صفعت نفسها مائة مرة، ومزقت أشواك الزروع بأناملها حتى أدمت نفسها، تسير وراءه ولا تجرؤ على الاقتراب، تنظر حولها بحثاً عن العاهرة التي دفعته من فوق الجبل، حتى علا نحيبها فتوقفت وتوقف، هز رأسه ثم التفت إليها ورفع يديه فاقتربت، أرسيت أناملها في كفه.

. تحرقين بردياتي لغيره انتابتك!

. وأحرق الدنيا كلها، من أجلك.

. تلك البرديات تجعل لشقائي معنى، بدونها لن أكون كاي الذي تحبين، لا تهددي السلام الذي رأيته في عينيك، لا تعكري العشق الذي استولى عليّ.





.اغفر لي جنوني.

أحاط رأسها بكفيه العريضتين:

. يضمنني ضعفني تجاهك، أصبح طفلاً أمام أمه.

انخرست في حضنه دون كلمة، بكت ثم قبّلت يديه:

. لن أقف حائلاً أمام ترجمتك ثانية، سأقتل تلك الأخرى التي تعيش بداخلي إن رأيتها، سأقطع لسانها، سأمزقها.

نظر كاي في عينيها اللتين ترقرتا:

. لن نتوقف حتى نصل إلى المستنقعات، هي على بعد ساعات.





حين دلفا إلى المُستنقعات كان الليل قد وقع. نور القمر يسيل على فروع الأشجار المتشابكة ويصل إلى الأرض، الأعين المضيئة تشتعل ببريق كالنار، والرائحة النفاذة للملح الأسن تغمر الأنف والصدر. سار كاي وفي أثره ناديا. تقاوم العثيان والخوف. وتقاوم النظر حولها خوفاً من أسوأ مخلوقات الليل: عاهرتها. تسمع هسيسها بين الأشجار فتتأمل لكاي وتضغط على أصابعه ذوداً، حتى بلغا البركة التي قابل أباهما عندها يوماً. نادى في الفضاء باسمه. مرات ومرات ولم يتلق إجابة.

.أيكون قد رحل؟ أو حدث له مكروه؟

.أبوك رجل تمارس على حياة المُستنقع، لعلّه بدل إقامته. أو لعلّه يصطاد بومة أو فأراً لوجبة الليلة.

امتعض وجهها فارتجفت. أحاطها بذراعيه وذلك ظهرها قبل أن تتباه رعدة حين نظر لكتلة أسفل الشجرة التي رقد يوماً تحتها. فقد كان الطبيب عزيز راقداً. مطعوناً في البطن... دون أن يقلنّها من حضنه سلت سكينه من حزامه وهمس:

.ناديا، عليك أن تثقي بي.

.لا أثق إلا بك.



. علينا أن نرحل من هنا.

. لماذا؟

. أبوك لن يعود.

تشنّجت ملامحها:

. كيف عرفت؟

نظرت في عينيه فالتفتت بغثة إلى جسد أبيها، صرخت في هلع قبل أن تدفن رأسها في صدر كاي، كان ذلك حين ارتفع الصوت من بين الأغصان:

. أرجو أن يكون الكاهن قد استحق العناء.

ضربت الرعشة أطرافها وسقط قلبها على الأرض الطينية. التفتا في فرع. الظلام كان كهيلاً بمضاعفة الرعب فيهما، وضع كاي ناديا خلف ظهره وتاهيت أطرافه فشهر السكين قبل أن يتكرر النداء من مكان آخر:

. من يعرفك مثلي؟ من وطنك مثلي؟

ثم علت زمجرة تعرفها، زمجرة سيربيروس. غادرت الدماء جسد ناديا وانتصب شعر رأسها، أردف الصوت:

. ما كذبتني عيناى يوماً، كنت أراك عارية من الداخل مثل الخارج. أرى الدم حين يصعد إلى وجنتيك، أرى لعابك حين يسيل، كالكلية، وحدقتيك اللتين تضيقان فلا تخفيان العجب، فمَنذ فتح الكاهن فمه وألقى سحر كلماته لم تعودى ناديا التي ربّتها يداى.

أنهى آرام كلماته ثم خرج من بين الأغصان المتشابكة، فمسكاً بجنزير رقبة كليه سيربيروس، مقاوما اندفاعه. أضاء نور القمر وجهها زينه جرح غائر تحت العين اليسرى، وقف فايتسم ثم أمال رأسه يتأمل كاي وناديا قبل أن يشير إلى جرحه:

. جئت أباك كي أطلبك للزواج، قلت له إنتى يهودى، وإني سأترك ديني من أجل ابنتك، حكيت له كم أنت شهية، كم أن



عنك وبحة صوتك لا تغادران أذني. كم أنك خائنة لا تحفظي عهداً. وحين حكيت عن ماضيك في إليوسيس، وكيف انتشلتك من تحت الرجال، ثارت ثائرتة، طعنني بسكين فأخطأ عيني، فشقت بطنه دفاعاً عن نفسي.

بكت ناديا، بكت حتى أصدر قلبها الدقة الناقصة، بردت أطرافها بغثة وانسحبت روحها إلى قدميها فاستمسكت بكتف كاي الذي صاح:

. دعها وشأنها، ألا يكفيك ما فعلت؟

. الآن أسمع صوتك، تغضب من أجلها؟ لم لا نزيل الغشاوة عن عينيها؟ لم لا نريها من الأجدر بحبها، كاهن أم رجل حقيقي؟

وقعت ناديا على الأرض بجانب قدمي كاي فتأهب للقتال،

. قاتلني إذن.

. لتواجه أرام، وتتل شرف منازلة سيد شباب حي دلتا، عليك أن تثبت جدارتك.

قالها أرام قبل أن يفلت الحزير، ركض سيربيروس نحو كاي بعينين بارقتين، يزفجر في غضب شربه من يد سيده وبكشر الأنياب، لم يكن بحاجة أن يشرح له أرام ما عليه فعله، ففي الحليات تعلّم شيئاً واحداً، أن المخلوقات ليست إلا قاتلاً أو مقتولاً. فغز على كاي الذي رفع ذراعه مسدداً سكينه. أمال سيربيروس رأسه فغرز الأنياب في المعصم متجنباً النصل قبل أن يسقط فوق كاي دافئاً جسده في طين المسنقع. ملوحاً برأسه يميناً ويساراً فمزق اللحم فهشماً العظام، صرخ كاي ألماً قبل أن يغوص رأسه في الوحل. قاوم الألم والطين الذي ملأ فمه حتى اعتدل بصعوبة لبحث عن السكين، لمح أرام يقترب من ناديا وينحني عليها. قبل أن يدفعه الكلب دفعة للوحل ثانية، غاص كاي فمد يده والتقط أذن سيربيروس، جذبه ناحيته ليقاوم الدفن فرجع الكلب للوراء خطوة فخرج معه كاي. لمح ناديا على كتف أرام محمولة كالذبيحة، ضرب بيده وجه سيربيروس فأصاب عينيه ولم يتراجع الكلب عن مهمته، فما كانت تلك الضربات لتضاهي منازلة بحلبة ديونيسيوس، زمجر وازداد شراسة وانقضاضاً. لمح كاي ذراع ناديا مرتخية على ظهر أرام، تغوص معه في ظلمات الأشجار المتشابكة.



بآخر ما أوتي من قوة صرخ، صرخ من أجل ناديا ومن أجل روحه التي تُسلب منه، دفع ذراعه التي تمزقت في فك سيربيروس وضرب بيده الوحل بحثًا عن السكين، حتى التفت حجرًا، ضرب به وجه الكلب مرتين قبل أن يترك الكلب ذراعه، ويغرز أنيابه في ذراعه الثانية، سقط الحجر فضرب العينين بأصبعيه فأقلت الكلب ذراعه وعض ساقه ثم فحذه، جذب كاي ثم أطاح به وبرك على ظهره فغرز الأنياب في الكتف، ضرب بكوعه الكلب الذي طوح به، صرخ فتردد ألمه في المُستنقع، فغرز سيربيروس أنيابه في العضد، ثم وهنت المقاومة، الطين اختلط بالدم في عينيه، وتولت المياه المالحة كي اللحم، الصرخ لم يعد مُجديًا، أو المقاومة، سكن كاي فسكن الكلب بعد لحظات، لما لمس الموت في غريمه، قرب أنفه من الوجه يستشعر أمارات الحياة، قبل أن يسيل لعابه على الأذن، لهث بنفس كربه ثم وقف بقائمتيه على الصدر، ينهض ويستشعر نبض غريمه، وينتهي للنهش، ينتقي قطعة الرقبة دائمًا تبدو شهية، تحسم آخر رعشات الحياة ونهض الجدال في العروق، انحنى على كاي وفتح فمه فطوح الأخير يده بحجر أصاب رأس سيربيروس، نبخ في ألم ثم هجم على كاي الذي لم يمهله الوقت أن يقوم، هم بغرز أنيابه في ذراع كاي فتلقي ضربة ثانية أبعدته ذراعين، زمجر في غضب عارم ثم تهيأ لهجوم أخير حين نبخ في ألم، ثنى رأسه لينظر إلى قائمته الخلفية، قائمته التي خُشرت بين فكي تمساح، التف حول نفسه حتى كاد يكسر ظهره فعض رأس التمساح ولم يتأثر الجلد السميك، اتخذ الأمر لحظات نبخ فيها استعانة بكاي الذي لم يقو على الاشتباك أو القيام، قبل أن يسحبه التمساح بعد مقاومة شرسة، إلى القاع.

رغم الألم،

رغم النزيف،

ورغم الموت المُقنع،

كان على كاي أن يقوم، فالتماسيح لن يشبعها كلب، حتى ولو كان بحجم سيربيروس العظيم، والضباع لا تنتظر الضحية حتى تموت، بل تشرع في أكلها وهي تنفس، بحث كاي عن طرف في جسده يستطيع التوكؤ عليه حتى عثر على ساق لم تصيبها إلا كدمات، استند عليها وقام مبتعدًا عن وحل التماسيح، صرخ في ألم فالتقطت أذناه حركة خافتة ورأى العين المضيئة، كان عليه أن يتبع الطريق الذي سار فيه آرام، لكن تقضى خطواته كان مُستحيلًا في





الظلام، علاوة على أن عليه إقناع النريف بالتوقف حتى لا يسقط مغشياً عليه. بحث عن البرديات المتيقية حتى التقطها من الوحل. رفعها على فرع شجرة لتجف ثم مزق إزاره بصعوبة. ضمّد ساقه وذراعه، ولم يمهله الوقت ليغطي كتفه بورق الجميز. سقط مغشياً عليه حتى انبلج الفجر، ثم فتح عينيه بغتة لما شعر باحتراق جسده، اعتدل فزعاً فقام على ساقيه، قبل أن يسقط، استند على جذع ليستوعب ما حدث قبل أن يستدرك صراعه مع سيربيروس، التقط أوراق أشجار يعلم خصائصها، دسها في فمه محاولاً أن يستسيغ طعمها، ثم وضع بعضها على جروحه والتقط البرديات الباقية، تضرر بعضها وفُحى الحبر عن بعض السطور، لفها بحزامها الجلدي وثبتها على ظهره، ثم زحف حتى الطريق الذي سار فيه آرام، بحث عن أولى الخطوات فحفظ معالمها، قدم عليظة تحمل غشقه على الكتف اليمنى، اتكأ على آلامه فقام، يقاوم ألماً من تهتك الجروح، رتل مثنون الاستغاثة وشكر الراعي في دعاء لأنه حفظ عينيه اللتين سيتفصى بهما طريق الخروج، التقط عصا تمنى أن تكون كعصا موسى، ثم سار وراء الخطوات لساعة حتى توقفت، أثر جسد ناديا مستلقية على الوحل وأثر جسد أنقل برك لدقائق بركيته استجلاً للراحة، ناديا لم تُفق من غيبتها، قلبها الضعيف لم يخطر، رقدت ساكنة حتى استراح فحملها منكناً على ساقه اليسرى، فبدلاً الحمل بين كتفيه، نظر كاي لاتجاه الشمس فوجدها إلى الشرق تسير، آرام يعود بغنيمته إلى الإسكندرية.

اتخذ الأمر من كاي ساعات طويلة حتى بلغ نهاية أراضي المستنقع، خرج زاحفاً على ركبتيه وكوعيه، يغطي الوحل كخنزير وتكسوه أوراق الشجر وفصائل الطيور، استلقى على ظهره لساعات لم يحصها، حتى ضرب الأرض فرب وجهه خفاً ناقة تحمل رجلاً لم تسمح الشمس بتبين ملامحه، قبل أن تغرب الشمس بغتة.







مهيّب، مضحوبًا بأوان تحوي أعضاءه، وتمائيل إدريس الحارسة، ثم أغلقت البوابات وضربت عليها الأختام، ووضع الملك إكليلاً من الورود قبل أن يلقي خطبة حكي فيها عن الفقيد ومآثره، كيف قابله وماذا تعلّم منه، ثم سكّب كأس نبيذ على الأرض ليشربه التراب تحيةً وتوديعاً.

ثم رحل الملك بعدما أوكّل إلى مردخاي استقبال الوفود المُعزية، جلس في مقصورة تقيه الشمس وسمح للعامة بزيارة القبر في طاوور طويل، يقفون أمام الباب المختوم، يضعون التماثيل والجعارين المحفورة بالدعاء، وسعف النخيل، ويصلّون على الرّاحل مدرفين الدّم. كان مردخاي في قرارة نفسه ينتظر ظهور الفتى الجيبتي، فجثته لم يعثر عليها في المستنقعات. حفّز حراسه أن يرصدوه إن حضر، فذلك النوع من التابعين ما كانت لتفونه جنازة مُعلّمة، فانيثون، ذلك اللعين الذي لا يموت، دائماً ما قالت أمّه «راعوث» إن كهنة الجيبتيين مثلهم مثل الجعارين، حتى وإن ماتت أجسادها ألف عام، فإنها ما تلبث أن تتنفس وتتحرك مع أول قطرة ليمون تنزل عليها، من أجل ذلك حرص مردخاي أن يخفّف عنها العذاب، فهي من حددت يوم دفنه في النجوم ليكون يوم نحس وكرب، ثم رافقها إلى المعبد ليلة الدفن لتنظر إلى جسد الفتيل قبل علق الثّابوت، في ضوء شمعة رمقه لدقائق ثم اقتربت فتلبت اللعنات وبصقت على الوجه، ثم أخرجت وريقات التعاويذ فدسّتها في الخزان الملفوف حوله، واستبدلت جعارين الحماية على صدره بجعارين الموت لاستجلاب الكرب إلى روحه ومنعها من التعرف على الجسد. ثم وضعت الخنافس الحية في الإباء المرمرى الذي يحوي الكبد قبل أن تلتفت لابنها متهدّجة الأنفاس شافية غليلها بحجوظ عينين ورّيد من الدّماس على جوانب الفم.

. عادت الدماء إلى وجهك يا أمي.

. لو ما أوصيتني بكتمان أمري لمزقت جسده وأكلته.

قالتها ثم جحظت عيناها:

. هل وجدت تلميذه؟

. نعم، نهشه كلب من كلابنا في المستنقعات.



.والبرديات؟

«ألا تهدين يا أمي؟ ألا تتركين الرجال ليتولوا مهامهم؟ لم لا تنزوين إلى الشيخوخة الهنيئة التي يصادق فيها الأجداد أبناء الأبناء؟»

أفاق مُردخاي من شروده.

.فقد معظمها في الوحل يا أمي. وما تبقى أحرقت.

.أكان فيها ذكر لأحمس؟

.نعم.

.الكاهن خلد الملعون في قائمة الملوك. وضعه على رأس ملوك الأسرة الثامنة عشرة. كان يتشدد بسيرته، ويتجاهل شتات شعب وتيهها وملحمة ما فتئت إلى الآن تنزف.

. لقد أرسلت رجالا إلى مقابر «أحمس» وقواده. سيزيلون النقوش التي تذكر اسم بني إسرائيل ليلا، وستتولى الأيام والأثرية طمس ما تبقى. كما أمرت بجرّد رفوف المكتبة واستخراج ما دون عنه. ستستعيرها ولن نعيدها، لتصير سيرته إلى زوال.

.وماذا عن تلاميذه من الكهنة؟ ماذا عن البرديات التي يخفونها في الخزائن؟ ماذا عن...؟

قاطعها مُردخاي.

.أمّاها كفى. قد نلت انتقامك الذي طلبت.

نظرت إليه «راعوث» في استنكار:

. تريدني أن أشيخ يا مُردخاي؟ أن أموت؟ تراني أخرف؟ إنني أنتقم لحي دلتا بأكمله. أنتقم لأجدادك وأجداد أجدادك.



.إني مشفق على قلبك الذي لا يرتاح، تهلكينه كأنك فتاة في العشرين.

. طالما أنفوس وأتكلم فسأظل أسعى لرفع اسم شعب الرب، وستظل طفلاً في عيني أراك وأوجهك.

. أنا لم أعد صغيراً يا أمه، أنا أدير قصر إله يمشي على الأرض.

ترقرقت عيناها؛

. تريد لأملك الموت يا فردخاي؟

. بل أريد لك الحياة، الراحة.

. لا راحة لي ونحن محاطون بالجيبتيين.

. أعدك أن لا تزيدهم الأيام إلا تخبطاً وانزلاقاً في الوحل.

نظرت «راعوث» إلى جسد مانيتون ثم إلى عيني ابنها قبل أن تلهج أنفاسها. هزت رأسها في أسى وابتعدت، حاول أن يمسك راسها فلزعت ذراعها بعصية وغمغمت بالاستياء.

أفاق فردخاي من شروده بعد وقت لم يحصه حين خَبِلَ إليه أنه سمع همسة في أذنه، همسة تنطق اسم كاي، أو ربما كلمة قاتل، تلفت حوله فلم تجد عيناه إلا الجموع في ساحة المقبرة، ثم رآه، ركض نحوه وجذب كتفه فلم يجده كاي، كان شخصاً يشبهه، لما عاد إلى كرسيه وجد على المنضدة برديات ملفوفة بحرام جلدي، برديات يعرفها، تأهبت أعضاؤه فالتقطها وابتعد إلى خيمة الاستراحة، صرف الحاضرين فيها وأمر حراسه بعدم الدخول عليه قبل أن يفض البرديات، مَيَّرَ هيراطيقية مانيتون ونهاية قصة موسى النبي كانت بحوزة كاي، قبل أن يستشعر ثقلاً بين البرديات، فصر الأوراق حتى آخر ورقة، وإذا بها قبل أن ينتبه تنقض كالسهم نحوه، سوداء، تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراوان كالعينين، همست بفحيحها على عجل ثم رشقت نابيها في رقبته، أفرغت السم في لحظة قبل أن يدفعها جزعاً بيد تأخرت وصرخة يأس، وقعت على الأرض فتلوت ثم انتصبت استعداداً لهجوم جديد، أمسك فردخاي رقبته في ألم وتراجع خطوات شاهراً خنجره جاحظ العينين يحدجها بإجلال وخشية، فلم تكن المرة الأولى التي يقابلها، كم تأملها



للليال طوال تتلوى في أقفاص المساجين، تقترب منهم فيتحاشونها في ركن، يتكومون ويذودون بالأيدي والسيقان ويدفع بعضهم بعضاً ناديتها، قبل أن تنقض في سُرعة فتخترق أنيابها ساقاً واحدة منهم، يسري الألم بعد لحظات، كما يستشعره الآن في رقبته، سخونة في موضع اللدغة، اضطراب في التنفس وضربات القلب، وخدر في الأطراف، اقترب من الباب فتوسطت المسافة، نادى في الحراس فلم يستجب أحد، فصوت المنتحيين على مانيتون والمبتهلين كان عالياً، ثم زاع البصر، رمش بعينه حتى رأى الأفعى اثنتين، برك على ركبتيه غضباً فضرب موضع القلب بقيضته يستحثه على الصمود حين انتابه الغثيان وبردت أطرافه وتقيأ، اقترب النعبان ذراعاً فرمى بخنجره تجاهه، تجنيه الأخير فزحف ناحية مُردخاي الذي سقط على ظهره، تحسّس موضع اللدغة الذي تورّم وانتفخ، قبل أن يفقد الإحساس بأطرافه، كان ذلك حين اقترب النعبان، التقطت أذناه الفحيح، كأنه ينطق بالكلمات: «أنا سيدة الرمال، حارسة المملوك وساكنة التيجان، الجلال على من زرع الحركة في أطرافني وحقق الموت في أنيابي، باسم الذي سخرني، لن أعود إلا ظافرة»، كان ذلك قبل أن تلثم مُردخاي بثلاث قبلات في الوجه والصدر، قبلات أفنعتة بعدم جدوى الحياة.







بعد يومين.

اهتزّت الإسكندرية لخبر مقتل رئيس القصر بلدعة ثعبان. أعلن الحداد العام وتجمع أهالي حي اليهود أمام منزل السيدة «راعوث». ملفوفين بالحرير مضروبين بالصمت. عاجزة قلوبهم عن استيعاب وطأة الخبر ونكية الفقد. فمردخاي كان أبًا لابنائهم. وفخرًا لشيوخهم. وقرّة عين لوالدته. سيّدة الحي التي توسّطت فناء دارها فوق كرسي عال. ترتدي السواد وتغطي وجهها بخمار شفاف يخفي الأسى واللّحف. تقدم الناس منها في طايور دائري. ينحنون أمامها ويضعون الورود وشففات الفخار المحفورة بالأدعية ويرددون الابتهاال جليًا للسكينة والصبر. لم تتحرك السيدة أو ترمش حتّى تحركت الشمس إلى غروب. رفعت يدها فتوقفت حركة المعزين. ضرب الخبر أذان الواقفين خارجًا فتزاحموا حولها. رفعت ذمارها في هدوء. وبملامح تملؤها الإرادة وصوت قوي قالت:

. بعرق جبينك تأكل خبزًا. حتّى تعود إلى الأرض. فمنها أخذت لأنك تراب. وإلى التراب تعود.

ردّد الشيوخ وراءها آيات سفر التكوين وجنا الشياطين في إجلال ثم ساد الصمت. أردفت:

. مات فردخاي. فخر رجال حي دلتا. ابن رحمي. مات وهو يترجم توراتكم إلى لغة اليونانيين. مات كي تقرءوها. كي تعرفوا تاريخكم. كي تردّدوا مآثر أجدادكم وبطولاتهم. كي لا تنسوا يومًا أننا فخرنا ملكًا ظالمًا. كي لا تنسوا أننا هزمنا جيشه من البائدين. همج إيجيبب التي لا يستحقونها. مات كي لا تنسوا أن أرض الفيروز أرضكم التي ورثتموها عن





مُوسَى بوعد يهوه الأبدى، مات كي لا تنسوا أنكم من بنيتم المجد لتلك الأرض، فما أنتم إلا نسل إبراهيم المقدّس،  
النسل المختار، حملة التوراة، حملة شُعلة الربّ.

سكتت قدمعت الأعين وتردد النحيب في الصّدر، اتكأت على عصاتها ودخلت إلى بيتها ولم تغادره ثانية، حتّى ماتت  
بعد شهور قليلة.





حين أوى كاي إلى البيت كان مضطرباً ترتعش أطرافه. كان أسداً عرف صدره ببرائته فمزق القلب وأخرج الأحشاء، فليلتو كان يتقصي أثر ناديا في مزرعة آرام للمرة الثالثة. راقب المكان ساعات طويلة قبل أن يداهمه. تسلق السور الخشبي فوجد المنزل مهجوراً والكلاب فيه ترعى والقسط بلا صاحب. تفقد أواني الطعام المليئة بالتراب وأثار الأقدام الأدمية الوحيدة التي ترجع لخطوات آرام. «ناديا لم تدخل تلك المزرعة منذ رحلت معه. ناديا لم تعد إليها حين خرجت على كتف آرام من المستنقع. ربما هلكت ولم تصل إلى الإسكندرية؟ وربما قتلها؟ أو اختار لها منزلاً آخر تقضي فيه حياتها؟ أم أنها ركنت إليه واستسلمت؟ فأرام عاشق قد يهب لها ما لم استنطق الأمان. كيف لرتني أن تنفسا؟ كيف لمعدتي أن تهضم الطعام؟ بل كيف لروحي أن تستقر في أوصالي في الليل وأنا أعرف أن حبيبتني عادت إلى جلاذها؟ سننتهك. سنستحل مثلما استحللت إيجيب أمام جحافل الفرس واليونانيين. لن تنفعني الابتهالات فلم يعد فمي قادراً على ترديدها. ولم يعد عقلي يستطيع استدعاءها. فالعشق ثم الفقد قادران على قتل نور فني في البرية دون أن تمسه الوحوش. أيا إدريس. يا معلمي الأخير. ألا تشفع لي عند راعي السماء كي يخفف عني الحبل الذي يجثم على صدري؟ ألا تنزعها من قلبي ومن روحي ومن أفكاري؟ ألا ترجمني من لهفة وشغف وجزن وكمد؟ فموتها بات عندي أهون من أن أراها بصحبته. اللعنة على ابتلاء لم أظنه قصيبي. ابتلاء كنت أسخر منه في وجوه العباد. اللعنة على نفسي التي لم تعد ساكنة. نفسي العاجزة المضطربة. تعيش النهار لتفخر، وتقضي الليل لتتذكر ضوء القمر على شعرها. رعشة شفيتها في النهر والجسدين جسد واحد. وصوتها المبحوح وهي تنطق اسمي.»



وبكى كاي، بحرقة لم يعهدها في جوارحه، بكى كالطفل وتشتج، حتى أتت سيدة الدار العجوز؛ زوجة الرجل الذي انتشل ما تبقى منه بجانب المستنقع. كان عائداً في قافلة تجارة حين وجده ملقى، مغطى بالوحد ومنهوشاً بالجروح، وقف بالناقة قرب حثى استشعر نفساً في صدره فحملة ودخل به أطراف الإسكندرية الغربية حيث يقطن تجار الماشية، سجاه في سرير ووضع امرأته المراهم على جلده وحشت لحمه بالملح قبل أن يغرق في النوم لأيام بتأثير الحمى ولا ينطق لسانه سوى باسم ناديا، حتى تحسن بعد أيام وأفاق وكان أول ما سأل عنه البرديات التي انتزعوها من عليه، وحين أمسكت جروح فخذه عن النزيف قام كالممسوس، غاب ليوم كامل ليعود في الليل وفي وجهه أمارات الموت، يقضي ليله في الدعاء للزوجين العجوزين وقراءة متون الرحمة من أجلهم، ثم ينزوي في غرفة قبلية، ليتم ترجمته التي جرت عليه الويلات، ثم يأتي النهار فيعود لجولته بحثاً عن ناديا، متحقيقاً ملثماً برداء التجار، حتى سمع يوماً عن جنازة الكاهن الأعظم، سيواري التراب وقائله حر فختال يلقى التعاري فيه، ماذا عن لقاء أخير؟ يرسم فيه نهايته أو نهاية الكاهن الذي صرعه العشق قبل أنياب الكلب! خرج كاي في الليل وتمشى حتى بحيرة قريبة، جلس فسكن ثم قرأ السلام على سيدة الرمال، حارسة الملوك ساكنة التيجان، قضى ليلته في ترقب، وفي منتصف اليوم التالي أتاه خبر مردخاي، فلكهنة إيجيبس سحر يؤثر في تسخير التعارين، لا يخرج إلا لبشر البشر، ذهب بعدها فتقصى رحيق حبيبته في أركان الإسكندرية، حتى أنهكت قواه فعاد إلى برديانه، إلى موسى وهارون وبني إسرائيل، بني الملاعين، يخلط كاي هباب الأنية بصمغ السنتط ودموع يدرفها على فراق ناديا وابن محتمل في أحشائها، دموع لم تمنعه من استكمال ما بدأ، فقبيلة بني إسرائيل كانت تقضي ليلتها بجانب اليم، ملنقين حول النيران متلاصقين، الأعين تترقب والأذان تنصت، وموسى وهارون يمران بينهم ليربنا على كنف هذا ويثبنا قلب هذا، وتولت مريم أمر النساء والأطفال، تعني لهم وتحكي الحكايات السعيدة، حتى عاد الفتية مع بزوغ الفجر يحزّون خلفهم الإحباط والخيبة؛ لم يعثروا لفرعون على أثر، كأنه ثعبان صحراء دفن نفسه في الرمال، صاح موسى في القبيلة أن يستعدوا للسير شرقاً فرمجروا واستنكروا قبل أن يخطب فيهم هارون بأن الانتقام للراعي ولملك الجيبنيين من بعده، هز الشباب رءوسهم صاغرين وتهامس الشيوخ بصوت أرادوا أن يصل للأخوين: «لم لا تعود لهوارة وقد بتنا في كنف الملك الجيبتي؟ سيكون لنا الخطوة والعلو على القبائل»، ليجيبهم موسى: «هكذا أمر الرب»، ينظرون إليه ولعصاته ثم يتهامسون فيما بينهم،

تحركت القبيلة شرقاً لثلاثة أيام قبل أن تنزل قرب معبد حتحور الجيبتي، وضعوا الرحال في طريق العير وصعد



موسى هضبة المعبد بصدية بعض فتية القبيلة. وبينهم السامري بعدما التمس من هارون العفو فتوسط له عند أخيه الذي قبل اعتذاره، وشيخ القبيلة الذي أمر على مرافقة موسى ليضمن لنفسه مكاناً في زعامة تتخلل تحت قدميه.

حين وصلوا المعبد قرع موسى الباب، طلب من الكهنة المؤمن بعدما حكى لهم ما كان من أمر هوارّة وملكها. نظر الكهنة في خطوط كفه اليمنى حتى وجدوا علامات النجوم فضربت البشرى وجوههم فقبلوا جبينه وأكرموا زيارته، وزودوه بمؤن تكفي قومه عشرة أيام. كانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها أفراد من بني إسرائيل معبداً جيبتيًا، هالتهم التماثيل والأعمدة. وأدهشتهم البحيرة المقدسة وأرباء الكهنة، قبل أن يرحلوا، حاملين زادهم عبر الطريق الوعر، التحموا بقومهم ثم تحركوا شرقاً. يقصون لأقرانهم عجائب المعبد الجيبتي والتماثيل التي شاهدوها، قبل أن يقترب الفتى السامري من موسى مشى وراءه حتى أشار له موسى أن يقترب، في خشوع قال:

لقد عرف الكهنة الجيبتيون سيدي من خطوط كفه!

لهم في قراءة الكفوف خبرة، وعين بصيرة لا تراها الأعين.

وأشار موسى لمنتصف جبينه. ضربت الدهشة ملامح السامري فأردف:

هل إلههم كإلهنا؟

الزاعي واحد، وهم أول من عرفوه على يد نبي مثلي يدعى إدريس.

لم لا يكون لنا إله مثلهم؟

ماذا تقصد؟

التماثيل: حين تدرك الأعين إلهها تتودد إليه وتزداد يقيناً.

يا فتى ماذا كنت تعمل في هوارّة؟



.أنحت التماثيل.

ضحك موسى:

.الآن قهمت، أصغ، إن ما بصرته من تماثيل مجنحة لبشر وبعضها ذات رؤوس حيوانات إنما نُحِتت لتبجيل وتوقير النورانيين، يُسميهم الجيتيون «نيثرو» أي الملائكة، حملة العرش، أعوان الراعي، جنود السماء المحاربين.

.هل يراهم الجيتيون ولا نراهم؟

.لا تراهم إلا القلوب المضيئة، وذكرت أوصافهم في صفح «سر الملكوت» لنبي الجيتيين إدريس.

.وهل يحتاج الراعي لأعوان وهو خالق كل شيء؟

.هو خالق الأعوان أيضاً، يعهد إليهم بالمهام التي لا يقوم بها الإله، فهو مُحارب للبشر خافض للعدالة في الأرض، وللنجوم في أفلاكها، فكل ملاك مسئول عن نجم في السماء، ووسيط بين الرب والبشر.

.مثلك ومثل هارون أخيك؟

.شيء مثل ذلك، لكن هارون إنسان وأنا إنسان.

.وماذا عن تماثيل العجل والهلال المائل بين قزنيه؟ اليس ذلك برب صحراء؟

.يا أحمق، إن تماثيل العجل ما هو إلا تبجيل لقدرة الإله في هذا المخلوق، تكريماً لبهيمة هي مصدر الخير ليس إلا، مثل تماثيل الجعران؛ تبجيل لقدرة الخالق في البعث.

.لكنهم يقدمون لها القرابين؟

.بل يضع الناس الطعام والشراب أمام الراعي ليذهب للفقراء فيعرف الخير فيهم.

.ألا يعرف؟





. ألا تصمت؟

. الأسئلة تخبش جبهتي وتجثم على صدري.

. الصبر من الفضائل.

. لم لا يكلمنا فنراه؟

. ألا تكفيك آياته؟

. بلى ولكن... القوم يريدون أن يروا خالقهم.

. الخالق لا يرى بالعين.

. لنجعل له جسدا إذن فيحل فيه ويكلمنا.

. لا تنطق تلك الكلمات فأنت لن تفهم حكمة الجبتيين.

. وما الفارق بيننا وبينهم؟

. إنهم ملكوا العلم وعرفوا الإله وتطهروا من الجهل والدنس.

حين وصلت القبيلة إلى الشطر الأيمن لجبل الطور أمرهم موسى بالمكوث وضرب الخيام، سألوه ماذا يأكلون فأجابهم بأن الراعي قد سخر لهم المن، مادة لرجة حلوة المذاق تفرزها شجرة الأثل، والسلوى، طيراً مهاجراً طري اللحم.

. كلوا قدر حاجتكم ولا تخرنوا، فستأتيكم عطايا الراعي في كل يوم.

تركهم يحصرون الشجر الذي انساب منه المن، والسلوى الذي هبط على الأرض فالتقطه الفتية دون مجهود، قبل أن يقرأ الشك في أعين الشيوخ، نادى هارون:





. سأعهد إليك بالقبيلة وأصعد إلى الجبل.

. لم لا تنتظر حتى تستقر النفوس؟

. لقد أمرني الراعي بالخلوة فور ما أستطيع.

. كم ستغيب؟

. ثلاثين ليلة.

. يا ابن أم هل تظنهم سيصدعون لأوامري دونك كل ذلك الزمن؟

. أنت منهم، يصدقونك.

. دون العصا ودونك يستذنبون.

. لا أظن بعد انشقاق البحر يعصون لنا أمراً.

. إنما أخذني الشيوخ، قلوبهم مغلفة بالحقد، يترصون بنا ويهمسون بالمكر ليسترجعوا مكانتهم.

. هؤلاء الحمقى! منذ أيام كانوا يعيشون في خرائب، الآن يبحثون عن مكانتهم؟

. الطموح يقتل صاحبه.

. إنهم في حضن الجبل، قبائل الشرق أمامهم وجند الجيبتيين من خلفهم، أين تظنهم سيظمحون؟

. احتضنه هارون وقبّل جبينه وهم موسى بالصعود حين اقترب الفتى السامري.

. سيدي، دعني أكن خادمك المطيع.

. غداً يا فتى من حيث أتيت.



سأحمل متاعك وسأسجد حين أرى إلهك، لتشملني بركته.

إن كنت سأصحب أحداً من القبيلة فسيكون أخي هارون.

هناك صوت يناديني من فوق الجبل، أكاد أجيئه، اجعلني خادمك، سأضع يدي في كل حجر حتى لا يلدغك ثعبان، أتوسل إليك.

بل كن بين قومك عوناً ولأخي هارون سنداً حتى أعود.

وإن لم تعد؟

رمقه موسى في صمت فاستدرك السامري.

إن أثرت الراعي علينا أو منعك من العودة؟

دع الأمر للخالق.

قالها هارون فلهز موسى رأسه ثم صعد الصخر يستند عصاه، حتى اختفى.

في الأيام الأولى انشغل الناس بملء تطولهم بالسلوى، يلتقطه الفتية بلا مجهود فيديحونه، ويجمعون المن من الشجر في السلال، يغمسونه في البتاو الذي حملوه من معبد حتحور، ويشربون ماء مطر من غمام يظللهم ولا يخاد يتحرك. بعد أيام ضربهم الملل والفتور، ينظرون للجبل نهاراً مترقبين عودة رسول الراعي، وفي الليل يلتفون حول النار مستدفئين مستأنسين قبل أن يضرب أحدهم الدف وينفخ آخر في الناي فيرقصون ويلهون حتى تخمد قوتهم، فيأووا إلى الكهوف وثنايا الصخور فيعتلون بعضهم بعضاً، شهوة وخوفاً، حتى يأتي الفجر.

في اليوم الواحد والثلاثين ارتفع صوت:

لم يهبط من السلوى اليوم إلا أفراخ معدودة؟ ما البديل إن كفت عن الزيارة ونحن بلا أقواس نصطاد بها أو



ماشية نرعاهما؟ وقد أمرنا بعدم التخزين!

قال هارون بهدوء:

.نحن في كفالة الراعي، لن نصيغنا.

ساد الصمت لدقائق قبل أن يقول قائل:

.ألسنا في اليوم الواحد والثلاثين لصعود موسى؟

رمق هارون صاحب الصوت ثم نظر للجبل الصامت وقال:

.بلى.

.أخشى أن يكون قد أصابه مكروه وقد طال به الأمد.

.ومن يخشى ضحية الراعي؟

.أين موسى إذن؟

لم يجب هارون فقال صوت:

.لم منعنا من صعود الجبل ورؤية الإله؟

.الراعي لم يأمر بالزيارة، وهو حاضر بيننا يرانا ويسمعنا.

.لكننا لا نراه؟

.ولا ترون الهواء كذلك، لكنكم ترون أثره. فقد أرسل إليكم الآيات وأيدكم، ونصركم على فرعون.

.وها هو فرعون قد فر من بين أيديكم!



سَرَتِ الهمهمات فالتفت هارون للصخرة التي رَفَعَ السَّامِرِي صَوْتَهُ مِنْ فَوْقِهَا:

.أَتُظَنُّونَهَا صَدَقَةٌ أَنْ يَغُرَّ مِنْكُمْ بَعْدَ مَا عَصَيْتُمُ الرَّاعِي؟ لَقَدْ نَجَا أَنْ صَدُورَكُمْ تَحْمِلُ الدَّنَسَ وَالْقَاذُورَاتِ.

سَادَ الصَّمْتُ وَوَقَّفَ هَارُونُ يَتَأَمَّلُ السَّامِرِي الَّذِي أَرْدَفَ:

.أَتَعْرِفُونَ لِمَ لَمْ يَهَيِّطِ الرَّسُولُ؟

.انْزِلْ عَنِ الصَّخْرَةِ يَا فَتَى؟

صَاحَ هَارُونُ:

أَرْدَفَ السَّامِرِي كَأَن لَمْ يَسْمَعْهُ:

.لَأَنَّ الرَّاعِي يَأْبَى رُؤْيَتَكُمْ، فَأَنْتُمْ لَمْ تُبْجِلُوهُ كَمَا يُبْجَلُ الْجَيْبَتِيُّونَ رُسُلَهُ وَمَلَائِكَتَهُ.

ارْتَفَعَ صَوْتُ:

.هَذَا نَفْعَلُ؟

.رَسُولُكُمْ لَنْ يَهَيِّطَ الْجِبَلَ إِلَّا إِذَا تَطَهَّرْنَا مِنَ الدَّنَسِ، حِينَئِذٍ نَتَلَقَى حِكْمَةً وَعِلْمَ السَّابِقِينَ، الْجَيْبَتِيِّينَ.

هَزَّتْ بَعْضُ الرُّءُوسِ وَاشْتَرَأَتِ أَعْنَاقُ الشُّيُوخِ فِي تَرْقُبٍ، يَصْغَوْنَ لَصَوْتِ مُحِبِّبٍ إِلَى قُلُوبِهِمْ: صَوْتُ الصَّدْعِ.

اقْتَرَبَ هَارُونُ فَصَعِدَ الصَّخْرَةَ بِجَانِبِ الْفَتَى السَّامِرِي

. يَا قَوْمَ، تِلْكَ بَذُورُ الْفَرْقَةِ وَالْعَصِيَانِ تَأْتِيَكُمْ مِنْ فَمٍ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ الرَّاعِي شَيْئًا. لَقَدْ أَمَرْنَا بِالْمَكُوثِ وَالسَّكُونِ

وَلَمْ نُؤْمَرْ بِالسُّؤَالِ.

رَفَعَ السَّامِرِي صَوْتَهُ:

.إِلَى مَتَى؟



.لحين يأذن الراعي ويعود موسى.

.ثلاثون يومًا لا ندري عنه خبرًا، ولا يجرؤ أحد على الصعود خلفه، ما يدرينا إن كان قد مات أو صعد إلى بيت الراعي أو...

قاطععه هارون:

.إن أخي في عناية الراعي، لا يظلمه ولا يقتله، إن تأخر فلحكمة سنعلمها حين يهبط.

.وإن لم يهبط؟

ابتلع هارون ريقه:

.سأتولى أمركم.

.بلا عصا؟ بلا علامات؟

.لم نعد بحاجة إليها.

.لم لم تصاحبه في صعوده؟

.أمرني أن أكون فيكم.

.أم أنك لا ترقى لرؤية الراعي؟

نظر القوم لهارون في ترقب، قال:

.لا يسأل عما يفعل وتسالون عما تفعلون.

ارتفع صوت:

.موسى لن يعود.



وقال آخر:

.لقد غضب الرب علينا فتركنا.

رفع هارون صوته:

. ماذا تقولون، أنسيت أعينكم البحر المشقوق والتعيان المبين؟ أنسيت قلوبكم الإيمان بالراعي؟

قفز السامري من فوق الصخرة فمشى بين الناس يلامس أكتافهم:

. يا قوم، إن الراعي اختصنا من دون القبائل، بل من دون البشر، شق لنا بحراً وأغرق عدواً، وظلل رعوسنا بالغيام وأنزل إلينا المن والسلوى، ألا نطهر أنفسنا ونتخلص من الأورار التي حملناها من المصر لعله يتجلى لنا كما تجلى لموسى عند الشجرة؟ لنسترضيه ونجعله، نصنع من خطايانا جسداً تتجلى فيه روح الراعي، لنحرق الطعام قرباناً بين قدميه فيرضى عنا ويرد لنا موسى وتنهياً أجسادنا لرؤية الخالق.

. ماذا تقولون؟ لقد شق الراعي البحر لأن عدوكم فعل ما فعل أبائكم الأولون، ثم ظنلكم بالغيام وأغدق عليكم من الخيرات لتحملوا رسالته، لتحملوا ما سيهبط به موسى من ذلك الجبل.

.لقد قال موسى إن الجبتيين لم يعرفوا الإله إلا حين تطهروا من الجهل والدنس.

. ما بالك تفتأ تذكر الجبتيين؟ هؤلاء قوم نزل عليهم رسول من قبل، ثمائيلهم ليست الهة هؤلاء شعب عرفوا الراعي قبل أن توجدوا، لهم شأنهم ولكم شأنكم.

صرخ السامري:

. نحن أولى بالإله منهم، نحن قبيلة الراعي الأثيرة. إن تجلى لأحد فلن يتجلى إلا لنا.

استحسن الأذان ما سمعت فسرت همهمات ضاع فيها صوت هارون. رفع السامري صوته:

. من يرغب عن التطهر فليلزم جانب هارون. ومن أراد الخلاص فليضع خلي القبائل والأساور وما كان على الجند





من زينة في تلك الحفرة.

اقتربت مريم من هارون وقد حاوطه بعض الفتية يريدون به إيذاء:

. ماذا تفعلون؟ تريدون أن تقتلوا من تربى بينكم؟ رسول الراعي إليكم، العار في وجوهكم، العار في أولادكم.

انسحب هارون إلى طرف الجبل بعدما قذف بحجر من مجهول فشق جبهته وأسال دمه، تبعه من القوم فئة قليلة ليس من بينهم الشيوخ الذين كانوا أول الملتفين حول الفتى السامري. حين هدأت الجلبة سال التابعون عما يجب أن يكون قاتر هارون انتظار أخيه عن بث الفرقة بين القبيلة حتى لا يقضوا على بعضهم البعض بلا عدو، قضى ليله في مراقبة الجبل ومناجاة الراعي. وفي النهار يتابع القوم يتحركون بين يدي الفتى السامري كأنهم ذمي من القش. جمعوا الحلي الذهبية والبرنية في حفرة كبيرة. صهروها تحت نار عظيمة اشتعلت ليلتين متتاليتين حتى لابت المعادن وسالت فصبتها السامري في قالب مُحكم تحته من القدور على شكل عجل. حتى إذا بردت المعادن أزال السامري القالب وعمل عليه طرقاً وحفرًا لثلاثة أيام حتى بدت الملامح: أذنان، عينان من الفيروز، وأنف ثقبه كالناي وأنفه لمؤخرة العجل قدخله الهواء والنف محدثاً صوتاً يشبه الخوار، ما إن سمعه التابعون حتى هلعوا فرقع السامري صوته.

. لقد حل الراعي في الجسد، تجلى لكم من دون القبائل وأترككم.

خروا سجداً فالتفت السامري لعجله وسط دهشة هارون وتابعيه ورفع يديه متضرعاً:

. يا إله الآلهة، ألقينا أوزارنا في جوفك وسجدنا أمامك خطاة، لتظهرنا، وتعيد إلينا موسى، رسولك، أو تحلل روحه في جسدي فأتكلم بقمك وأسير بقدميك. سأريق الدم من أجلك وأحرق اللحم، وسأطعن بقرونك من يابون هبتك.

قالها وهو ينظر لهارون وأتباعه ثم أمسك بعضو العجل المتدلي:

. مَرَحِي لفحولتك، لتهبنا الهيمنة على القبائل وتؤثرنا عنهم. لتكن لنا العظمة والسّم، لتكن المختارين دائماً.



وأبدأ، فما شققت البحر من أجل أحد من قبلنا.

صرخت مريم في شيخ القبيلة:

. يا كبير القبيلة! أتذكر الراعي بعد أن جاءكم موسى بالآيات؟ تعبد عجلًا لا حول له ولا قوة؟

نظر إليها الشيخ ثم أشاح بوجهه تجاه عجله كأن لم يسمعها وأردف السامري:

. خوار الخلول لا يسمعه إلا المؤمنون.

جذب هارون عضد أخته فهمس:

. لا طائل من كلماتك إلا الفرقة والاختلاف.

. ألا ترى ما يفعلون؟

. هؤلاء هم بنو إسرائيل الذين تربينا بينهم. خراف جشعة لا عقل لها. ما خانوا ليخرجوا من الخرائب دون عصا.

لعمري أراهم يفتاتون الربا ويمتصون زهونات الفقراء كالحفايفش. لا أشفق إلا على موسى حين يعود.

. أخوك لم يهبط الجبل منذ أربعة وثلاثين يومًا! أخشى أن يكون أحدهم قد نسلل إلى خلوته فقتله في غفلة

منا.

. ما كان الراعي ليترك موسى قريسة للمضلين.

. اصعد إليه.

. لم يوح إليّ الراعي أو يأتني المتنام.

. هل سنتركهم؟

. حتى يعود موسى.



وإذا لم يَعد؟

نظر إليها هارون ولم يعقب، كان ذلك حين رفع السامري يديه وصوته:

أيها الرب، إن كان موسى حيًّا فأعدّه إلينا، وإن لم يكن، فلترسل إلينا علامة، ولتسر أماننا فترشدنا إلى مصيرنا.  
أرض أبنائك و...

لم يكد ينهي كلماته حتَّى صدرت من الشرق فرقعة مدوية وتساوى بالأرض جيل كان شامخًا، في طرفة عين،  
محدثًا باندكاه رعدة أرضية لم ير لها مثيلًا من قبل سارت تحت القوم في موجة رفعتهم عن الأرض وأوقعتهم  
فزعين، قبل أن يتعد الصدق عن الأذان قام السامري بوجه هربت الدماء منه، رفع يديه عاليًا وجثا أمام العجل:  
المجد لك ولفحولتك، يا مجامع الأرض، يا واطئ السماء.

ثم التفت للناس:

لقد قال الراعي كلمته، مات صاحب الثعبان. مضى زمنه وأتى زمن صاحب العجل، هلمّوا، هلمّوا يا بني إسرائيل،  
أتريدون علامة أكبر من ذلك؟ لقد انشق البحر لموسى ودك الجبل لأجلي، من أراد السلامة فليتبعلني.

قام هارون يساند مريم.

ما الذي يحدث يا هارون؟

إنه هذا لشيء عَجاب، شيء يحدث لأخيك يا مريم.

ما كاد يتم هارون كلمته حتَّى خر نصف الواقفين من أتباعه سجدًا لعجل السامري الذي اقترب منه شيوخ  
القبائل يتبركون بلامسته وينظرون لهارون ورهطه الباقين باستعلاء.

اندكاك الجبل لن يزيد هذا الملعون إلا أنصارًا.

لا نملك إلا الانتظار.



في الأيام التالية انعزل هارون وجماعته في ركن بجوار الطريق الهابط من الجبل، يتحملون نظرات السخرية وصبر انتظار الغائب، محفوقين بالخطر مرصودين من جماعة السامري، يحيطون بهارون ومريم في نوبات حراسة بعد أن تعدى فتى ملثم من القبيلة على هارون قاصداً قتله لولا أن صدوه، أما العجل فبات مزاراً للمريدين: يطوفون حوله ويرقصون، ثم يحرقون تحته الطيور والأعشاب التي يجمعونها، ويتمسحون بالفتى السامري الذي يتكلم بكلمات موسى ويرسم لهم طريقهم، قبل أن يجذب الخرقه التي تسد أنف العجل فيجري الهواء في منخاره ليؤمن على كلماته بخوار عجيب يتردد صداه في الأجواء فيخر القوم على وجوههم سجداً ويبتهلون، ثم يشعلون النار ويتوددون للقمم أن ينصرهم، في اليوم الأربعين لغياب موسى التقط هارون صوت خطوات تدب على الصخر، ثلاث خطوات، قدمين وعصا، قام متحفزاً جاحظ العينين ففرغ من حوله، التقط شعلة نار وأتجه ناحية الطريق الهابط حين لمح قدمي أخيه، نحيفتين تدبان على الأرض في حزم، رفع الشعلة فأبصر العصا والأواح حجيرة يحملها بين يديه، ثم نظر في الوجه، فقد الكثير من لحمه فبرزت عظامه وإن امتلاً بدموية الغضب، كاد قلب هارون أن يقفز من صدره، ركض إلى أخيه حتى كاد يقع قبل أن يفتح ذراعيه احتضاناً:

. أين كنت يا ابن أم؟

ألقي موسى عصاه والألواح ومد خطواته حتى قبض على لحيه هارون وأحاط عنقه بذراعيه، ذهل الجمع الشليلون قبل أن يستيقظ الناس تبعاً فيجتمعوا:

. أعصيت أمري يا هارون؟ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا؟

جاهد هارون ليسحب نفساً إلى رتيته:

. يا ابن أم! لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرق هارون بين بني إسرائيل ولم يرقب قولي.

. يا ليتك فرقت، لقد أتاني الأمر وأنا بين يدي ربي فكدت ألقى بنفسي من فوق الجبل غضباً.

ركضت مريم فاستمسكت بعصا موسى:



. يا موسى، إن أخاك كاد يقتل في انتظارك.

أردف هارون:

. إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بنا أتباع السامري.

نظر موسى لمريم وللقوم المتجمعين قبل أن يزفر غضبه ويحرر رأس هارون:

. أين السامري؟

أشار هارون إلى العجل فشق موسى الطريق نحوه. مشى بين وجوه ضربها الوحل وأجساد ترتعش، يفسحون له ثم يسجدون في نحيب وندم. مقطوعي الأنفاس لا يقدرون على المهمة. ينظرون لغائب عاد من العدم، غائب ظنوه مات أو قُتل، أو ضل طريقه بين السحاب.

حين أصبح موسى أمام العجل توقف وتأمله. النار كانت تزيد جسده لمعة وبرقا. نظر للقوم من حوله شرراً فتراجعوا في دائرة تنسع قبل أن يصعد لمنصة العجل وينظر في وجهه المحفور وأنه الذي يصدر الخوار، ثم رفع أصبعين فسد الثقبين ليسكت الصوت فنأدى:

. اخرج يا سامري...

تردد الصدى في الجبال فخرج الفتى من وراء صخرة. شاحب اللون جاحظ العينين مُتهدج الأنفاس. ركض فاعتلى منصة العجل وسجد بين قدمي موسى:

. سيدي، كدنا نياس من عودتك، لقد عكفت تحت قدمي الإله لأبتهل علك تعود...

. أنت من صنعت ذلك الوهم؟

. أتاني الرب في المنام فأمرني...

قبل أن يكمل السامري كلمته صفعه موسى.





. كاذب.

سقط الفتى أرضاً فأمسك موسى بتلابيبه:

. أصددَ الجبل لأقارب ربي فتصنع لهؤلاء العميان صنماً! كيف تجرؤ؟

. لقد سألته عنك فأعطي العلامة بأنك قد مت.

. سألت من؟ العجل؟ أيها المضل، كيف سوّلت لك نفسك؟

. بصرت بما لم يبصر به القوم.

سكنت الرياح والأنفاس واشرايت الأعناق حول المنصة.

. بصرت بماذا؟

. بالوسيط.

. أي وسيط تقصد؟

. رأيتك تكلم الفراغ في طرف الجبل ونتمنم بالهمسات قبل أن تصعد. فأدركت أنه حاضر: النيشر. الملاك النوراني.  
نور تلالاً من حولك ما لبث أن طار بجناحيه في السماء. حين رحلت ذهبت إلى حيث كنتما مجتمعين فأخذت  
قبضة من الرمال التي وطنتها قدماه وألقيتها في قدر الخلي السائلة فوق النار. ليتجلى الملاك في العجل كما  
تجلى للجيبتيين في معابدهم.

نظر موسى لعيني السامري اللتين لمعتا ببريق الجنون:

. أنت فاسد العقل. لقد أوحى لي الرب صعود الجبل ولم يرسل ملائكته.

. ها أنت تقول ملائكته. ما يدريك أن الرب لم يبعثني مثلك؟ صدّقناك حين أتتك العلامات.





. تعبد صنماً نحتته يدك وتدعي النبوة؟

التفت موسى للناس:

. ذلك الفتى تطلع إلى قوم نزلت عليهم رسل السماء فأضاعت طريقهم قبل أن توجدوا، قوم بنوا أهراماً ومعابد لتقديس الرب وملائكته، قوم نزل فيهم «إدريس». أغرتكم الآيات التي نصرتكم أم عميت نفوسكم؟  
تضلون بعد أن انشقق لكم بحر وغرق جند الطاغية أمام أعينكم؟

ارتفع صوت:

. لكن السامري أتاناً بعلامة، اندك الجبل كأن لم يكن.

ضرب موسى جبهته:

. تلك العلامة لم تكن لكم، فقد طلبت من الرب رؤيته، تحلى للجبل فلم يتحمل ظهوره. اندك من فوره فضعفت، وقعت على الأرض لساعات لا أستطيع قياماً من هول ما رأيت.

سكت موسى وقد جحظت عيناه وتهدجت أنفاسه قبل أن ينظر لشيوخ القبيلة:

. لا أظنكم آمنتم بذلك العجل، أعينكم تفصحكم، إنما أعنتم ذلك الأحقق ونصرتموه للاستعادة ما كان لكم من خطوة، أن تخونوا القبيلة وتخدعوا الأغراء فيها ليعودوا تحت إمرتكم خير من أن تخونوا الرب، ما لكم تنظرون إليّ كأنني أقول شيئاً ليس فيكم؟ نعم، إنما اتبعتم ذلك الغرير لأن ما أتى به يتبع أهواءكم.

. لست بغرير، لقد رأيت النور الذي تراه، هو من أمرني بالتطهر وسبك الخطايا.

. ما رأيت إلا شيطان نفسك، هباً لك الخفر بالرب.

. إن أراد الرب بنا خيراً فلم لم يمنعني؟ لم لا يدمر ما صنعت؟

. ليختبر نفوسكم يا حمقى، وقد سقط أكثركم، فالرب يريد ليفرز من يستحق العهد ممن لا يستحق، إن الذين



اتخذوا العجل إلهاً سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة. كذلك يجزي المفترين.

ثم التفت موسى للسامري.

. أما أنت فلا مكان لك هنا، اغرب عن وجهي.

نظر الفتى السامري للناس ولموسى في غضب:

. لا بأس، فساكن العجل سينصرني.

. ستلازمك الوحدة واليد طوال حياتك، ستتوه روحك وتخبطك الأحيلة حتى تمنى الموت. سيهلك جسدك لتقابل الرب فيأجرك بما فعلت. ولكن لن تغادربا حتى تنظر إلهك الذي صنعت. لتحرقة ونسحقه فنذرته في اليوم أمام عينيك.

قالها موسى ثم دفع العجل بقدمه فأسقطه على الأرض.

لم يسكت عن موسى الغضب حتى صهر العجل في الأتون الذي سبك فيه. قبل أن يدق المعدن حتى فثته قطعاً صغيرة ونثره في اليوم. ثم أمر شيوخ القبيلة قبل الفتية أن يشربوا منه ويعبوا وكاد أن يغرق أحدهم في فورة غضب. أما السامري فراقب ما يحدث بصدمة قبل أن يهرب ركضاً أمام أعين القوم حتى غلفه الظلام.

تلك الليلة لم يزر موسى النوم. الشمس صفافة كالتي قابل الرب فيها أول مرة. استند الجذع واحتضن الألواح ينظفها ويمسحها نادماً على إلقائها على الأرض. يتطلع للفجر الذي ينبلج بعينين حاضيتين لا ترمشان. تتردد بداخله آخر كلمات الملك الجيبتي. «كتب سحناً لرحلتك. منذ بعثت وحتى تموت. وانت من عليها شخصاً تعرفه. فأعين قومك لا تحمل الخير».

«صدقت».

زفرها موسى ثم نظر للأغصان المتدلية حوله كالستائر فرفع يده. لامس إحداها فسرت بداخله رعشة يتذكرها. رعشة لمس النور. أغمض عينيه حتى أصبح والغصن جسداً واحداً ثم همس:



اغفر لي غضبي وإلقائي الألواح، لقد أوكلتني نفوساً خائفة، ذليلاً عن رضا، فارغة من روحك، لا تترك إلا إلى طين الأرض، كيف سيحملون كلماتك إلى الأمم وهم للإيثار أبعد؟ كيف ستتلقى تلك القلوب حكمتك؟

سكت موسى فداعب النسيم وجهه ثم وقع في قلبه الصوت:

إنني أعلم ما لا تعلم.

هز موسى رأسه مؤمناً:

الجلال لك يا علي يا حكيم، سأسير كما أمرتني، وسأبلغ حكمتك، لنضمن لي طريقاً لعل روحي تمضي إلى أرض الأبدية والخلود، لنحفظنا من الشر ونغمرنا بعنايتك، ولنأذن لي أن أتبع ما قال الملك الجبتي فأدون سجلاً بأيامي فأحفظ سيرتي لأمم تستحق من أحفاد بني إسرائيل، أو من غيرهم.

لا يدري كم من الوقت مر قبل أن يخرج من رذائه قلم البوص وحفنة من بودرة النيلة الزرقاء، بللها بمياه الصفصافه وغمس البوص:

أنا موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم متبع مله إدريس الحنيفة، أكتب ذلك الكتاب في العام ٤٨٩٣ من التوقيت التحوطي بالجانب الشرقي لليم بأرض الفيروز...

ظننتك ستقتل الفتى بعد أن كدت لتردينني!

التفت موسى فوجد هارون جالساً القرفصاء يراقبه.

إن كنت تلقيت الخبر من فم العلي في صمت الجبل لذبحته قبل أن يتكلم.

وليم لم تفعل؟

من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لا إكراه، هكذا قال ربك.

وماذا عن الذين اتبعوا الفتى وعبدوا العجل وقد أمرتهم بقتل أنفسهم؟



. ذلك حكم الغضب، سيعرضون على الرب فيقضي فيهم ما هو قاض، ولتغفر لي أخذي برأسك يا أخي.

هز هارون رأسه ثم جلس بجانب موسى مستنداً إلى الجذع:

. لا عليك، لقد اعتدت طبعك يا مضطرب المزاج، ماذا تكتب؟

. سجلًا بأيامي.

. دهش هارون:

. سجل؟ لماذا؟

. أعين القوم تفضح الغدر فيهم، وأخشى أن يأتي يوم يسكنون فيه معبوداً من دون الرب ليكتب باسمي

واسمك كتاباً يقدسونه.

. لكننا وحيدان بينهم!

. ليحفظه الأطول عمراً فينا.

. وحين يموت؟

. إن لم نجد من نثق فيه يوماً فنحن هالكان.

. ضرب الصمت الأخوين قبل أن يسأل هارون:

. ماذا حدث فوق الجبل؟

. في القمة أرض مقعرة تمتلئ بالأمطار، في وسطها صفافة أكبر من تلك التي نجلس تحتها وأعزر أوراقا

وأغصانا، أدركتها ليلاً وكانت تشع بنور فيروزي يتموج، دخلت في ستائرنا وجثوت في المياه خاشعاً، حتى تكلم

ربي، أمرني بالصيام إلا من مياه الشجرة وأوراقها، وأمرني بالصبر، والصمت. قضيت الأيام في داخلها لا أخرج ولا



أقضي حاجتي، فلم أشعر بحاجة، حتى مَحَى الفرق بين اليقظة والنوم، بين النهار والليل، بين الحياة والموت، شعرت في لحظات أن لا حاجة لي في التنفس أو الطعام، أو رؤية من البشر أحد، حتى أبنائي، لم أذكرهم، ثم بدأت عيناى تُدركان الأطياف النورانية: الملائكة: النيثرو الذين كنت أراهم مُجسدين في معبد «أون»، لهم رءوس كراءوس الطيور والأسود وأجنحة هائلة، يأتون في كل يوم ويجثون عند الشجرة، يبتهلون ويسبحون فأصبح معهم في عقلي، كنت أرتعد ثم ينساب بداخلي سلام عجيب واطمئنان، حتى تقدم أحدهم يوماً وكان له رأس كراس «أبو منجل»، وضع تلك الألواح أمامي ثم رفع كفه فاخترقت صدري، لم أشعر بشيء، فقط برودة منعشة ثم نور مبهر غشي عيني قبل أن أفيق مُستلقياً على جانبي تحت الشجرة وقد حفظ قلبي ما فيها من أوامر وقوانين، كان ذلك ليلاً، ثم بدأت الشجرة تنبض بالنور وتلألأ فسجدت ووقع في صدري الصوت، طلب مني أن أبلغ القوم الحكمة والوصايا ثم سألتني عن تعجلي الصعود فأجبتته بأنى تركتهم في أثري مطمئنين وعجلت إليك رب لترضى، فقال لي إنه اخبر القوم وقتنهم لكى يعلم من المخلص ومن الخائن، وأسر لي باسم الفتى السامري فلم أتمالك روحي، حملت الألواح ونزلت الجبل قفزاً حتى كدت أكسر ساقى، وها أنا أمامك.

. يا لها من رحلة اشتقت أن أكون معك.

. كان على الصبور الحكيم أن يبقى.

ابنسم هارون:

. ما الذي أظال بك الأمد حتى أربعين يوماً؟

. الأسئلة، فأخوك لا يكف عن الأسئلة، تكلمت فكسرت صومي فأراد ربي أن أستمر حتى أبلغ الصفاء الكامل.

. وماذا بعد؟

. سنبلي القوم ما جاءنا من الرب، سيكون علي قراءة الألواح وسيكون عليك تعليمهم العبادة وإقامة

مناسكهم، أما الآن فأمرهم بشد الرجال استعداداً للاتجاه شرقاً.







لا خوف يعلو فوق خوفه هارب.

فاقد للدهن مشوش الذهن يارق البصر يركض ويتلفت. كأرب بانس تطارده فهد، الجلد أحرقته الشمس،  
والقدمان مجروحتان متقرحتان من خواف الصحور. في الرنتين سعال دموي وفي الفم قيح وفي العينين، ينقي  
بسيفه الجوارح من الطيور والأسد والضبع والذئب والحيّة. والفنية المتربصون. لا يراهم لكنه يسمع همساتهم  
في رأسه. أو هكذا يخيل إليه، فيقوم من خلف صخرة أو من داخل حجر ليركض فرعاً. بلا توقف، يهتات في طريقه  
العشب والنفتران والحيات. ويشرب من بواقي المياه في الشقوق. ثم يدركه التعب فيخر على ظهره قبل أن تبدأ  
الضحكات في مهاجمته حتى ينقطع نفسه ويزف دماً قبيحاً على لساعات لا يحصيها، يرى فيها من  
الهواجس ما يوقظه فرعاً، قبل أن يواصل الركض.

اتخذ الأمر منه ليالي طوالاً حتى بلغ الوادي فالجبل. جبل ثمود بمرتة فاران. لم تتغير معالمه رغم السنين. الصخر  
الأحمر، الفجوات التي يخافها الصغار، والرياح التي تتخللها فنصرخ في الصدور بالفرع. فلتت منه ضحكة حين  
تذكر نفسه طفلاً صغيراً يسكنه الخوف. قبل أن يركض بما تبقى له من قوة غير مهال بجروح جديدة تشق جلده  
وصبية يراقبونه، حتى بلغ السفح الذي طالما نهي عن اللعب قربه. جثا على ركبتيه ملتقطاً أنفاسه رافعاً عينيه  
للجبل، سعل بحشجة شديدة ثم قام فتشبث بالصخر وبدأ الصعود. لنفس الفجوة التي صعد إليها غلاماً.  
تعثر فسقط، تأوه ثم قام، صعد ثانية فسقط. ثم تجح في الصعود ثالثة. استوى على أرض الفجوة يسعل في





نزيف كاد يغرق في دمائه، حتى التقط أنفاسه، زحف فبحث في الصخر عن اسمه الذي حفره بسكين قبل خمسة وخمسين عامًا حتى وجده مضموسًا، أزال التراب عنه بطرف سيفه وأكد الحفر، ثم جلس فارحًا قدميه، ينظر في ظلام الفجوة ويتمتم لأول مرة منذ أربعين يومًا:

«إن كنت موجودًا فأصدر صوتًا، قل شيئًا، تذمر، هز جيلك بغضب، أو، اقبضني».

الذين عثروا على جسده في الفجوة كانوا صبية صغارًا رأوه يتسلق فتتبعوه، انتزعوا سيفه، والحلقات النحاسية التي صَفَرها في لحيته وخاتمًا ذهبيًا عليه نقش لرأس عجل له قرنَان، لمّا شوهد في يد غلام صعد أبوه والرجال إلى الفجوة فوجدوا الجسد دافئًا والنفس ضعيفًا والقمم يترفع، حملوه إلى دار حكيم القرية فتعرفه بعض الشيوخ ممن لعبوا معه صبيًا، لبث في الدار لثلاثة أيام لا يستجيب جسده لعشب أو شراب، ثلاثة أيام تجمع الناس فيها ليتطلّعوا لرجل ولد فيهم، صبيًا غنيًا يُدعى بجيل الآباء حتى جلب عقله، ثم رحل غريًا حتى صار ملكًا لمصر التي بايجبت، قبل أن يعود إليهم، بدنا بلا روح.

في فجر اليوم الرابع سرت البرودة في الجسد وتغير لونه، أبى الناس دفنه قبل أن يطلعوا عليه فضولًا، وضعوا جثته على حصيرة في فناء ومروا عليه لنهار كامل يتأملونه ويلمسون جثته، حتى بدأت كرشه في الانتفاخ وتكاثر الذباب حوله.

في الليل دفنه شيوخ القرية في مكان لا يعلمه إلا نفر قليلون حتى لا يصير مزارًا للعابثين أو المردين.

وتم طمس اسمه من فجوة الجبل وصهر سيفه وخاتمه، خوفًا من انتقام الجيبتيين.





«جزء مفقود من البرديات يخص سنوات التيه. وقع بحوزة فردحاي ولم يعد بالإمكان استرجاعه. كان عليّ أنا كاي مترجم تلك البرديات من الهيروغليفية إلى اليونانية أن أفقر بالبوصة سنوات في سيرة نبي الرعاة. وليعقر لي العليّ الحكيم تقصيري وإهمالي».





بعد سنوات.

الحدود الشرقية لأرض الفيروز.

حين وصل الجيش كان الثلج يغطي الجبال والوديان وخدوع التخيل. جلس أفراد القبيلة ككتل من الفرو يستدفئ بعضهم ببعض حول النيران. كتل لا تبدو منها سوى الأعين والأنوف. والنساء لوات. يتبادلون الهمسات في صمت وهم يراقبون الملك الذي داغ صيته وترددت سيرته وسبقته الأخبار. أحمرس يحاصر حصون الرعاة في هواره وما حولها. أحمرس بجناح. أحمرس يشئت. أحمرس يطرد وينكل. الجيبتيون يهبطون من الجنوب إلى الشمال ليسكنوا أراضي الهكسوس التي هجروها لمائة سنة ويزيد. مناوشات وهجوم مضاد من القبائل يصدّه جيش الجيبتيين، القبائل تضعف. تستسلم. ترحل شرقاً. تخاف أسد الفتي الجيبتي وتتحاكى عنه... لم يبق من الرعاة في أرض الفيروز سوى شرادهم متفرقة وجماعات ممزّقة بالكاد تحمي نفسها. يحرض الملك على تصفية وجودها كي لا تتكتل ثانية. يدفعها شرقاً نحو منبتها الأصلي ويزرع الحاميات ويبني القلاع. وها هو يلتقي بموسى بعد سنين غياب، ينزل عن حصانه المغطى بالوبر ليحتضن حليقه بحميمية ويتبادلا حديثاً قصيراً ثم يمضيا لبقعة بعيدة يحرسها الجند فلا تتسرب منها الكلمات. يجلس أحمرس على كرسيه ويضع الحراس كرسيّاً يماثله لموسى ويشعلون النار بينهما.



. ظننت أن لن أراك ثانية.

زفر أحمرس ببخار دافئ:

. إزالة ما خلفه رأس العجل سيرته أحفاد أحفادي.

. هل عثرت عليه؟

. ترددت شائعة عن وصوله قريته بيرة فاران وموته هناك. لم يعد أمره يعنيني. فتأري منه حفرة للزمن على

جدران معبدي ومقبرتي.

. صدقت، الانتقام سمة الأخساء. أعانيه من فتية القبيلة وشيوخها المخرقين. لا زالوا يتشممون رائحته رغبة في

تمزيق جسده والتنكيل به. توقفت عقولهم عند لحظة شق البحر ولم يغادروها حتى الآن. يظنون أنفسهم

شعب الرب المختار.

. «أعبياء. من يتوقف عن الحركة، يموت». حكمة لا تغادر عقلي. أجول من أجلها الأراضي. بلا توقف، أفنحم الحصون

وأفتح المدن. أبني القناطر وأصلح القنوات التي خربوها قبل رحيلهم. ثم يتعدى الكوشيون في الجنوب فأرسل

إليهم من يرد عنهم. وفجأة يناوش الليبيون من العرب فأردهم. حتى الأسد مرض ولم يعد يستطيع مجازاتي.

. الرب في السماء يعرف جسامه حملك. لكنه يؤيدك ويحميك.

. ماذا عنك؟ ما الذي حدث في السنين الماضية؟ وأين أخوك هارون؟

. ذلك ما طلبت لقاءك من أجله. لقد مات هارون منذ ثلاثة أسابيع. عثرتنا على جثته عند سفح الجبل الشرقي.

مهشمة الرأس.

فزع أحمرس:

. قتل! يا لها من مأساة. هل عرف قاتله؟



. كما ترى، أنا أقود نصف من خرجت بهم من البحر، انشق البعض كفراً وراء فتى ظالم، والبقية تفوح منها رائحة التمرد، فمنذ نزل أمر الرب بالخروج من إيجيبث شرقاً، بت أرى في أعينهم الخنوع والتراجع، وفي فمهم السخرية. لقد أمرهم الرب بالاستعداد لقتال مرتقب مع القبائل الرعوية، ووعدهم التأييد بالنصر وجند من الملائكة، وكان جوابهم: «أذهب أنت وريك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون». فما كان مني إلا أن ابتهلت وطلبت من ربي أن يفرق بيني وبين الفاسقين.

. ذلك نذير سوء، استعد معي للرحيل إلى طيبة، وسأتكفل بإخراج قاتل أخيك من بين هؤلاء الخونة.

. لا أستطيع.

. يا حليفي، لقد بت كهلاً، ضاع عمرك على هؤلاء الأبدال، عد معي إلى «واست» لتعيش حياة كريمة، أنت لك مقبرة تحكي حياتك، وأبني لك معبداً، وخذ معك من القبيلة من تأمنهم.

. لقد أمر ربي بالخروج.

. هذا انتحارا

. أشد من الموت ما يتمنى له الموت، لكنك تستطيع أن تقدم لي معروفاً يحمده لك الرب، شيئاً نصحتني به منذ سنين وقد أخذت بنصيحتك ففعلته.

قالها موسى ثم أخرج من تحت رداءه برديات ملفوفة بحزام

. ذلك سجل لحياتي، دونت فيه قصتي وقصة أخي، لعل يأتي زمان يعرف فيه الناس القصة الحقيقية.

نظر أحمس في البرديات ثم لصديقه:

. أمين الحكمة أن أتركك بين هؤلاء؟

. على أن أكمل رسالتي حتى آخر نفس، هل تحتفظ لي بتلك البرديات؟



. سأضعها في معبدي، وسأمر أن توضع في مقبرتي. ونسخاً منها في مقابر من يتولون الحكم من بعدي. في غرفة الجسد، مع سيرة حياة كل راحل وممتون إدريس.

. أشكرك يا صديقي.

احتضنه موسى، ربت أحمس على كتفه وهو يعرف أنها آخر مقابلة بينهما، قالموت يطل من عيني رسول الرعاة، ولا شيء سيمنعه من تنفيذ مشيئته. قاوم البكاء على كتفه، ثم ناوله خنجراً محفوراً عليه اسمه، طلب منه الاحتفاظ به فأبى موسى بابتسامة شاحبة.

بعد ثلاثة أيام اختفى موسى، ثم عُثر على جسده فوق الجبل، مشجوج الرأس من ضربة حجر، دفنوه في موضع قتله.

وكانوا حريصين كل الحرص على ألا يعرف أحد مكاناً لقبره.

تلك كانت نهاية نبي الرعاة، قتله قومه مثلما قتلوا أخاه. وكذلك سيقتلون كل من يعترض طريقهم، حتى ولو كان ملكاً فوق عرشه. أبها الجيبتيون اكتبوا لأبنائكم على البرديات، على الجلود. على ألواح الأوستراكا، وعلى الخدران، اكتبوا وإلا فلن يبقى شيء من حكمتكم سوى حكايات ملفقة. لن تلقوا تصديقا، حتى من أبنائكم، ستصبح إيجيب مهجورة موحشة، وستحرم من زيارات الملائكة. اكتبوا لتفندوا إفاك تلك الترجمة اليونانية، اكتبوا أن «فرعون» لم يكن يوماً ملكاً جيبتياً. «فرعون» كان ملكاً لدولة الرعاة، غزاة الشرق، اكتبوا أن «مصر» المذكورة فيها، والتي تعني «مدينة محورية عامرة يجتمع فيها السخن بأسواق التجارة»، تُرجمت عنوة إلى «إيجيب»، لتحمل أعناق الجيبتيين وزر الدماء التي جرت على يد «فرعون»، وترثوا لعنة ستستقبحون تاريخكم وأرضكم ومعابدكم من أجلها.

تذكروا أبداً:

فرعون: اسم ملك بدوي، هكسوسي





فرعون ليس ملكاً حقيقياً

إيجيبت ترجموها عن عمد إلى: مصر

مصر هي عاصمة أرض الرعاة، أرض الفيروز

أما إيجيبت: اسم أرضكم الأصلي، فيعني:

أرض الإله.





بعد سنة.

مدينة أرسينوي 

حين اقترب من المزرعة تهافتت الكلاب خلف السور الخشبي بتناجٍ يخيف الغرباء. أغمض عينيه وحذا بهدوء ثم رتل متن الحيوان حتى هدأت ذيولها. ثم سكنت. أخرج من النسلة التي يحملها قطع لحم ألغاه إليها فالتقطوها بشغف. ثم اقترب من مزلاج الباب فرفعه ودخل بينها. التفت حوله تتشمم رائحته ولحس ساقيه. قبل أن يتحه بهدوء إلى البيت الخشبي. سحب السكين من حزامه ومشى بحذر حتى التقطت أذناه نكاء رضيع. خفق قلبه فبطأت خطواته وارتعشت السكين في يده. «ناديا؟ ابني؟» لسنة كاملة لم يفتأ يتتبع خيرها. رائحتها التي لم تغادر أنفه يوماً. يمشي في الأرض فطأطن الرأس يبحث بين الأقدام عن قدمها الصغيرة. أصابعها التي عبقها. حتى التقط يوماً خبراً عن جامع كلاب يعيش في مدينة أرسينوي. يربّيها ويعقد حلقات المصارعة. سافر ليالي طوالاً دون طعام. دون توقف. يدفعه الأمل أن يرى عينيها ثانية. أن يمشي بأنامله على جلدها الخمرى. أن يحتضنها فتتكوم بداخله ليحميها من تلك التي تعيش بداخلها. تلك اللعينة التي صبت الحمم في أذنيها ففرقت بينهما. يعزوه الأمل ألا تكون قد تمكنت منها. أو أقنعتها أن تربي ابنها بدلاً منها لتبث في أذنيه أحلامها المسمومة.

زفر فأفرغ رثتيه من الهم والترقب ثم تابع الالتفاف حول البيت الخالي. حتى رآه. جالساً فوق جذع مقطوع. طويل الشعر



هزيل الجسد، يداعب بشرود رضيعة في عمر سنة، رضيعة لها لون ناديا، اقترب كاي فالتفت آرام، نظر إليه في هدوء، المنتظر، ثم قام يحمل الرضيعة، تحفز كاي وقبض على السكين، لم يبدُ على آرام تراجع أو اهتمام، اقترب حتى بات على بُعد ذراع، وضع الصغيرة بين ذراعي كاي فذهل، سقط سكينه، نظر في الوجه الصغير الذي يحمل قسما من اسجده أرضاً، ثم في عيني آرام قرأ الخواء والحطام اللذين خلفتهما ناديا، فتح فمه بصعوبة كمن صام عن الكلام دهرًا:

. ماتت ناديا بعد ولادتها بساعات، قلبها لم يتحمل، أسمتها مليكة.

توقف قلب كاي.

أردف آرام:

. رحلت بها إلى هنا لعلها تنسى ماضيها، لعلها تنساك، باتت تحدث الجدران، الكلاب، تراود فتيان القرية، وتسب فتاة لا تراها عينا، حتى اضطربت الحمى في جسدها، ثم أراحها الرضيعة منك ومني، ومن نفسها.

همس كاي بشرود:

. قتلتها الملعونة، لأنها أحبّني.

. أيها الساذج، ناديا لا تعرف العشق، ناديا تعرف فقط، كيف تعشق.

. أين هي؟

أشار آرام لمزهريّة من الفخار تحت شجرة صفصاف بعيدة.

. تكفلت النار بتطهير روحها.

قالها وابتعد، عائداً لكلاب ركضت حوله، بينها كلب ناداه بسيربيروس.

داعب كاي الأنامل الصغيرة التي تنثني مثل أنامل أمها، داعب الشفاه المكتنزة والشعر المموج الداكن، ثم تمشّى



بأنامله على جلدتها الخمرى، وشامة الرسغ التي ورثتها عن أمها، ثم دنا من شجرة الصفصاف، ماشياً فوق الشقوق  
واللُهف، وضع ابنته على العشب وسقط على ركبتيه، خائر القوة، يكي كما تبكي الرجال على امرأة، بحرقه، حتى روت  
دُموعه العشب، ارتعشت شفتاه بمُتون الحب والرُحمة، وكلمات كان يُدخرها لأذنيها، وأحلام ذهبت هباءً، وأمال أكلتها  
تماسيح النهر، ثم احتضن ابنته الخمرية، وحمل المزهرية، فابتعد، إلى أرض لا تعرفه، عاش فيها وحكى لصغيرته كلما  
نضجت، عن الراعي، عن البرديات العجيبة، ترجمة الدم ونبي الرعاة، وعن أمها التي لم ترها؛ أمها التي قتلته، عشفًا.

١(أ) أرسينوي: مدينة الفيوم حالياً.





صنع «كاي» من ترجمة سفر «التصحيح» للكاهن الأعظم «مابيتون السمنودي» نسختين، أودع إحداهما معبد حتحور بأرض الفيروز، وأودع الأخرى رفوف مكتبة الإسكندرية تحت اسم «أرض الإله». أما رفات ناديا، فنثره كما أوصته، في جبانة المعبد قرب عرانش العلب، حيث تخرج أرواح الأموات من الأرض في جذوع الأشجار.

احتُرقت مكتبة الإسكندرية في زمن الإمبراطور الروماني «يوليوس قيصر» عام ٤٨م.





في نوفمبر من عام ١٩٢٢ تم اكتشاف مقبرة الملك «توت عنخ آمون» على يد الأثري الإنجليزي «هوارد كارتر» وبتمويل من لورد «كارنارفون الخامس» «جورج هيربرت سنايهورب». لاقى الحدث اهتماماً عالمياً لأن المقبرة سليمة وكاملة، لم تطلّها يد اللصوص من قبل.

بعد عشرين يوماً من اكتشاف المقبرة تم العثور على حائط مغلق بختم ملكي يشير إلى أن مومياء الملك ستكون حتماً وراءه، وكانت التقاليد تقضي بوجوب إخطار كبير مفتشي الأقصر بأي كشف قور التوصل إليه. وهو ما تم بالفعل. بعد يومين من إزالة الأتربة عن الحائط تحضيراً لفتحه بحضور مفتشي الأقصر وبعض رجال السلطة والمندوبين. ودون إخطار. اقتحم «هوارد كارتر» ولورد «كارنارفون» وابنته «ليدي إيفيلين» تلك الغرفة ليلاً. قضوا فيها ليلة كاملة، نقلوا خلالها بعض المقتنيات إلى غرفهم. قبل أن يغلقوا الفتحة التي حفروها ببعض الأثاث الأثري. ويتصنعوا أمام الحاضرين افتتاحها في اليوم التالي.

في المؤتمر الصحفي الذي عقب الكشف المُنهر عن غرفة الدفن سأل الحاضرون بفضول عن برديات الملك «توت عنخ آمون»، حيث من الثابت أن غرفة الدفن تحوي سيرة الملك وبعض النصوص الجنائزية من كتاب «الخروج إلى النهار». لكن «هوارد كارتر» أنكر العثور على أي بردية! وصرّح بأن الصندوق الذي أعلنوا أن فيه برديات، ما كان إلا بقايا لفائف الكتان المتخلف عن تحنيط المومياء!





في فجر الخامس من إبريل من عام ١٩٢٣ تَوقِي مَمول الحفريات «لورد كارنارفون الخامس» إثر مضاعفات قرصة ناموسة!

قبلها بأسابيع كان يُعاني من أعراض تشبه التسمم بالزرنيخ، مثل تداعي الأسنان وتشنجات الجسم وظهور بقع لونية بأظافر الأصابع.

في ربيع ١٩٢٤ أوقف «هوارد كارتر» التنقيب في المقبرة بسبب رفض مَصْلحة الآثار تجديد تصريح التنقيب الخاص بزوجة اللورد «كارنارفون»، لما لاقته المصلحة من مخالفات وتلاعب بسجلات مقتنيات المقبرة، فما كان منه إلا أن اندفع إلى مَبْنَى القنصلية البريطانية بالقاهرة طلباً للدعم قابل «كارتر» هناك أحد المسؤولين الذي أكد له صعوبة التدخل لحساسية القضية. ولأنه كان معروفاً بحدّة المزاج بدأ «كارتر» يَصيح في المسئول حتى سمعه موظفو المكاتب المجاورة يعلن بأنه:

«إن لم يتلقُ ترضية كافية وعادلة، فسينشر على العالم كافة تفاصيل نصوص البرديات التي عثر عليها بالمقبرة، والتي تحوي القصة الحقيقية لما يسمى بـ«الخروج اليهودي من مصر»؛ والذي حدث حوالي عام ١٥٧٣ ق.م.».

وتطور الموقف حتى قذفه المسئول بمحيرة ارتطمت بالحائط فتحطمت، قبل أن يهدأ الرجلان ويتوصلا لاتفاق نتج عنه سكوت «هوارد كارتر» عن هذا الموضوع، إلى الأبد.





في أكتوبر من عام ١٩٥٦ هاجم الإسرائيليون سيناء في احتلال تأمري مشترك مع إنجلترا وفرنسا. بعد شهر من نفس السنة هبطت مروحية الجنرال «موشيه ديان» في منطقة «سرابيط الخادم». دأهم وبعض معاونيه معبد حتحور، استولوا على قطع أثرية وعدد من اللوحات يُطلق عليها أهل سيناء اسم «سربوط». كان يُنقش عليها سيرة ملوك مصر وأخبار الحملات العسكرية التي قادوها ضد غزة الشرق المعروفين بالهكسوس.

امتدت حملات تنقيب الإسرائيليين الواسعة في خمسة وثلاثين موقعاً أثرياً بـسيناء تم تدمير معظمها، حتى خروجهم النهائي منها عام ١٩٨٥.





مَدِينَة «هَوَارَة» عَاصِمَة الْهَكَسُوس يُطْلَق عَلَيْهَا الْآن اسْم «القَنْطَرَة شَرْق».

أَمَّا «مِصْر» فَتَعْرِف الْآن بِسَيْنَاء ؛ بِسَبِّة إِلَى الْإِلَه «سِين»؛ إِلَه الْقَمَر.



## شكرًا خاص

م. عاطف عزت	فاطمة الزهراء زكي
م. محمد عبدالعزيز خليفة داود	مي مراد
د. نديم السيّار	ناهد نصر الله
أ. أحمد علي الشيخ	لينا النابلسي
د. حسن كمال	شيماء علاء
د. تامر إبراهيم	آدم عبد الغفار
شيرين راشد	نرمين نعمان
محمد صادق	خالد ذهني
وجدان حسين	إيمان أسامة
د. عبير قاسم	إيمي رزيق

